شرح

كتاب التوحيد

تأليف

الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-

شرح فضيلة الشيخ

صالح بن محمد السويح

حفظه الله

كتاب التوحيد

(المقدمة)

مقدمة الشارح عن أهمية الكتاب ومحتواه

وكذلك معنى التوحيد والشرك وأقسام التوحيد

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

أسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يجعل هذا اللقاء خالصًا لوجه الكريم وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

هذا الكتاب هو كتاب ألفه الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وهو (كتاب التوحيد) وهو كتاب عظيم عُني به العلماء عناية فائقة، ما من عالم من علماء هذه البلاد التي قامت على دعوةٍ سنيةٍ سلفية هي دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ منذ أن ألف الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا الكتاب إلا وهو يهتم بهذا الكتاب اهتمامًا بالغًا؛ حتى إن العلماء يوصون الطلبة بحفظه، ويدرسونه ويكررون تدريسه.

عنوان هذا الكتاب/

كتاب التوحيد

والتوحيد حينما يُطلق في القرون المتأخرة الثلاثة؛ فإن غالبًا معناه توحيد العبادة، بأن تكون العبادة لله وحده، وقد يُطلق التوحيد ويراد به أيضًا غير توحيد العبادة كتوحيد الأسماء والصفات، وفي هذا ألف ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ تعالى كتابه كتاب (التوحيد) وجعله فيه الأسماء والصفات.

والتوحيد مصدروحد يوحد توحيدًا جعله واحدًا؛ وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: توحيد العبادة وهو توحيد الله بأفعال الله؛ بأن تُجعل العبادة لله وحده.

النوع الثاني: وتوحيد الأسماء والصفات بأن توحد الله جَلَّ وَعَلَا بما له من الأسماء والصفات، فلا تجعل لله ندًا ولا نظيرًا ولا شبيهًا، كما جرى عليه مذهب أهل السنة والجماعة

وذلك بإثبات ما أثبت الله جَلَّ وَعَلَا لنفسه من الأسماء والصفات، أو أثبته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونفي ما نفى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجه الكمال، إثباتًا بلا تشبيه وتنزيهًا بلا تعطيل.

النوع الثالث: توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية يعني توحيد الله جَلَّ وَعَلَا بأفعاله، بأن تعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر، وأنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله، ولا مدبر إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذه الأنواع الثلاثة دل عليها الكتاب والسنة وإجماع العلماء وهي في سورة الفاتحة؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 2]، فيها بيان توحيد الأسماء والصفات، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، فيها أيضًا توحيد الأسماء والصفات، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 3]، فيها توحيد الأسماء والصفات، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4]، هذه فيها توحيد الربوبية أنه المالك جَلَّ وَعَلَا، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، هذه فيها توحيد الإلهية يعني نعبدك وحدك ولا نعبد سواك.

إجماع العلماء ثبت واشتهر على أن التوحيد ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة:

1. توحيد الإلهية.
2. وتوحيد الأسماء والصفات.
3. وتوحيد الربوبية.

من نقض التوحيد في أحد هذه الأقسام الثلاثة فيسمى مشرك، ويطلق الشرك إطلاقات؛ فإذا قيل: الشرك؛ فإنه يطلق على توحيد العبادة، وهذا هو الغالب في القرون المتأخرة، وقد يُطلق الشرك أيضًا على توحيد الأسماء والصفات أو على توحيد الربوبية، والشرك نقيض التوحيد، وهو تسوية الله جَلَّ وَعَلَا بخلقه فيما هو من خصائصه؛ في ذاته، أو ربوبيته، أو أسمائه وصفاته، أو عبادته، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ 97 إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 97، 98].

نسأل الله أن يوفقنا لتحقيق التوحيد والإيمان به

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (1)

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى بدأ كتابه بقوله: **(كتاب)** وقوله: **(كتاب)** على وزن فعال؛ أي مجموع، ومنه الكتيبة، سميت كتيبة لأنها تجتمع على قائد؛ فينضم بعضها إلى بعض فسميت كتيبة، ويقال: تكتب القوم أي تجمعوا، فهو مجموع أي أنه جُمع بحروفه وضمت معانيه بعضها لبعض حتى انتظم فسمي كتابًا.

وقوله: **(التوحيد)** تقدم معنا التوحيد، وأراد بقوله: **(كتاب التوحيد)** يعني كتابُ أحكام التوحيد وبيانه ومسائله، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى درج في تأليفه لهذا الكتاب على طريقة الأئمة؛ حيث أنه يأتي بترجمة ويذكر تحتها ما هو في معناها من الآيات والأحاديث؛ ثم قد يضع تعليقًا فيوضح المعنى وهذا قليل، فعامة ما في الكتاب هو آيات وأحاديث؛ ثم يختم هذا الباب بذكر مسائل دلت عليها الآيات، وهذه المسائل هي أشبه بشرح المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لهذا الكتاب، فهي مسائل عظيمة جليلة القدر.

(المتن)

كِتاب اَلتَّوْحِيدِ

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: 151].

قَالَ اِبْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اَلَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمِهِ فَلْيَقْرَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: 151]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153]..اَلْآيَةَ.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي يَا مُعَاذُ؟ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اَللَّهِ عَلَى اَلْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ اَلْعِبَادِ عَلَى اَللَّهِ؟ قُلْتُ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: حَقُّ اَللَّهِ عَلَى اَلْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَحَقُّ اَلْعِبَادِ عَلَى اَللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. قُلْتُ يَا رَسُولَ اَللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ اَلنَّاسَ؟ قَالَ لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي اَلصَّحِيحَيْنِ.

(الشرح)

هذه النصوص التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى تبيّن معنى التوحيد، فهو ذكر هذه النصوص كمفتاح لكتابه ليُبين حقيقة التوحيد، وليُبين أيضًا أهمية التوحيد، فحقيقة التوحيد أنه مبني على ركنين وهما: (الإثبات، والنفي) إثبات العبادة لله وحده لا شريك له، ونفيها عما سواه، فتعتقد أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المستحق للعبادة دون من سواه، وتعتقد أن عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ عبادة باطلة.

ويقتضي ذلك أن توالي من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا، وأن تعادي من أشرك بالله جَلَّ وَعَلَا وجعل له ندًا، ودل على هذا المعنى الآيات وهي قوله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36].

فالركن الأول؛ وهو (الإثبات) في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 36]، هذا إثبات، قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]، هذا النفي؛ أي اعتقدوا بطلان عبادة ما سوى الله جَلَّ وَعَلَا، أيضًا الآية الأخرى كلها دلت على هذا المعنى وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: 36]، هذا الركن الأول وهو الإثبات، وقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، هذا هو الركن الثاني وهو النفي، فدل على أن التوحيد لا يصح إلا بهذين الأمرين؛ وهما النفي والإثبات.

أيضًا الآيات هذه دلت على فضل التوحيد من جهتين:

الجهة الأولى: أن الله خلق الإنس والجن كلهم من أجل هذه المسألة العظيمة وهي توحيد الله، ولذلك ذكر الآية وهي قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

أيضًا دل على أهمية التوحيد من جهة: أن الرسل كلهم بعثوا به، دل على هذا قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

أيضًا دل على أهمية التوحيد من جهة: أن أول أمر يأمر الله به عباده به هو التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، فكل أمر إنما هو بعد التوحيد.

أيضًا أعظم نهي نهى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه هو الشرك، ولهذا جعل الشرك أعظم المحرمات؛ في قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: 151]، فهو أعظم الذنوب والمعاصي.

أيضًا دل على أهمية التوحيد من جهة أخرى؛ وهي: أنه وصية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتمه، يعني التي مات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يوصي أمته بها، ولهذا قال ابن مسعود: **(مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمِهِ فَلْيَقْرَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: 151])** .. الآيات.

أيضًا دل على أهمية التوحيد من جهة: أنه حق الله الذي من نازع الله فيه أهلكه، أهلكه بالعذاب والخسار والهلاك والخلود في النار؛ ولهذا قال: **(أَتَدْرِي مَا حَقُّ اَللَّهِ عَلَى اَلْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ اَلْعِبَادِ عَلَى اَللَّهِ؟ قُلْتُ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اَللَّهِ عَلَى اَلْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)** هذا هو التوحيد، نسأل الله أن يثبتنا على دينه ويحيينا على الإيمان.

نسأل الله أن يوفقنا لتحقيق التوحيد والإيمان به

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (2)

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

(الشرح)

بعد أن بيّن حقيقة التوحيد والأدلة على بيان معناه وأنه ركنان: (نفيٌ وإثبات) فلا يصح النفي إلا بالإثبات، ولا يصح الإثبات إلا بالنفي، وذكر جملة من الأدلة على ذلك كما في الباب الأول، ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى فضل التوحيد، وقوله: **(فَضْلِ التَّوْحِيدِ)** يعني ما جاء من الأدلة في بيان مكانة التوحيد وفضله، وقوله: **(وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ)** يعني وتكفيره الذنوب.

(المتن)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الْآيَةَ.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»، أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ قَالَ قُلْ يَا مُوسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ

وَصَحَّحَهُ.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ آتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

(الشرح)

هذا الباب ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى في بيان فضل التوحيد ومكانته، وما يكون من عظيم ثمرته وهو تكفير الذنوب، ذكر الآية الأولى وهي قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

وجه الاستشهاد بهذه الآية: قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، فسرها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الحديث أن الظلم هو الذي قال الله جَلَّ وَعَلَا فيه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، فالظلم في هذه الآية هو الشرك بالله، فمن فضل التوحيد أن من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله، ولم يخلط عمله بشرك أكبر يخرجه من دين الإسلام، أو بشرك أصغر ينقص توحيده؛ فإنه يأمن بفضل الله جَلَّ وَعَلَا من عذابه، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾، يعني أمن من العذاب، وقوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، أي أمنٌ من الضلال، وهذا من عظيم ثمرة تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن من عظيم ثمرتها السلامة من الضلال والزيغ والردة، كذلك السلامة عند لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ من العذاب.

ويدل على هذا المعنى الحديث الثاني الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وهو حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: **(مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)** .. الحديث؛ ثم قال في آخره: **(أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ)** بمعنى أن من كان على التوحيد ثم لقي الله عَزَّ وَجَلَّ لا يشرك بالله شيئًا وإن كان عنده بعض السيئات والذنوب؛ فإن حسنة التوحيد تمحو السيئات برحمة الله عَزَّ وَجَلَّ وفضله.

ويؤيد هذا المعنى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، فما دون الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا فهو تحت رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ ومغفرته، فإذا شاء الله عَزَّ وَجَلَّ أكرم عبده الموحد بأن محا سيئات ولم يعذبه بها فكان من أهل الجنة، وأيضًا يدل هذا الحديث على أن من ثمرة التوحيد وفضله أن الموحد لا يخلد في النار، ولذا قال: **(أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ)** فإنه قد يعذب بعدل الله عَزَّ وَجَلَّ وبما تقتضيه حكمته، ولكن لعظيم توحيده؛ فإنه لا يخلد في النار.

كذلك يدل هذا الحديث على أن من ثمرة التوحيد أن السيئات قد تمحى بالشفاعة، فيشفع

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويشفع الأولياء والصالحون من عباد الله لأهل التوحيد؛ الذين استحقوا عذاب الله جَلَّ وَعَلَا فلا يعذبون، أو أنهم دخلوا النار بعدل الله فيخرجون منها برحمة الله عَزَّ وَجَلَّ بشفاعة الشافعين، وليس هذا إلا لأهل التوحيد نسأل الله من فضله، فهذا الحديث حديث عظيم يدل على مكانة التوحيد وفضله وأن التوحيد يكفر الذنوب.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الحديث الذي يليه وهو حديث عتبان؛ قال: **(فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ)** فهذا الحديث دل على مكانة التوحيد، وأنه أعظم أمرٍ أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به مما يكون من ثمرته السلامة من النار والعذاب، قال: **(يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ)** وهذا يتضمن أن التوحيد ليس قول دون العمل؛ فإن من كان صادقًا في ابتغاء السبيل سلكه، وأما الكاذبون فإنهم يدعون ولا يعملون، فهذا يدل على أن التوحيد قول وعمل واعتقاد، فهذا تضمن أن التوحيد لابد فيه من العمل، وأن من قال: لا إله إلا الله دون العمل فإنه لم يبتغ وجه الله حقيقة؛ فإن مقتضى كونك تقول: لا إله إلا الله تبتغي بذلك وجه الله فإنك تعمل بمراد الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا هو الذي يثمر النجاة من العذاب، والخلود في النار نسأل الله العافية والسلامة.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الحديث الذي يليه وهو حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث عظيم؛ فيه فضل التوحيد، فيه مكانه التوحيد، وفيه أن حسنة التوحيد لا يعدلها حسنة من الحسنات، ولهذا لما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: **(يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ قَالَ قُلْ يَا مُوسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟)** فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد لكونه كليم الله، ولكونه نبي الله، ولكونه من أولي العزم من الرسل دعاءً يختصه الله عَزَّ وَجَلَّ به من دون الناس، لمكانته عند الله، ولحسن ظنه بالله، فبيّن الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه أن قول: لا إله إلا الله أعظم الذكر وأعظم العبادة، ما لو وزنت هذه العبادة وهي قول: لا إله إلا الله، وزنت بكل شيء لم يزنها شيء لعظيم ثقلها عند الله؛ فقال الله جَلَّ وَعَلَا: **(يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي)** وعُمار السماء لا يحصيهم إلا الله جَلَّ وَعَلَا، سبع سماوات فيها الملائكة المقربون المكرمون؛ الذين قال فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أطت السماء وحق لها أن تئط ما من موضع شبرٍ إلا وملك قائم راكع وملك ساجد**»، السماوات السبع مليئة بالملائكة، كذلك فيها من خلق الله ما لا يحصيهم إلا الله، فيها الشمس والقمر والنجوم والكواكب وغير ذلك.

قال: **(وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي)** هذا دليل أن السماوات سبع، وأيضًا دليل على أن السماوات فيها عُمار، قال: **(وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ)** يعني بالإضافة إلى السماوات السبع الأراضين السبع، فالأراضين سبع، وما فيها مما فيها من كنوزٍ، ومما فيها من خلق، ومما فيها من أحمال وأثقال، لو أن هذا الخلق العظيم كله علويه وسفليه وما فيه مما يُعلم، ومما لا يُعلم، مما يُبصر، ومما لا يُبصر، لو

كان في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله.

فهذا يدل على فضل التوحيد، ومكانته، وأن كلمة لا إله إلا الله كلمة عظيمة تثقل في الأعمال، وتثقل في الحسنات إذا كانت عند اعتقاد صحيح، وكانت عن عمل صحيح، فهذا يدل على مكانة التوحيد وفضله، ويدل أيضًا على أن التنبيه على فضل التوحيد ومكانته يحتاجه كلّ أحد؛ حتى الأكارم من الناس والفضلاء، ولهذا نبي الله موسى نُبه على فضل التوحيد.

أيضًا ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الحديث الذي يليه وهو حديث أنس؛ قال: **(عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ آتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)** هذا يدل على أن من خلص عمله من الشرك الأكبر والشرك الأصغر؛ كان من ثمرة ذلك رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ له ومغفرته سيئاته، وهذا فضل من الرحمن وكرم، وإن كان ليس بالأمر السهل أن ينجو المسلم من الشرك وإن كان صغيرًا، لكن يجاهد الإنسان نفسه ويسأل الله جَلَّ وَعَلَا دائمًا أن يحقق التوحيد وأن يحييه على التوحيد ويميته على التوحيد؛ حتى إذا أقبل على الله عَزَّ وَجَلَّ ووضع في قبره كان من السعداء؛ لأنه من أهل التوحيد فينال مغفرة الله عَزَّ وَجَلَّ به، فهذا دل على تحقيق التوحيد.

كتاب التوحيد

رقم الباب (3)

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

قال الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

بَابٌ مَنْ حَقَّقَ اَلتَّوْحِيدَ دَخَلَ اَلْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

(الشرح)

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى ذكر هذا الباب أيضًا ليدل على فضل التوحيد ومكانته، وأن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، قوله: **(مَنْ حَقَّقَ اَلتَّوْحِيدَ)** يعني خلصه من الشرك الأكبر والشرك الأصغر والإصرار على الكبائر والبدع، هذا هو تحقيق التوحيد، أن تخلص توحيدك من الشرك الأكبر والشرك الأصغر، والإصرار على الكبائر والبدع، ثم ذكر الأدلة على ذلك.

(المتن)

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120].

(الشرح)

هذه الآية فيها الثناء نبي الله جَلَّ وَعَلَا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأنه حقق التوحيد ولهذا كان أمة، وقوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]، يعني كان قدوة للموحدين من بعده، هذا معنى أمة، أو أنه كان الأمة وحده؛ لأنه كان هو المسلم وحده على الأرض، ثم كانت معه زوجه سارة، فلم يكن على الأرض إلا إبراهيم وسارة على التوحيد، وباقي الناس على الشرك.

وكان أمة أيضًا من جهة أنه أكمل ووفى ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 37]، وفى يعني وفى ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به، فهذا دل على

تحقيق التوحيد.

ودل أيضًا على أن معنى تحقيق التوحيد في هذه الآية هو الحنيفية، قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: 120]، الحنيفية هي تحقيق التوحيد، ومعنى حنيف مائل، ومنه يقال: (رجلٌ حنيف) إذا كان في ساقيه ميلٌ، والحنيفية هي التوحيد، وفيها يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعثت بالحنيفية السمحة**»، والحنيفية هي الملة المائلة من الكفر إلى الإسلام، ومن الشرك إلى التوحيد، وبذلك يفسر قوله: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120].

فدل على أن التوحيد لا يكفي أن تقول: لا إله إلا الله؛ إلا أن تتبرأ من الشرك الأكبر والأصغر، وتخلص عملك من الشرك الذي يخرجك من الإسلام، هذا معناه تحقيق التوحيد الذي يكون به دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

(المتن)

وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: 59].

(الشرح)

هذه فيها صفة أهل الإيمان، وهذا أيضًا يفسر معنى التوحيد، وأنه لا يكفي أن تقول: لا إله إلا الله مع الشرك، فلابد مع قول: لا إله إلا الله أن تكون العبادة خالصة لله، وأن تتبرأ من الشرك الأكبر وأن تتبرأ من المشركين، وتخلص عملك من الشرك كبيره وصغيره.

(المتن)

وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ اَلرَّحْمَنِ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ أَيُّكُمْ رَأَى اَلْكَوْكَبَ اَلَّذِي اِنْقَضَّ اَلْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ أَنَا ثُمَّ قُلْتُ أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ قَالَ فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ اِرْتَقَيْتُ قَالَ فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ اَلشَّعْبِيُّ قَالَ وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»، قَالَ قَدْ أَحْسَنَ مَنِ اِنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا اِبْنُ عَبَّاسٍ عَنْ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ اَلْأُمَمُ فَرَأَيْتُ اَلنَّبِيَّ وَمَعَهُ اَلرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ اَلرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ اَلنَّاسُ فِي أُولَئِكَ- فَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمْ اَلَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ**

بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ " هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ أُدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ: " أَنْتَ مِنْهُمْ " ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: أُدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: " سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ"».

(الشرح)

هذا الحديث حديث عظيم دل على أن الناس في التوحيد طبقات، منهم من حقق التوحيد؛ فهذا يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ومنهم من دون ذلك فيحاسب، وتستر عليه ذنوبه، ومنهم من يحاسب فيدخل النار، ولكن توحيده بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ ورحمته به يكون سببًا في خروجه من النار ودخوله إلى الجنة، فهم طبقات في التوحيد، دل هذا أيضًا على فضل أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم أكثر الأمم.

دل أيضًا على السبب الذي يُثمر أن المسلم يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب وهو التوكل على الله، وهو اعتماد القلب على الله، وتفويض الأمر إليه، وهذا هو تحقيق التوحيد، ولهذا قال في هذا الحديث العظيم: **(هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)** فهم لا يسترقون يعني لا يطلبون الرقية، ولا يعني ذلك أن الرقية لا تجوز؛ أو أن من رُقي قد فاته هذا الحظ العظيم وهذا الفضل الكبير؛ ولكن هو يترك طلب الرقية حتى لا يكون لأحدٍ عليه يدًا؛ وإنما يتوكل على الله في شفائه فيرقي نفسه، أو يرق فيأذن بذلك ولكن لا يسأله.

أيضًا مثل ذلك **(وَلَا يَكْتَوُونَ)** وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون في الكي وأنه يشفي من الداء والمرض، وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذن بالكي ولكن نهى عنه كراهة لأن فيه تعظيم.

قال: **(وَلَا يَتَطَيَّرُونَ)** والتطير هو التشاؤم، فكانوا يتشاءمون بالطير كالغراب الأسود وغيره، فإذا كان مسافر ترك سفره وغير ذلك، وهذا من ضعف تحقيق التوحيد، فمن تحقيق التوحيد أن يكون قلبك عظيم الاعتماد على الله جَلَّ وَعَلَا في جلب المحبوبات ودفع المكروهات، وبهذا يتحقق فضل الله على عبده من ثمرة تحقيقه للتوحيد، فيدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

أيضًا هذا الحديث فيه فضل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وأنهم حينما يسمعون العلم عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنهم يستوعبونه ويفهمونه، وما لم يدركوا معناه سألوا عنه، ولهذا لما خرج عليهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا يخوضون في هؤلاء، يسألون منهم؟ فأجابهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فدل على فضل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

نسأل الله أن يثبتنا على دينه ويرزقنا تحقيق التوحيد ويحيينا على ذلك ويمتنا عليه

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (4)

باب الخوف من الشرك

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ اَلْخَوْفِ مِنْ اَلشِّرْكِ

(الشرح)

لما بيّن حقيقة التوحيد، وبيّن فضله، ورغب فيه. بيّن أن ضد التوحيد وهو الشرك حقيقٌ أن يُخاف، ووجه ذلك أن من عرف ما للتوحيد من الفضائل، وما له من المنزلة العظيمة وما لأهله من المكانة الجليلة، لأنه يخاف أن يفوته هذا الفضل، وأيضًا إذا عرف أن التوحيد سبب النجاة والفوز والفلاح في الدنيا وفي الآخرة، وأنه سبب السلامة من العذاب والخلود في النار؛ فإنه يخاف من ضده، حيث أنه يعلم أن ضده وهو الشرك سبب الخوف، وسبب القلق، وسبب الظلال، وسبب العذاب نسأل الله العافية والسلامة، ولهذا ناسب أن يذكر هذا الباب.

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(بَابُ اَلْخَوْفِ مِنْ اَلشِّرْكِ)** يعني أن المؤمن الموحد المسلم المستقيم على أمر الله جَلَّ وَعَلَا لا يأمن على نفسه من الزيغ، ولا يزكي نفسه، ويظن أنه لا يزيغ وأنه على خير، وأنه يُختم له بالخير، وأنه من أهل الجنة، فهو ما دامت روحه لم تبلغ الحلقوم فإنه لا يزال يخاف على نفسه من الزيغ، وهذا هو هدي الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في الآيات التي سيذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

(المتن)

وَقَوْلِ اَللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

وَقَالَ اَلْخَلِيلُ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

وَفِي اَلْحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اَلشِّرْكُ اَلْأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ "اَلرِّيَاءُ».

وَعَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اَللَّهِ نِدًّا دَخَلَ اَلنَّارَ**»، رَوَاهُ اَلْبُخَارِيُّ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ; أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ لَقِيَ اَللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا; دَخَلَ اَلْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا; دَخَلَ اَلنَّارَ**».

(الشرح)

فهذه الأدلة دلت على وجوب الخوف من الشرك؛ لأن نقض التوحيد أمر سهل، إما أن يكون بالقول، وإما أن يكون بالفعل، وإما أن يكون بالاعتقاد، وإما أن يكون بالشك، فيكون بالقول كسب الله جَلَّ وَعَلَا، أو دعاء غير الله، ويكون بالاعتقاد بأن تعتقد في المخلوق ما هو خاص بالخالق جَلَّ وَعَلَا، ويكون أيضًا بالفعل كالذبح لغير الله، أو النذر لغير الله، أو يكون بالشك بأن يتردد لا يعرف الحق ولا يعرف الباطل، ولا يعرف ما جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربه من كتابه وأمره وشرعه حقٌّ أم باطل؟ فهذا هو نقيض التوحيد، ولذلك إذا عرف المسلم ذلك خاف أن يقع فيه، وأيضًا إذا عرف أن أكثر الناس على غير الحق، وعلى غير الهدى، وعلى الشرك بالله، وعلى الكفر بالله، وأن أقل الناس هم أهل التوحيد والإيمان أيضًا يخاف، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

ومما يوجب للمسلم أن يخاف من الشرك أو أن يقع فيه أن يعرف حكمه، فإن حكم الشرك أنه يبطل العمل، وصاحبه في الآخرة من الخاسرين، ولهذا ذكر الآية العظيمة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48]، فيخشى المسلم أن يلق الله جَلَّ وَعَلَا على الشرك، فيحبط عمله ولا يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ له ذنبه، وهذه الآية أيضًا فيها فضل التوحيد؛ لأن ما دون الشرك يغفره الله عَزَّ وَجَلَّ إذا شاء لأهل التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾ [النساء: 48]، يعني من الكبائر والذنوب.

وأيضًا مما يوجب الخوف من الشرك أن تعرف هدي الأنبياء وتعظيمهم للتوحيد وحرصهم عليه، وعظيم جهادهم في سبيل بلاغه، ومع ذلك كله يخافون على أنفسهم من الشرك ونقض التوحيد؛ كما في الآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى وهي من سورة إبراهيم؛ وهي قول الله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

قالها من؟ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عنه أنه وفى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 37].

وأخبر الله جَلَّ وَعَلَا عنه أنه أمة، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: 120]، وأخبر الله جَلَّ

وَعَلَا عنه أنه كسر الأصنام، وله جهادٌ عظيم في سبيل التوحيد والدعوة إليه، وبلاغ أمر الله، والصبر على مخالفة الخلق في سبيل الحق، ومع ذلك يخاف على نفسه أن يترك التوحيد ويكون من المشركين.

وهذه الآية أيضًا فيها فائدة: أن من خاف على نفسه من الشرك فإنه يحمله خوفه هذا على سوء الظن بالله، وإنما يلجأ إلى الله بأن يثبته على التوحيد، وينجيه مما يخاف وهو الشرك بالله والكفر به، ولهذا كان من دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يقول: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه**».

فيلجأ المؤمن الموحد إلى الله أن ينجيه من الشرك الذي هو سبب الخسارة، وسبب هدم الحسنات والخلود في النار، نسأل الله العافية والسلامة.

أيضًا هذه الآية فيها فائدة وهي شفقة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ببنيه، ولهذا دعا لبنيه أن يجنبهم الله عبادة الأصنام، وأيضًا فيه فائدة وهي تربية الأبناء على التوحيد، فإذا كان يدعو لهم أن يكونوا على التوحيد وأن يثبتوا عليه وأن يجتنبوا الشرك فهو أيضًا يسعى بنفسه أن يدعوهم إلى التوحيد ويربيهم عليه، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ 130 إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ 131 وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 130 - 132].

فهذا فيه منهج الأنبياء في تربية الأبناء على التوحيد، ثم قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: 133]، ويعقوب ابن من؟ ابن إبراهيم، ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: 133]، هكذا أيضًا أبناء الأنبياء وهم الأنبياء يربون أبناءهم على التوحيد ويوصون به، ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ 133 تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: 133، 134].

هكذا أيضًا الموحد يسير على منهج هذه الأمة التي خلت، فيسير على منهجها في تعظيم التوحيد والعمل به وتربية الأبناء عليه، ووصيتهم به، وأيضًا الدعاء لهم أن يكونوا على التوحيد ويموتوا على التوحيد، فدل هذا على أن الأنبياء إذا كانوا يخافون على أنفسهم وعلى ذريتهم من الشرك؛ فكيف بمن دونهم؟!!

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى ذكر بعد ذلك؛ قال: **(وَفِي اَلْحَدِيثِ: أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اَلشِّرْكُ اَلْأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ اَلرِّيَاءُ)** هذا أيضًا من الأدلة على أن الأنبياء يخافون على أمتهم الشرك، فدل على أن الشرك أمره خطير، ولهذا كان أعظم ما يخاف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

على أمته الشرك، وأعظم ما يخاف الشرك الأصغر، لماذا؟ لأن هذا الذي قد لا يسلم منه كثير من المسلمين، ولهذا الشرك الأصغر سئل عنه؛ فقال: «**الرياء**»، فيحسن الرجل عمله لأن الناس يرونه حتى ينال محمدة أو يسلم من مذمة، والرياء محبط للعمل كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65]، فالرياء شرك، ويسير الرياء أن تحسن عملك فتزيد في طول صلاتك أو تحن تلاوتك لأجل الناس، هذا هو الرياء.

أما كبير الرياء فهو رياء المنافقين وهو ناقض من نواقض الإسلام؛ الذي قال جَلَّ وَعَلَا عنه: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: 142]، فدل على أنهم لا ينشئون العبادة إلا لأجل الناس، وهذا ليس هو الذي أراده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث؛ فإن هذا الرياء الذي ذكره الله في كتابه هو رياء المنافقين، وهو إباطن الكفر وإظهار الإسلام، وأما الذي ذكره الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث فهو الذي قد يطرأ على العبادة من المسلم فيحبطها وذلك بالرياء، والرياء أمره عظيم وخطير، وقد توعد الله جَلَّ وَعَلَا المرائين يوم القيامة كما في الحديث؛ يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من راءى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به**»، يعني يفضحه الله يوم القيامة ويكشف أنه لم يكن من المخلصين، نسأل الله العافية والسلامة.

وهذا يدل عليه ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة**»، وذكر منهم قارئ القرآن والعالم، يؤتى به فيقال: «**فيمَ قرأت؟ وفيمَ علمت؟ فيقول: يا رب قرأت القرآن فيك وعلمته فيك. فيقال: كذبت، ولكنك قرأت القرآن ليقال قارئ، وتعلمت ليقال عالم، خذوه يا ملائكتي فألقوه في النار، فيسحب على وجه في النار**»، نسأل الله العافية والسلامة، هذا معنى قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من راءى راءى الله به**»، أي يفضحه ويكشف ستره وما كان يخفيه من فساد القصد، نسأل الله العافية والسلامة.

وهذا يدل على خطر الشرك وإن كان شركًا أصغر، وقوله: **(اَلشِّرْكُ اَلْأَصْغَرُ)** نقيضه الشرك الأكبر، فهذه دلت على أن الشرك نوعان: (شركٌ أكبر، وشركٌ أصغر) فأما الشرك الأكبر فهو الذي يخرج من الإسلام، كعبادة غير الله، كالنذر لغير الله، كدعاء غير الله، كالسجود لغير الله، وغير ذلك مما هو نقيض التوحيد، وأما الشرك الأصغر فهو دون الأكبر، فهو شرك بسبب أن شيئًا من العبادة كان لغير الله، ولكنه دون الأكبر؛ فهو لا يخرج من الإسلام؛ مثل يسير الرياء، ومثل الشرك في الألفاظ كالحلف بغير الله، كقول بعضهم: والكعبة، أو والنبي، أو ورأس أمي وأبي، أو غير ذلك من الألفاظ على ما سيأتي في هذا الكتاب.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(وَعَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اَللَّهِ نِدًّا دَخَلَ اَلنَّارَ)** فهذا أيضًا مما يخوف من الشرك؛

أن الشرك سبب دخول النار، ولهذا قال: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اَللَّهِ نِدًّا) وأيضًا هذه فيها فائدة وهي حقيق الشرك، وأن الشرك أن تجعل لله ندًا، والند ما هو؟ هو النظير والشبيه والمماثل والكفء، والله جَلَّ وَعَلَا نفى عن نفسه النظير والشبيه والكفء؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]، وكما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: 74]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ 1 اللَّهُ الصَّمَدُ 2 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ 3 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1 - 4]، وكما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، فكل من جعل مع الله آلهة أخرى يصرف لها العبادة فقد جعل هذه الآية ندًا لله، والله جَلَّ وَعَلَا لا ند له ولا نظير ولا كفء له من خلقه سبحانه، وعاقبة ذلك النار بسبب الشرك، فهذا يُبين خطر الشرك، ويبين حقيقة الشرك، ويبين أن المشرك مآله إلى النار، وهذا يجعل المؤمن يخاف من الشرك؛ لأنه ما دامت روحه في جسده فإنه لا يأمن على نفسه، فأعظم ما يدخل النار هو الشرك، أعظم من الزنا وأعظم من شرب الخمر، وأعظم من السرقة، وأعظم من غيره من الذنوب.

ولذلك كما أن المؤمن يجتنب هذه الفواحش وهذه المنكرات العظيمة؛ فأول ما يجب عليه أن يجتنبه ويخافه ويحذره هو الشرك بالله نسأل الله العافية والسلامة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ; أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ لَقِيَ اَللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا; دَخَلَ اَلْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا; دَخَلَ اَلنَّارَ) وهذا الحديث أيضًا حديث عظيم يبيّن حقيقة التوحيد، وأن التوحيد هو البراءة من الشرك، ولهذا قال: (نْ لَقِيَ اَللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) فكونه لا يشرك به شيئًا هذا هو الإخلاص؛ أن توحد الله بقولك وعملك واعتقادك وأن تتبرأ من الشرك.

قوله: (وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا; دَخَلَ اَلنَّارَ) هذا أيضًا فيه بيان نقيض التوحيد وهو الشرك وأن تجعل لله ندًا، تجعل لله شريكًا في العبادة، أيضًا فيها فائدة وهي فضل التوحيد، وهي أن التوحيد من عظيم ثمرته أن أهله في الجنة، وفيها شؤم الشرك وهي أن من عظيم خطره أن المشرك في النار نسأل الله العافية والسلامة.

وأيضًا فيها فائدة وهي: أن الشرك هو صرف العبادة لغير الله ولو كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلاً أو حجرًا أو شجرة أو وليًا؛ ولهذا قال: (وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا; دَخَلَ اَلنَّارَ) وقوله: (شَيْئًا) نكرة في سياق الشرط فتعم جميع ما عُبد من دون الله، فدل على حقيقة الشرك، ودل أيضًا على أن من جعل مع الله جَلَّ وَعَلَا شريك في عبادته ولو كان شيئًا يسيرًا يظنه يسيرًا فإن هذا شركٌ بالله يدخله النار نسأل الله العافية والسلامة، نسأل الله أن يثبتنا على دينه، وأن يحيينا على ملته، وأن يقبضنا على الإيمان به، ويبعثنا غير مغيرين ولا مبدلين.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (5)

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد ...

(المتن)

بَابُ اَلدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108].

وَعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى اَلْيَمَنِ؛ قَالَ لَهُ إِنَّكَ تَاتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اَللَّهَ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اَللَّهَ اِفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اَللَّهَ اِفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ اَلْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَللَّهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: **«لَأُعْطِيَنَّ اَلرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اَللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَبَاتَ اَلنَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ "أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟" فَقِيلَ هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ اُنْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ اُدْعُهُمْ إِلَى اَلْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اَللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاَللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اَللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ اَلنَّعَمِ» «يَدُوكُونَ»** أَيْ يَخُوضُونَ.

(الشرح)

هذا الباب ذكره رَحِمَهُ اللهُ ليبين أن من عرف التوحيد، وعرف فضله، ومكانته، ومنزلة أهله، وعرف الشرك وخطره وشؤمه، وعرف ما يجب عليه من التمسك بالتوحيد والخوف من الشرك؛ وجب عليه أن يكون أعظم الناس دعوة إلى هذا الذي عرفه من التوحيد والتحذير من الشرك،

فهذا مقتضى محبة التوحيد وبغض الشرك، والرغبة في التوحيد والخوف من الشرك، أنك تلهج بذلك، تتكلم بما تحب من التوحيد والدعوة إليه والتنفير من الشرك، وتدعو الناس لذلك؛ لماذا؟ لأنك عرفت فضله ومكانته فأنت تحب أن يكون الناس على هذا الأمر العظيم الذي عرفته وهو توحيد الله جَلَّ وَعَلَا، وأن ينجو من ذلك الأمر الخطير الذي عرفت خطره وهو الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

وأيضًا تدعو للتوحيد لأنك تعلم أن الرسل جميعًا دعوا إلى التوحيد، فكما أنك موحد واتبعت الرسل وتحب الرسل؛ فإنك تسلك مسلكهم بالدعوة إلى التوحيد وإلى ما هو من مكملاته من سائر شعائر الإسلام، فتدعو إلى الله، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، هذا هو الواجب، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في الآية التي ذكرها المؤلف: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108].

قال أهل التفسير: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: 108]، يعني طريقي، وقوله: (هذه) اسم إشارة، يدل على شيء معلوم، وهو الوحي، وهو كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالدعوة إنما تكون بالوحي والعلم، وسبيل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي الدعوة إلى التوحيد، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

برأ نفسه من الشرك، ونزه الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون له ندًا أو شريكًا في إلهيته، أو ربوبيته، أو أسمائه وصفات، أو ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه الآية أيضًا فيها فائدة وهي: أن أتباع الأنبياء حقًا هم الدعاة إلى الله على بصيرة، وأعظم ما يدعون إليه التوحيد.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى حديث ابن عباس وفيه فائدة؛ وهي: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرسل الدعاة إلى الله إلى الأمصار، وفيها تربية الدعاة ووصيتهم وإرشادهم إلى منهج الدعوة.

وفيها أيضًا أن الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أول ما تبدأ بالتوحيد، ويتأكد هذا في موضعين:

الموضع الأول: أن يكون المكان مكان فيه شرك، أو أهله على غير الإسلام، فلا يصح أن يدعون إلى الصلاة أو الزكاة أو إلى الحج وهم على الشرك بالله والكفر به، لأن الصلاة والصوم والزكاة والحج لا تنفع مع الشرك بالله، فلابد من تصحيح العقيدة، وأن يكون العمل لله جَلَّ وَعَلَا، وأن يكونوا على التوحيد حتى إذا دعوا إلى الصلاة والصوم والزكاة ففعلوها كان فعلهم على الوجه الصحيح، فدل هذا على أن أول ما يدعى الناس إليه إذا كانوا في موضع مكاني فيه شرك وعبادة غير الله هو التوحيد.

الموضع الثاني: أو موضع زماني، والموضع الزماني كالزمان الذي تكثر فيه الفتن والشرور، ويكثر فيه الدعاة إلى الشرك، والخروج من الإسلام، فيتأكد الدعوة إلى التوحيد وصحة العقيدة حتى يثبت الناس على الحق، وحتى لا يتبع أولئك الدعاة الذين يدعوهم إلى المروق والخروج من دين الإسلام، ويزينون لهم ذلك، فيثبتون على الحق.

فهذا حديث عظيم دل على أن التوحيد قبل الدعوة إلى الصلاة والصوم والزكاة والحج، أيضًا دل هذا الحديث على مسألة عظيمة وهي الظلم، وخطر الظلم، ودل أيضًا على أن الأمير عليه أن يتق الله جَلَّ وَعَلَا أن يظلم العباد، ولهذا أوصى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا وكان رسوله إلى أهل اليمن أوصاه بهذه الوصية وحذره من الظلم؛ لأن الإمارة مظنة الظلم والبغي، فحذره من الظلم.

وفيها فائدة؛ وهي: أن الرجل الفاضل إن كان فاضل ووقع في ظلم لرجل مفضول ولو كان على غير الإسلام فإن الظلم لا يقره الله جَلَّ وَعَلَا والظلم يُرفع ولو كان المظلوم يهودي أو نصراني، وفي هذا الحديث أرسله إلى أهل اليمن وكانوا أهل كتاب ومع ذلك حذره من ظلمهم، وهذا فيه فائدة وهي سماحة الإسلام وعدالته، وأن الظلم يرفع ولو كان على اليهود والنصارى، وأن دعوة المظلوم مستجابة ولو كان الداعي يهوديًا أو نصرانيًا، ولو كان الظالم مسلمًا؛ لأن الظلم من أعظم الذنوب التي حرمها الله عَزَّ وَجَلَّ على نفسه، وحرمها على عباده.

ثم خاتمة ذلك الحديث الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ وهو إرسال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى حنين، وأوصاه بوصايا ومن ذلك أنه لا يفاجأ العدو بقتال قبل أن يدعوهم إلى الله، وفي ذلك بيان منهج الدعوة أنه يدعوهم إلى التوحيد، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **(أُنْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ أُدْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اَللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاَللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اَللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ اَلنَّعَمِ)**.

وهذا فيه فائدة وهي: أن قتل المشركين ليس مقصودًا، وإنما المقصود دعوتهم إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدون أن لا إله إلا الله**»، فإن شهدوا لا إله إلا الله درأ عنهم القتل لأنهم أسلموا، ولذلك أول ما يبدأ بدعوتهم إلى التوحيد والإسلام، كما أوصى بذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيضًا هذا الحديث فيه فضل الدعوة إلى الله، وأن من دعا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لهم أجور عظيمة، ومن ذلك أن له من الأجر فيمن اهتدى بسببه أعظم من حمر النعم، حمر النعم هي أنفس الأموال عند العرب، أنفس الأموال من الإبل عند العرب؛ فإن أجر ذلك عظيمًا، وبيّن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك في أحاديث، منها قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من دعا إلى هدى**

كان له من أجره مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك شيء إلى يوم القيامة»، فهذا يدل على فضل الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فبين المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب وفي هذه الأحاديث التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ وهذه النصوص فضل الدعوة إلى التوحيد، وأن الواجب على المسلم أن يكون مهتمًا بهذا، يدعو إلى الله، وينشر الخير، ويحذر من الشر، وأعظم ما يدعو إليه توحيد الله، يُبين معنى لا إله إلا الله، ويُبين نواقض لا إله إلا الله، يُبين الإسلام والشرك والكفر؛ حتى يثبت الناس على أصل دينهم وحتى لا يمرقوا من الدين وهم يحسبون أنهم على هدى، نسأل الله أن يثبتنا على دينه، وحيينا على ملته، ويقبضنا على الإيمان، وأن يبعثنا غير مغيرين ولا مبدلين.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (6)

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

(الشرح)

بعد أن ذكر حقيقة التوحيد وما يتضمنه من ركنين وهما: (النفي والإثبات) وذكر فضل التوحيد وتكفيره للذنوب، وذكر الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وذكر رَحِمَهُ اللهُ الخوف من الشرك، ذكر أمرًا عظيمًا وهو تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، ليبين رَحِمَهُ اللهُ أن التوحيد الذي أرسل الله جَلَّ وَعَلَا به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس هو الاعتقاد أن الله جَلَّ وَعَلَا الرازق المدبر والملك؛ وإنما هو توحيد العبادة الذي وقت فيه الخصومة بين الرسل وقومهم، ذلك أن المشركين كانوا يقرون أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الرازق المدبر المصرف، ولكن كانوا يشركون في توحيد العبادة، فإذا علم ذلك عُرف التوحيد الذي أرسل الله جَلَّ وَعَلَا به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب.

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(باب التفسير التوحيد)** وتقدم معنا ذكر معنى التوحيد، وأنه أقسام ثلاثة: (توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات) لأن توحيد الربوبية هو إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بأفعاله من الخلق والرزق والتدبير، وأن توحيد العبادة أو توحيد الإلوهية هو إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بأفعال العباد، بأن تكون العبادة لله وحده لا شريك له، وأن توحيد الأسماء والصفات هو إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بما له من الأسماء والصفات التي سمى بها نفسه أو سمى بها رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو وصف الله جَلَّ وَعَلَا بها نفسه، أو وصفه بها رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنثبت لله جَلَّ وَعَلَا ما أثبت لنفسه، أو أثبته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وننفي عنه جَلَّ وَعَلَا ما نفى عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجه الكمال إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، فهذه أقسام التوحيد الثلاثة.

وقوله: **(وشهادة أن لا إله إلا الله)** أراد أن يبين أن التوحيد الذي عنيه في هذا الباب هو شهادة أن لا إله إلا الله، يعني توحيد العبادة، ذلك أن قومًا فسروا التوحيد بالربوبية؛ فقالوا: لا إله إلا الله يعني القادر على الاختراع أو لا خالق إلا الله، أو إخراج اليقين الفاسد وإدخال اليقين الصالح على ذات الله، وهذا كله من المعاني القاصرة، أو لا حاكم إلا الله، هذه كلها من المعاني القاصرة؛ فإن التوحيد الذي أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ به الرسل هو شهادة أن لا إله إلا الله، فما معنى شهادة أن لا إله إلا الله؟ ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى في هذا الباب جملة من الأدلة التي تبين معنى هذه الكلمة العظيمة.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57].

(الشرح)

هذه الآية آية عظيمة تدل على معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وتدل على معنى الشرك، وتدل على بطلان الشرك، وتدل على أن المشرك من الأخسرين أعمالًا، ذلك أن قومًا عبدوا الأنبياء أو عبدوا الأولياء الصالحين، أو عبدوا الجن فأخبر الله جَلَّ وَعَلَا أن أولئك الذين يدعونهم من الصالحين هم صالحون في أنفسهم، فهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة؛ يعني التوحيد، والوسيلة هي ما يوصل إلى الله من العبادة؛ التي تحقق فيها ركنان وهما: الإخلاص لله والمتابعة لرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذه هي الوسيلة؛ أن تكون العبادة على التوحيد كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

فقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5]، يعني أن العبادة لا تكون صحيحة إلا مع الإخلاص، وقوله: ﴿حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5]، فيها تفسير الإخلاص، وهو أنه يكون العمل سالمًا من الشرك وهذا معنى الحنيفية، فقوله: حنفاء يعني متبرئين من الشرك، ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5]، هذه هي الوسيلة، فالأنبياء والأولياء والصالحين يبتغون إلى ربهم الوسيلة يعني يعبدون الله على الإخلاص والتوحيد.

والركن الثاني: أن تكون على السنة، فلا تكون العبادة على وجه مبتدع؛ كما قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»، وفي الحديث: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**».

فالعبادة إذا كانت على هذا الوجه فهي وسيلة تقرب إلى الله، فالله جَلَّ وَعَلَا بين بطلان الشرك من جهة أن من يعبد من دون الله من الأنبياء والصالحين هم عبادٌ لله يتقربون إليه، فإذا كانوا يعبدون الله دل هذا على أنهم لا يستحقون شيئًا من العبادة، لماذا؟ لأنهم عبادٌ لله، فأنتم إذا كنتم تحبون الصالحين فاعبدوا الله وحده كما يعبد الصالحون الله وحده، فهذه محبة الصالحين، أما أن تعبد الصالحين وتجعلهم مع الله شركاء فهذا ليس من محبتهم كما سيبين المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

فدل هذا على مسائل:

الأولى: أن الشرك أن تجعل مع الله عَزَّ وَجَلَّ إلهًا تعبده وإن كان صالحًا كالأنبياء والأولياء.

الثاني: بطلان عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ وأنها لا تنفع.

الثالث: أن قول الرجل: لا إله إلا الله، مع عبادته من دون الله لا ينفعه.

فتبين من هذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن هذه الكلمة العظيمة لا تنفع بالسلامة من نواقضها، ومن نواقضها أن يجعل مع الله شريك، شرك في عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذه آية عظيمة، وهذه الآية يستدل بها عباد القبور، القبوريون يستدلون بهذه الآية ويزعمون أنها دليل على أنها التوسل الشركي الممنوع.

فإن التوسل لله جَلَّ وَعَلَا على أقسام:

القسم الأول: توسل مشروع، فأما التوسل المشروع فهو التوسل لله بالعبادة التي أمر الله بها، وهذا الذي ذكر الله في هذه الآية، تتوسل لله بالتوحيد، تتوسل إلى الله بالصلاة والصوم والزكاة والحج، تتقرب إليه بهذه العبادة، فتصل إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالقرب منه بعبادته وحده لا شريك له، هذا التوسل المشروع الذي أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به.

القسم الثاني: توسلٌ مشروع وهو توسل العبد إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالدعاء، بأن يدعو الله جَلَّ وَعَلَا بعمله الصالح، فهو يتوسل إلى الله بكونه عبدًا له، بكونه مملوكًا له، بكونه مقصرًا في عبادته، بكونه أيضًا يفعل العبادة له وليس لغيره فهذا كله من التوسل المشروع، فأنت تتوسل إلى الله بعبوديتك له، بتوحيدك له سبحانه، فتتوسل له بأعمالك الصالحة، بمحبة الصالحين،

فهذا من أنواع العبادة، فأنت تقول: اللهم إني أتوسل إليك بحبي لنبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بحبي لأصحاب نبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بحبي لعبادك الصالحين أن تغفر لي، أن تتولاني، أن تصلح شأني وغير ذلك من أنواع العبادة التي يتقرب بها إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ويدل على هذا قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة.

القسم الثالث: ومن أمثلة المشروع التوسل لله بدعاء الصالحين، ودعاء الصالحين أن تتوسل إلى الله بأن يدعو الصالح لك، كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع العباس عم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واليوم نتوسل إليك بعم نبيك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قم يا عم رسول الله فادع لنا" فدعاء العباس فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا الغيث والمطر، فأنت رأيت صالحًا من عالم عابد متقٍ أو رجل كبير عُرف عنه العبادة والتقوى، ويُرجى أن يكون مجاب الدعوة؛ فإنك إذا قلت له: ادع لنا الله جَلَّ وَعَلَا فهذا من التوسل بدعائه، وهذا مما هو جائز، ودليله فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذه الأمثلة كلها من التوسل المشروع.

أما التوسل الممنوع: فهو الذي أرسل الله جَلَّ وَعَلَا به الرسل للإنذار عنه وهو الشرك بالله.

مثال ذلك: أن تتوسل إلى الله بعبد دون الله فتجعله واسطة بينك وبين الله، فتصرف له شيئًا من العبادة ليقربك إلى الله كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، فهذه وسيلة، ولكنها وسيلة شركية، فتطلب غير الله، تطلب منه المدد، أو تطلب منه الشفاء، أو تطلب منه الرزق، أو تطلب منه الشفاعة كأن تطلبها من الأموات والغائبين من الصالحين أو نحو ذلك فهذا توسل شركي.

ومثل ذلك أيضًا: عبادة القبور، والمكث عنها والاعتكاف عندها، وطلب المدد إلى عبد القادر الجيلاني أو السيد البدوي أو الحسين أو علي أو السيدة زينب أو السيدة نفيسة أو غير هؤلاء ممن عُرف أنه يُعبد من دون الله جَلَّ وَعَلَا، فهذه وسيلة شركية من اتخذها بينه وبين الله فهو مشرك.

فتبين من هذا معنى هذه الآية العظيمة وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: 57]، ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى الآية الأخرى في بيان معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

(المتن)

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ 26 إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: 26، 27].

(الشرح)

فهذه الآية أيضًا تفسر معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وذلك أن التوحيد يتضمن ركنين:

الركن الأول: الإثبات.

الركن الثاني: النفي.

فأما الإثبات أن تثبت العبادة لله وحده لا شريك له اعتقادًا وقولًا وعملاً، وأما النفي فأن تعتقد بقلبك وتشهد بلسانك وتستقيم بفعلك على البراءة من الشرك وأهله، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: 26]، هذا النفي، فهو اعتقد بقلبه وشهد بلسانه واستقام بفعله على الخلوص من الشرك واجتنابه.

الركن الثاني: قال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: 27]، وهذا فيه الإثبات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بأن تعتقد أن الله جَلَّ وَعَلَا بقلبك وبلسانك وفعلك أنه جَلَّ وَعَلَا المعبود بحق دون من سواه، وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله، فهذا هو التوحيد.

من الناس من يقول: لا إله إلا الله، لكن لا يتبرأ من الشرك؛ فهذا لا يصح منه هذا القول، ولا تنفعه كلمة التوحيد لا إله إلا الله؛ لماذا؟ لأنه لم يأت بركنها الثاني وهو البراءة من الشرك.

ومن الناس من يقول: لا إله إلا الله، ولا يُشرك ولكن يصحح دين المشركين، فيعتقد أن من عبد غير الله أنه مسلم وأنه لا تخرجه عبادته من دين المشركين، وأن عبادته لغير الله لا تخرجه من دين المسلمين، فيعتقد أنه مسلم وأنه ينجو إذا لقي الله ولو جعل مع الله إلهًا آخر، فهذا أيضًا لم يشهد أن لا إله إلا الله.

فشهادة أن لا إله إلا الله تتضمن أن تتبرأ من الشرك وأهله وأن تستقيم على التوحيد اعتقادًا وقولًا وعملاً، هذا دل عليه الآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

(المتن)

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

(الشرح)

هذه الآية أيضًا فيها بيان معنى التوحيد من جهة أنه لا يصح التوحيد إلا أن تسلم لله، تسلم لله بقولك وعملك واعتقادك، ولا تجعل بينك وبين الله من يطاع في التحليل والتحريم، فإذا حل أحللت ولو كان مما حرم الله، وإذا حرم حرمت ولو كان مما أحل الله، فمن جعل بينه وبين الله محللاً لما حرم ومحرمًا لما أحل فإنه لم يأت بالتوحيد، وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله، لأن الإله هو المعبود، فإذا أحللت ما أحل الخلق وحرمت ما حرم الخلق ولو كان مناقضًا لما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به في كتابه وبينه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته؛ فإنك قد اتخذته إلهًا مع الله، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ [التوبة: 31]، يعني أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أحبارهم يعني العلماء، علماء أهل الكتاب، ورهبانهم العباد، ﴿أَرْبَابًا﴾، يعني شركاء مع الله في التشريع، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21]، فسماهم شركاء.

(المتن)

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ 165 إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 165، 166].

(الشرح)

هذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين أيضًا معنى التوحد، وأن أيضًا شهادة أن لا إله إلا الله لها مقتضى، فكما أنك تقول: لا إله إلا الله وتتبرأ من الشرك وأهله؛ فأنت لا تحب ما ناقض هذه الكلمة من الأصنام والمعبودات التي تعبد من دون الله.

بيّن الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية أن المشركين يحبون الله محبة عظيمة، ولكن هذه المحبة لن تنفعهم؛ لماذا؟ لأنهم مشركين، جعلوا أندادًا مع الله؛ يعني نظراء يحبونهم كحب الله، فهذا ناقض من نواقض التوحيد، فدل أيضًا على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنها لا تصح إلا بالبراءة من الشرك، فدل أيضًا على ركنيها.

(المتن)

وفي الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه قال: **«من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه، وحسابه على الله - عزوجل -»**.

(الشرح)

هذا الحديث أيضًا دل على معنى كلمة التوحيد من جهات:

الجهة الأولى: أن كلمة التوحيد لابد فيها من النطق، فمن كان قادرًا على نطقها وخاليًا من مانع وأبى عن قولها لم يدخل اعتقاد معناها في الإسلام، فلابد فيها من القول، فلا يدخل الرجل في الإسلام إلا أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

ثانيًا: أن هذه الكلمة العظيمة أيضًا لا تصح إلا أن تتبرأ من نقيضها، وهو ما عبد من دون الله، ولهذا قال: **(من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله)** يعني كفر بقلبه فاعتقد أن لا معبود بحق إلا الله، وكفر بما عبد من دون الله بلسانه، فتبرأ من الشرك وأهله وأيضًا بفعله فخلص من الشرك بفعله، فلابد في كلمة التوحيد من هذا أن تقولها معتقدًا معناها، ناطقًا بها، عاملاً بمقتضاها، مخلصًا اعتقادك وقولك وفعلك مما يناقضها، ولهذا قال: **(من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله)**.

مفهوم المخالفة أن من قال: لا إله إلا الله، ولكن اعتقد أن شيئًا من دون الله له شيء من العبادة؛ فهل قوله إياها ينجيه؟

الجواب فيما بينه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر هذا الحديث؛ قال: **(من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه)** فحرمة الدم والمال بالتوحيد، ولا يكون التوحيد إلا أن تشهد أن لا إله إلا الله وتعتقد معناها وتكفر بما يعبد من دون الله، فإذا قلت: لا إله إلا الله ولكن اعتقدت شيئًا من دون الله أن له شيء من العبادة فإنه لا يحصل بذلك عصمة الدم والمال، وهذا حال من؟ حال المشركين الذين قال فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»، وفي لفظ: «**حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسباهم على الله تعالى**».

فمن لم يكفر بالطاغوت والشرك ولم يعتقد بطلان عبادة غير الله؛ فإن هذه الكلمة العظيم لا إله إلا الله لا تنفعه، فتبين من هذا معنى كلمة التوحيد وأنها ركنان (نفي، وإثبات) نفي عبادة غير الله، وإثبات العبادة لله وحده لا شريك له.

فتبين من هذه الآيات وهذه النصوص التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب معنى وتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، فالواجب على المسلم أن يعرف ذلك حتى لا يلتبس عليه هذا الأمر العظيم، وهذه الكلمة الجلية الواضحة في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ؛ حتى لا يعتقد في مسلم أنه مشرك، أو في مشرك أنه مسلم، وسبب ذلك جهله بمعنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (7)

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

(الشرح)

بدأ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى بعد أن ذكر ما يتعلق بفضل التوحيد وحقيقته وخطر الشرك وحقيقته، وما يكون من خوف المسلم من الوقوع في الشرك، وما يتعلق بتفسير كلمة التوحيد لا إله إلا الله، ذكر التفصيل في مسائل التوحيد، وبدأ بمسألة مهمة عظيمة وهي ما يتعلق بلبس الحلقة والخيط ونحوهما في رفع البلاء أو دفعه، والحلقة هي الشيء المستدير يكون على اليد أو على العنق، والخيط معروف، وكان أهل الجاهلية يلبسون الحلقة والخيط ويعتقدون فيهما، وذلك لرفع البلاء وهو المرض، أو الشدة والمصيبة، أو دفعه، ودفعه قبل وقوعه، ورفعه بعد وقوعه، وهذا في باب الأسباب.

والأسباب ثلاثة أنواع:

النوع الأول: سبب مشروع فبذله مشروع، كما ورد في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الشفاء في ثلاثة: شرطة محجم، والعسل، والكي، وأنهى أمتي عن الكي**»، فهذه أسباب مشروعة، فبذلها مشروع، ولكن لا يجوز الاعتماد عليها.

النوع الثاني: أسباب مباحة، وهي التي ثبتت بالتجربة كونها سبب في رفع البلاء أو دفعه، كسائر ما هو معلوم في الطب أنه سببٌ للشفاء من الأعشاب والأدوية ونحو ذلك، فبذل ذلك في دفع البلاء أو رفعه مما هو مباح.

النوع الثالث: ما جعل سببًا ولم يرد كونه سبب، الشرع كما لم يثبت بالتجربة كونه سببًا، فهذا بذله من الشرك، وهو الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى في هذا الباب، ومن ذلك التعلق بالتمائم والحلق والخيوط لرفع البلاء ودفعه على ما سيأتي تفصيله، فهذه قاعدة الباب، هذه هي قاعدة الباب.

والقاعدة أيضًا عند أهل السنة أن بذل الأسباب الأصل فيه أنه مشروع، بذل الأسباب مشروع والاعتماد عليها شرك، وتركها نقص في العقل، فأما الاعتماد إنما يكون على الله جَلَّ وَعَلَا لأنه هو مسبب الأسباب، فإن المرء قد يبذل سبب رفع البلاء أو دفعه ولا يجعل الله جَلَّ وَعَلَا في هذا السبب أثر، وهذا معلوم، فإنما الأمر لله في دفع البلاء أو رفعه، وعلى العبد بذل السبب المشروع في ذلك، أما الأسباب غير المشروعة التي هي من الأسباب الشركية التي ورد تحذير العلماء منها؛ فإن بذلها في رفع البلاء ودفعه لا يزيد البلاء إلا شدة كما سيأتي في النصوص التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ)** وقوله: **(مِنَ الشِّرْكِ)** يعني أنه من أنواع الشرك، فقد يكون شرك أكبر يخرج صاحبه من الإسلام، وقد يكون شركًا أصغر بحسب ما قام في قلب العبد من التعلق، فإن اعتقد أن هذا الخيط أو هذه الحلقة هي التي ترفع البلاء وتدفعه فقد أشرك شركًا أكبر؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو المقدر للأمور وهو المالك لها، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النافع الضار، وإن اعتقد أنها سبب وإنما الشافي والكافي والمعافي والرافع للبلاء والدافع له هو الله جَلَّ وَعَلَا فقد أشرك.

ووجه كونه مشرك لأنه اعتمد على سبب لم يثبت في الشرع كونه سببًا ولم يثبت بالتجربة كونه سببًا، وكونه مشرك لأن في قلبه اعتمادٌ عليه، وهذا على هذا الوجه هو من الشرك الأصغر، والله جَلَّ وَعَلَا نفى في هذه الأشياء الأسباب، وأنها لها شرك، أو لها تدبير في آيات في كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر الآيات.

(المتن)

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: 38].

(الشرح)

هذه الآية فيها بيان نفي الأسباب الشركية؛ فإن ما يدعى من دون الله من أصنام وأضرحة وقبور والأحجار والأشجار ونظير ذلك ما يتعلق به كالحلق والخيوط؛ لا تملك لنفسها نفعًا ولا

ضرًا؛ كما أنها لا تغني عن صاحبها شيئًا، ولهذا قال الله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر: 38]، الجواب: لا، قال: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: 38]، الجواب: لا، فتبين بهذا إبطال السببية الشركية، فتبين من هذا بطلان حجة من تعلق بالأسباب الشركية كالحلق والخيط لرفع البلاء أو دفعه أو ما هو أعظم من ذلك ممن يتعلق بالقبور والأضرحة.

(المتن)

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلَقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: "مَا هَذِهِ"؟ قَالَ مِنَ الْوَاهِنَةِ فَقَالَ: انْزَعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهَنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأسَ بِهِ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ في خبرٍ رواه عمران بن حصين عن رجل، ورد في بعض الروايات أنه هو الذي وقعت له هذه الحادثة، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى عليه حلقة من صفر، والحلقة تقدم أنها الشيء المستدير على اليد أو العنق، قوله: **(مِنْ صُفْرٍ)** يعني من نحاس، فاستفصل منه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سبب تعليق هذه الحلقة، فقال: **(مِنَ الْوَاهِنَةِ)** والواهنة هو مرضٌ وداءٌ يكون في اليد، وقوله: **(مِنَ الْوَاهِنَةِ)** أي لرفع هذا الداء أو لدفعه، فهو اعتقد في هذه أنها سببٌ لرفع البلاء أو دفعه، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(انْزَعْهَا)** أمره بوضعها عن يده، قال: **(فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهَنًا)** هذا فيه فائدة أن من تعلق بشيء دون الله فإنه يوكل إليه ولا يزيده ذلك إلا وهنًا وخوفًا وقلقًا؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: 6]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: 151].

فالمشرك قلبه ممتلئ من القلق والرعب والخوف؛ لأنه معتمد على أسباب أوهى من بيت العنكبوت، ولكن الموحد قلبه ممتلئ طمأنينة، وقوة، وشجاعة؛ لأنه معتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، معتمد على الرب الذي بيده الأمور، ولهذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

وذكر الله أعظمه ما هو؟ هو توحيد الله والإيمان به، والاعتماد عليه، ثم أخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاقبة الشرك وإن كان دون الشرك الأكبر، قال: **(فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا)** هذا فيه التخويف من الشرك وخطره، وأنه يهلك صاحبه، وفيه أيضًا أن الجاهل في مسائل التوحيد لا يعذر، ولهذا قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِي**

عَلَيْكَ) وأنت في هذه الحال **(مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا)** دل على أن أمر الشرك أمرٌ خطير، وأن الواجب تعلم مسائل التوحيد، ومعرفة حقيقة التوحيد، ومعرفة النقيض وهو الشرك؛ حتى لا يقع الإنسان في الشرك، وهو يظن أنه على خير، فدل هذا الحديث على أن تعليق الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه من الشرك.

(المتن)

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ».

(الشرح)

أيضًا هذا الحديث دل على النهي عن تعليق التميمة، والتميمة هو شيء يعلق على العنق حول اليد بالخرز ونحوها لرفع البلاء أو دفعه، سمي تميمة لأنهم يزعمون أن من علقها تم أمره ولم يلحقه بلاء، فنفى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا السبب كونه سببًا لتمام حال المرء، ولسلامته من الآفات، فقال: **(مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً)** تشديد الكلمة في قوله: **(تَعَلَّقَ)** فيها بيان أن تعليق هذه التمائم فيه تعلق القلب بها، ولهذا قال: **(تَعَلَّقَ)** فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وأيضًا فيه أثر تعليق التمائم على القلب وهو ضعف اعتماد العبد على ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: **(فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ)** هذا دعاء عليه، وهذا فيه جزاء المرء بنقيض قصده، وأن من تعجل شيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، وأيضًا فيه أن أشرك فإنه لا يتم الله له أمره، لماذا؟ لأنه أعرض عن سبب نجاته وسبب فلاحه، وسبب فوزه، وسبب سعادته في الدنيا وفي الآخرة، قال: **(وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً)** الودع هو أيضًا شيء يعلق على العنق أو اليد؛ يكون مما يخرج من البحر بما يشبه الأصداف، ويزعمون أنه يدرأ العين، ولا يزال هذا الأمر موجودًا، ويلبسه النساء مصنعًا، يلبسون ما يشبه الأصداف مصنعة، فيزعمون بهذا أنه يدرأ العين، فيقال: إن هذا أيضًا من الشرك.

قال: **(فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ)** وهذا دعاء عليه، أي لا جعله الله في دعة وسكون، لماذا؟ لأنه لبس هذا الودع ليطمئن وليزول بلاؤه ويرفع عنه، أو يدفع عنه البلاء والشدة؛ قال: **(فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ)** لماذا؟ لأنه أشرك، فهو قد دعاه من حيث لا يحصل بها، وذلك بسبب الشرك، وكذلك الذي علق تميمة طلب تمام الأمر من حيث لا يحدث له به تمام أمره، فدعا عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: **(وَفِي رِوَايَةٍ: مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ)** فهذا فيه النص على كونه شركًا.

(المتن)

وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّى، فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106]».

(الشرح)

هذا الحديث أيضًا فيه أنه من سنة أهل الجاهلية تعليق القيد والتمائم لرفع الحمى أو لدفعها، تقدم أن هذا ليس من الأسباب التي دل الشرع على كونها أسبابًا مشروعة، لم يثبت بالتجربة كونها سبب في رفع البلاء أو دفعه.

قال: **(فَقَطَعَهُ)** وهذا فيه إنكار المنكر باليد لمن كان له سلطة أو كان له قدرة أو كان ذو مكانة كالأئمة المعتبرين في العلم، والمنزلة ممن إذا قال سُمع قوله، وإذا فعل انتهي عند فعله، قال: **(وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106]..)** هذه فائدة وهي أن الإيمان بالربوبية مع الشرك بالعبادة لا يغني عن صاحبه شيئًا، فدل هذا الحديث على إنكار المنكر، ووجوبه، ودل أيضًا على أن من أعظم ما ينكر من المنكرات المنكر في العقيدة، خاصة المنكر الذي يخل بالتوحيد أو ينقض التوحيد ويخرج صاحبه من الإسلام، فهذا الباب باب عظيم يجب على المسلم أن يعتني به، ويعتني ما فيه من المعاني، وهذه الفتنة وهي فتنة تعليق التمائم والخيوط فتنة عظيمة في قديم الزمان وحديثه، وقد يزعم المرء أنه لا يقصد ذلك؛ فيقال: لا يجوز لك أن تعلق تميمة، أو تعلق ودعة، أو تعلق حلقة أو خيطًا مما يشبه فعل أهل الشرك أو أهل الجهالة ممن يعتقدون في هذا، لماذا؟ لأن هذا ذريعة أن تكون مثلهم في قصدهم؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

وأيضًا لأن هذا فيه اختلاط فعل أهل المقاصد الحسنة بفعل أهل المقاصد السيئة، فينهى عنه لقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: 104]، نهى الله جَلَّ وَعَلَا أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقولوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راعنا؛ لأن اليهود كانوا يقولون للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راعنا من الرعونة، أرادوا بها الذم، فحملها بعض أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنها من المراعاة وهي الرفق، فنهاهم الله عن ذلك لاختلاط هذه الكلمة بمعناها الحسن بما يقوله من كان قصده سيئًا، فان لزامًا التمايز بين أهل المقاصد الحسنة والمقاصد السيئة في أماكنهم وكذلك في أقوالهم وأفعالهم، فتبين من هذا أنه لا يجوز تعليق هذه التمائم وهذه الخيوط وإن الرجل حسنًا في قصده.

ومثل ذلك وبه نختم: ما يزعم وهو مما يباع في الصيدليات من لبس حلقة نحاس ويزعمون أنها تسحب الكهرباء الزائدة في الجسم، هذا كله من هذا النوع الذي ينهى عنه ونبه على هذا علماؤنا ومشايخنا.

نسأل الله للجميع التوفيق

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (8)

باب ما جاء في الرقى والتمائم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»** فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا " أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ "».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ «**صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**» يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاود.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِّلَ إِلَيْهِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ. "التَّمَائِمُ ": شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّص فيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. و"الرُّقَى": هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ «**صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**» مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

و "التِّوَلَةُ": هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ؛ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ «**صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»: «**يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ**».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ قَالَ: «**مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ**». رَوَاهُ وَكِيعٌ وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَ: «**كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ**».

(الشرح)

هذا الباب عقده رَحِمَهُ اللهُ لبيان مسألة من المسائل العظيمة التي يكون منها الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، وذلك أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بيّن حكم الرقى والتمائم، والرقى بينها رَحِمَهُ اللهُ تعالى بقوله: **(هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ)** وهي الرقية التي يُرقى بها المريض، الرقية إذا كانت من القرآن فرقى الرجل الرجل بكلام الله جَلَّ وَعَلَا، أو بالأدعية الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن هذا لا بأس به، لقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»، فأذن بها.

كذلك كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لأصحابه: «**اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**»، هذا ما يتعلق بالرقية، أما إن كانت الرقية بغير ذلك كأن تكون بالشعوذات أو أن تكن بالحرز والأوراق والخيوط التي لا يُعلم ما بها حقٌ أم باطل كفر أم إسلام؛ فإنها لا تجوز لأن هذا من الشرك.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(التَّمَائِمُ)** والتمائم عرفها رَحِمَهُ اللهُ بقوله: **(شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ)** وتقدم ذلك بالأمس، تقدم بالأمس أنه يكون من خرز أو من نحوه يعلق بالعنق أو في اليد، يزعمون أن ذلك يدفع البلاء أو يرفعه، فهذا من الشرك، وتقدم بالأمس بيان سبب كونه شركًا؛ لأن من يعلق التميمة يتعلق بسبب في رفع البلاء أو دفع لم يأذن به الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه أو على لسان رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يثبت بالتجربة كونه سببًا، فكانت التعلق به من الشرك.

وذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الأحاديث الدالة على ذلك، ذكر حديث أبي بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ)** فهذا فيه الأمر بإنكار الشرك، وأيضًا سد الذرائع الموصلة إليه، وفيه أيضًا بيان أن تعليق الأوتار، الأوتار هي الأقواس، فيعلق القوس وتر القوس على الرقبة أو على الساعد، وفي البعير يعلق على رقبته مع اعتقاد أن ذلك لرفع البلاء أو دفعه، كمن يعتقد فيها أنها تدفع العين، وهذا من عمل أهل الجاهلية وهو لا يزال موجودًا إلى يومنا هذا، فأهل الإبل وخاصة أصحاب الإبل التي تسمى المازيين كثيرٌ منهم يعلق على رقبة البعير هذه الخيوط وهذه الأوتار يزعمون بذلك أنها تدفع العين، ومن لم يعتقد ذلك فإنه تشبه بأهل الجاهلية.

فهذا الحديث فيه أمر بقطع الأوتار التي تكون على رقبة البعير، وألا يبقى شيء من ذلك لأن هذا من وسائل الشرك.

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)** ذكر حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: **(إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ)** تقدم معنا التفصيل في الرقى والتمائم، قوله: **(وَالتِّوَلَةَ)** بيّن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ معنى التولة، وأنها نوعٌ من السحر، فهي صرفٌ وعطف، قال:

(التِّوَلَةُ": هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ) فهذا من الشرك؛ لأنه سحر ولأن فيه التعلق بهذا الذي جعل سببًا لجلب المحبوب أو دفع مكروه، وهذا من الشرك بالله.

ثم ذكر أثر عبد الله بن عكيم مرفوعًا؛ قال: (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِلَ إِلَيْهِ) هذا فيه بيان شؤم الشرك، وأن من تعلق بغير الله جَلَّ وَعَلَا وهن كما تقدم في الحديث الماضي وهو قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (انْزَعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهَنًا) فالشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ لا يزيد صاحبه إلا قلقًا، ولا يزيده إلا همًا وغمًا، وهكذا من تعلق بكل سبب وإن كان سببًا مباحًا أو سببًا مشروعًا في دفع البلاء أو رفعه، لكن تعلق به واعتمد به هان أمره وضعف حاله، وإنما الواجب أن يتعلق العبد بربه سبحانه؛ لأن الأمر بيده والتدبير منه وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ أثر رويفع وهو صحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووصية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له؛ فقال: (يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ) وهذا فيه إخبار من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يُعمر، ووقع كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان من آخر الصحابة موتًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

قال: (فَأَخْبِرِ النَّاسَ) وهذا فيه أمرٌ ببلاغ ما بلغ به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من أعظم الأعمال، ولهذا يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فليبلغ الشاهد الغائب**»، ويقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث: «**نضر الله امرءًا سمع مني مقالة فوعاها فأداها كما سمعها**».

قال: (فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ) وهذه كانت من عادة أهل الجاهلية أنهم يعقدون لحاهم علوًا وكبرًا، أو أن هذا محمول على التنعم والتشبه بالنساء، والتخنث، فهذا كله مما كان عليه أهل الجاهلية وهو من الأمر الذي حرمه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في هذا الحديث.

قال: (أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا) أي علق في عنقه أو في يده وترًا لدفع البلاء أو رفعه، قال: (أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ) وهذا محرم لما ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النهي عن الاستنجاء بالعظام وبروث الدواب؛ قال: «**فإن العظام طعام أخوانكم من الجن، والروث طعام بهائمهم**»، هذا فيه إفساد طعامهم، فنهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الاستنجاء بذلك، والاستنجاء هو قطع الخارج من المسبيلين.

قال: (فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ) وهذه من صيغ الوعيد، فدل على أن هذه الأعمال من الكبائر، وأنها عظيمة، ولهذا بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه بريء منه، فدل هذا الحديث على أن من تعلق الأوتار لرفع البلاء أو دفعه أن هذا من الشرك.

ثم ذكر حديث سعيد بن جبير؛ قال: **(مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ)** هذا فيه تنبيه على أن التميمة إذا علقها رجل فإنها ترقه، لماذا؟ لأنه يتعلق بها، وتوهن قواه؛ حتى يتصور أنه لو أزالها لهلك أو مات أو أصابه داء، فيضعف قلبه وتضعف قوته ويضعف اعتماده على الله عَزَّ وَجَلَّ، فأصبح رقًا لهذه التميمة، ولهذا كان جزاء من قطع تميمة من إنسان جزاء من حرر مملوكًا، فكأنه فك رقبة بتحريرها من رقها، فهذا فيه قياس وذكر الأمر على ما هو من جنسه ونظيره؛ بل ما هو أبلغ، فإن رق الشرك أعظم رق الرجل أو المرأة عن حريته، فإنه لا يزال عزيزًا ما دام مؤمنًا وإن كان رقًا، وأما المشرك فإنه لا يزال ذليلاً وإن كان عند نفسه وعن الناس عزيزًا.

قال: **(رَوَاهُ وَكِيعٌ وَلَهُ)** يعني وكيع **(عَنْ إِبْرَاهِيمَ)** يعني النخعي رَحِمَهُ اللهُ **(قَالَ: كَانُوا)** يعني أصحاب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ)** هذا فيه بيان النهي عن لبس التمائم، وروي عن بعض السلف أنه يرى جواز لبس التميمة إذا كانت من القرآن، إذا كان مكتوبًا فيها القرآن، ولكن عامة السلف على خلاف ذلك، وأن هذا من الوسائل التي قد تفضي إلى تعلق القلب بهذه التمائم وهذه الخيوط، ولأنه من الوسائل التي تفضي إلى اختلاط التميمة التي كتبت من القرآن مع غيرها، مما يجعل سوق هذه الشعوذة وسوق السحرة رائجة بزعم أنهم يجعلون التمائم من القرآن، هذا فيه سد الذرائع الموصلة إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

فهذا الباب باب عظيم دل على خطر الشرط، وعلى وجوب سد الذرائع المفضية إليه، وعلى أن الواجب الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، وأيضًا دل على إنكار المنكر وإنكاره باللسان، وإنكاره باليد لمن قدر على ذلك، نسأل الله أن يحيينا على التوحيد وأن يميتنا عليه، ويجعلنا هداة مهتدين.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

(الشرح)

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى لا يزال في ذكر المسائل المتعلقة بالتوحيد، وبيان حكم بعض المسائل من جهة كونها شرك أو التفصيل في ذلك، قوله: **(بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ)** يعني حكمه، قوله: **(تَبَرَّكَ)** يعني طلب البركة، والبركة هي كثرة الخير، ومنه البركة التي فيها الماء الكثير، فالتبرك يعني طلب الخير أو كثرة نماء البر، ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى الأدلة تحت هذه الترجمة التي تبين حكم التبرك.

(المتن)

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى 19 وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى 20 أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى 21 تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى 22 إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: 19 - 23].

(الشرح)

فأراد رَحِمَهُ اللهُ أن يبين أن التبرك بالأشجار والأحجار شرك، قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم: 19]، اللات بتشديد التاء رجلٌ صالح كان يلت السويق وهو طعام يطعمه الحاج، وبتخفيفها صخرة في الطائف، كان الرجل يلت السويق عندها، فعظموا هذه الصخرة لتعظيمهم ذلك الرجل؛ فزعموا فيها البركة، وجعلوا هذه الصخرة محلاً للتعظيم وطلب البركة، وهي في الطائف، وأما العزى فهي أيضًا صخرة وفيها شجرات بين الطائف ومكة، وفيها شجر السمر وكان

أهل الجاهلية يعظمونها، واسمها العزى تحريف لاسم الله جَلَّ وَعَلَا العزيز، وذلك لأنهم يعظمها، وكان أهل الجاهلية يعظمون هذه الشجرات.

قوله: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: 20]، مناة بين المدينة ومكة، وهو صنم يُعبد من دون الله ويُعظم، وسمي مناة لكثرة ما يُمنى عنده من الدماء، فكانوا يذبحون وينحرون الإبل والغنم عنده تعظيمًا له، فسمي مناة.

قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: 23]، بيّن الله جَلَّ وَعَلَا أن هذه الشجرات وهذه الأحجار وهذه المعبودات التي عُظمت وزعمت فيها البركة لا تنفع ولا تضر، وإنما يعظمها من يتبع الظن وهو الجهل، ويترك العلم وهو الهدى.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية ليبين أن التبرك بالأشجار والأحجار يصيرها أصنامًا تعبد من دون الله، وأيضًا ذكرها ليبين أنه لا حجة مع من تبرك بالأحجار والأشجار، هذه الأحجار والأشجار لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، فكيف يُرجى نفعها أو يُرجى منها دفع ضرٍ أو جلب خير، فتبين من هذا تحريم التبرك بالأشجار والأحجار.

(المتن)

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اَللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ! وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اَللَّهِ اِجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اَللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا اَلسُّنَنُ! قُلْتُمْ -وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ-كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكر فيه أبو واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حادثة وقعت له ولبعض من معه مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا حديثًا أسلموا، فكانوا حدثاء عهد بكفر، فهم ذكروا حالًا كان عليه أهل الجاهلية وهم التعلق بالأشجار، بطلب البركة منها، ولهذا قال: **(وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ)** والسدرة معروفة وهي شجر السدر، قال: **(يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا)** يعني يعتكفون عندها لطلب البركة، قال: **(وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ)** أي يعلقون بها الأسلحة رجاء أن تكون

ماضية تنكي بالعدو، فهو يطلبون من هذه الشجرة وهذه السدرة البركة، فيعتقدون فيها، فهو ذكر حالًا مما كان عليه أهل الجاهلية.

فخفي عليه لحداثة عهده بالإسلام أن مثل هذا الفعل من الشرك، فقال لرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(عَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ)** فهو طلب من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يفعل، فأنكر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك إنكارًا شديدًا، وغضب غضبًا شديدًا؛ فقال: **(اَللَّهُ أَكْبَرُ!)** وهذا فيه مشروعية تسبيح الله وتكبيره وتعظيمه عند رؤية ما يُنكر.

قال: **(قُلْتُمْ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ-كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138] ..)** فهو شبه طلبه هذه الشجرة لينوط بها السلاح، ويعكف عندها لطلب البركة بطلب قوم موسى من موسى أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه، فتبين من هذا أن التبرك بالأشجار من الشرك، أن التبرك بالأشجار والأحجار من الشرك بالله، فهذا الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه لم يفعلوا، وإنما استأذنوا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلمهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ما طلبوه من الشرك، ولو فعلوا لكانوا من المشركين، فدل هذا على خطر الشرك ودقته وأن الرجل الفاضل قد يخفى عليه بعض مسائل التوحيد، أو بعض المسائل التي توقعه في الشرك مما هو دقيق، وأيضًا دل على أن الرجل حديث العهد بضلالة أو انحراف أو بسلوك مخالف للصواب، إذا تاب منه فإنه قد يبقى عنده بعض أثره، إلى أن يتعلم ويتهذب، ودل أيضًا على وجوب تعلم مسائل التوحيد ومسائل الشرك؛ حتى لا يترك المسلم توحيده أو يفعل الشرك بسبب جهله.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(إِنَّهَا اَلسُّنَنُ!)** يعني هذه الطرق التي عليها أهل الكتاب، قوله: **(لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)** أو «**لتتبعن سنن**»، فيه إخبار بما يقع في أمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اتباع اليهود والنصارى في طرائقهم، ومن ذلك تعظيم ما يوقع في الشرك، وعبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد وقع ذلك في أمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أخبر، نسأل الله أن يثبتنا على التوحيد، وأن يحيينا على الإيمان ويقبضنا عليه.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (10)

باب ما جاء في الذبح بغير الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي اَلذَّبْحِ لِغَيْرِ اَللَّهِ

(الشرح)

بيّن رَحِمَهُ اللهُ تعالى في هذا الباب حكم الذبح لغير الله.

(المتن)

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163].

(الشرح)

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذه الآية في هذا الباب ليبين أن الذبح عبادة كما أن الصلاة عبادة، ولهذا عطف الله جَلَّ وَعَلَا النسك على الصلاة، ليدل على عظيم أمر النسك، والنسك هو الذبح، فهو لله، كما أن الصلاة لله جَلَّ وَعَلَا، فمن صلى لغير الله فهو مشرك، وكذلك من ذبح لغير الله فهو مشرك.

والذبح لغير الله على أنواع:

النوع الأول: منه ما يكون باسم غير الله، كمن يذبح باسم الجن، أو يذبح باسم المسيح، أو يذبح باسم عباد القادر أو غيره فهذا صريح في كونه ذُبح لغير الله.

النوع الثاني: أن يُترك اسم الله عمدًا، فهو يذبح أو ينحر ويتعمد عدم ذكر اسم الله على ذبيحته، فهذه مما ذُبح لغير الله جَلَّ وَعَلَا هذا من الشرك.

والنوع الثالث: أين يُذبح تعظيمًا للمخلوق، ولو سمى الله جَلَّ وَعَلَا عليها، كمن يزور أو يسوق غنمه فينحرها عند القبور، أو عند الأضرحة تعظيمًا لأصحاب الأضرحة، فهذا من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

فهذا كله داخل في الذبح لغير الله مما يوقع في الشرك نسأل الله العافية والسلامة، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الدليل على كون الذبح عبادة وأنه لا يجوز إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: 2].

(الشرح)

قوله: ﴿وَانْحَرْ﴾، أي وانحر لربك، فدل على أن الله جَلَّ وَعَلَا لما أمر أن يكون الذبح له؛ تبين أن من صرف الذبح وجعله لغيره؛ فقد أشرك في العبادة، ثم ذكر الدليل الثالث وهو حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(المتن)

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «حَدَّثَنِي رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ لَعَنَ اَللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اَللَّهِ، لَعَنَ اَللَّهُ مِنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اَللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، لَعَنَ اَللَّهُ مِنْ غَيْرِ مَنَارَ اَلْأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(الشرح)

هذا الحديث فيه الوعيد لمن ذبح لغير الله، وذلك أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا عليه باللعن، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فدل على أن هذا من الكبائر، والذبح لغير الله من أكبر الكبائر؛ لأنه من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال: **(لَعَنَ اَللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اَللَّهِ)** كمن يذبح للأصنام، أو يذبح للأولياء والصالحين، أو الجن وغير ذلك، وأما ما ذكر في هذا الحديث وهو: **(لَعَنَ اَللَّهُ مِنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ)** فمن يعلن والديه مباشرة أو يعلن الرجل أبا الرجل فيعلن الرجل أباه، فيكون متسببًا في لعن والديه، فهذا كله داخل فيه نسأل الله العافية والسلامة.

وقوله: **(لَعَنَ اَللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا)** وفي لفظ: «**محدَثًا**»، بالفتح، أي البدعة، فهو أحدثها فهذا من أسباب اللعن والطرد من رحمة الله، **(مُحْدِثًا)** وهو صاحب البدعة يؤيه ويحبه ويواليه وينصره، فهذا من أسباب هدم الدين.

وقوله: **(لَعَنَ اَللَّهُ مِنْ غَيْرِ مَنَارَ اَلْأَرْضِ)** أي مراسيم الأرض والحدود التي يحدها الناس فتبين حقوقهم، وتبين الأملاك، فهو يغيرها ليغصب حق غيره أو يوقع الخلاف بين المسلمين أو يأخذ الحق من رجل إلى آخر، فهو يغيرها عدوانًا وظلمًا، هذا كله من أسباب اللعن، فدل قوله: **(لَعَنَ اَللَّهُ)** على أن هذا من الكبائر، وأن الواجب على المسلم أن يحذر من ذلك.

(المتن)

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ; أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **"دَخَلَ اَلْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ وَدَخَلَ اَلنَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ" قَالُوا وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اَللَّهِ؟ قَالَ مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا قَرِّبْ قَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُهُ قَالُوا لَهُ قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ اَلنَّارَ وَقَالُوا لِلْآخَرِ قَرِّبْ فَقَالَ مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اَللَّهِ - عزوجل - "فَضَرَبُوا عُنُقَهُ; فَدَخَلَ اَلْجَنَّةَ"**». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

(الشرح)

هذا الحديث أيضًا يدل على خطر الشرك، وأن الشرك وإن كان في شيء يسير فهو سبب دخول النار نسأل الله العافية والسلامة، ويدل أيضًا على أن التوحيد والصبر عليه والموت عليه سببٌ لدخول الجنة، وهذا يدل على فضل التوحيد، فهذا يدل على خطورة الشرك وشناعته، فقد يكفر المرء ويشرك ولو لم يقرب، وذلك بموافقة المشركين على دينهم، أو الرضا بالشرك أو استحسان الشرك، أو محبته، أو تفضيله على دين الإسلام، كلّ هذا مما يخرج من التوحيد، ومما يخرج من دين المسلمين.

وأما من صبر ولم يقرب فإنهم عادوه وقتلوه، فمات على التوحيد؛ فكان في ذلك عظيم أجره وثوابه وسعادته في آخرته وذلك بدخول الجنة، فدل هذا على خطر الشرك وأن المشرك لا ينجو، نسأل الله العافية، وأن الموحد له السلامة وله الفوز، وله السعادة في الدنيا وفي الآخرة.

دل أيضًا على وجوب الصبر على التوحيد، وأن المؤمن قد يبتلى، قد يبتلى في التوحيد، ويدعى إلى الشرك؛ فعليه أن يصبر، وإن مات وقتل فهذه الدنيا تزول، والآخرة خيرٌ وأبقى، ونسأل الله أن يثبتنا على التوحيد وأن يحيينا على الإيمان، وأن يقبضنا عليه.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (11)

باب لا يذبح الله بمكان يذبح فيه لغير الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَاب لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اَللَّهِ

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ 108 أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 108، 109].

(الشرح)

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى بعد أن ذكر حكم الذبح لغير الله بيّن ما هو ذريعة إلى ذلك، وهو مشابهة المشركين في أماكن ذبحهم، فإن المسلم مأمور أن يجتنب أماكن الشرك، وإن كان قصده في العبادة أنها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا علم من مكانٍ أو كانٍ يخصص فيه العمل لغير الله جَلَّ وَعَلَا؛ فالمسلم مأمورٌ بمجانبة هذه الحال.

مثال ذلك: ما نهى عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصلاة في أوقاتٍ معينة، كوقت شروق الشمس إلى أن ترتفع قيد رمح، وبعد صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس، وعندما يقوم قائم الظهيرة، فإن هذه الأوقات كان يعظمها المشركون في عبادتهم للشمس، فكان النهي عن الصلاة في مثل هذه الأوقات.

كذلك ما ورد في هذه الآية العظيمة التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى وهي أن الله جَلَّ وَعَلَا نهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلي في مسجد بناه المنافقون؛ حيث أنهم تحايلوا على مقصدهم السيئ بأن جعلوا أمرهم مشروعًا في طلبهم من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلي فيه، وهذا كله ليتحايلوا بذلك على أهل الإيمان، فبين الله جَلَّ وَعَلَا سوء مقصدهم وأنهم إنما بنوا هذا المسجد ضرارًا وتفريقًا للمؤمنين، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ

أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ [التوبة: 108]، وهو المسجد الذي بناه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة المسجد النبوي، وقيل: مسجد قباء.

قال: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: 108]، وهذا فيه مجانبة الأماكن التي بناها المخالفون للحق وإن كان ظاهر أمرها أنها بنيت لله، لكن من علم حال أهلها وعلم سوء مقصدهم فالواجب ألا يكون معهم في حالهم، وإن كان قصده لله سبحانه، فهذا فيه تمايز صفوف أهل الإيمان عن صفوف أهل الكفران والنفاق، ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى بعد ذلك حديثًا رواه عن ثابت بن الضحاك.

(المتن)

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ اَلضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبَوَانَةَ، فَسَأَلَ اَلنَّبِيَّ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ اَلْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا لَا قَالَ «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالُوا لَا، فَقَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ; فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اَللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ اِبْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

(الشرح)

هذا الحديث فيه خبر الرجل الذي كان قد نذر أن يذبح إبلاً ببوانة، وبوانة موضعٌ مكاني، فسأله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سبب النذر أن خصص هذا المكان، فهل كان فيه عيدًا من أعياد أهل الجاهلية؟ أو كان محلاً يذبح فيه أهل الجاهلية لأوثانهم وأصنامهم فيعظمونها؟ فلما علم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن شيء من ذلك ليس موجودًا أمرهم بالوفاء بالنذر، فتبين من هذا أنه لو كان النذر لله ولكن المكان الذي نذر فيه؛ فيه أمر متعلق بأهل بالجاهلية كصنمٍ أو كأن يكون في زمن عيدٍ لهم، فإنه ينهى عن الوفاء بالنذر في هذه الحالة؛ حتى لا يماثل المسلم المشركين في عبادتهم أو في عاداتهم، فهذا فيه بيان وجوب مجانبة حال المشركين في عاداتهم وفي عباداتهم وفي أعيادهم، وفيه عزة المسلم، وأن المسلم يجب أن يتميز بدينه عما عليه أهل الإشراك.

أيضًا فيه أدب الفتيا؛ وهي أن المفتي يستفصل من السائل حتى يتبين له وجه الإشكال، فيجب جوابًا يصلح للمسألة وينطبق على حال السائل.

أيضًا هذا الحديث دل على أن النذر لله، فلا يجوز أن ينذر لغير الله، فالنذر عبادة إذا عقده المؤمن، فإذا نذر لغير الله فقد صرف العباد لغيره سبحانه، وهذا من الشرك، وأيضًا فيه أن

النذر إذا كان في الطاعة فإنه يجب الوفاء به، وإذا كان في المعصية فإنه يحرم الوفاء به، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **(فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اَللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ اِبْنُ آدَم)**.

وقوله: **(وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ اِبْنُ آدَم)** كما ينذر أن يفعل شيئًا لا يملكه، كأن يقول: نذرت أن أمنحك سيارة فلان وهو لا يملك له، فهذا نذره لغو، وهل نذر المعصية أو نذر فيما لا يملك هل فيه كفارة؟ على قولين عند العلماء، والصواب أنه فيه كفارة، فهو يكفر عن نذره وهي كفارة يمين.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (12)

باب من الشرك النذر لغير الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: 7].

(الشرح)

لما ذكر الذبح لغير الله، وذكر النهي عن وسائله وهو الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، وأن هذا من وسائل الشرك؛ بيّن رَحِمَهُ اللهُ تعالى مسألة عظيمة وهي نوع من أنواع من العبادات وهو النذر، والنذر هو إلزام المكلف نفسه بشيء لم يلزمه بأصل الشرع، كأن ينذر على نفسه أن يصلي ركعتين نفلاً أو أن ينذر على نفسه أن يأتي بعمرة في رمضان فهذا إلزام له بغير لازم شرعًا، والأصل في النذر أنه مكروه فينهى عنه، ولا ينبغي أن ينذر المؤمن على نفسه شيئًا؛ لأن الله جعله في سعة، لكن إذا نذر فإنه يلزمه الوفاء إذا كان نذره طاعة لله كما تقدم، ولهذا الله جَلَّ وَعَلَا أثنى على من يوفي بنذره؛ قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: 7]،

وثناء الله جَلَّ وَعَلَا على هؤلاء بوفائهم بنذرهم يدل على أمور:

الأول: على أن الوفاء بالنذر مما يُحمد.

الثاني: على أن النذر إذا عُقد فهو عقد عبادة، فإذا كان لغير الله فإنه شرك.

(المتن)

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: 270].

(الشرح)

فهو يوفي لمن نذر له الثواب، ولمن نذر لغيره فإنه يجازيه العقاب، فدل على أنه عبادة، وأن صرفه لغير الله شرك.

(المتن)

وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اَللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ».

(الشرح)

هذا الحديث دل على المعنى المتقدم وهو أن النذر في الطاعة واجب الوفاء وأن النذر في المعصية يحرم الوفاء به، وهنا مسألة: لو أن رجلاً نذر نذرًا ثم لم يستطيع الوفاء به؟ فإنه يكفر كفارة يمين، ولا شيء عليه، وإذا أيضًا نذر نذر طاعة ووجد غيره خيرًا منه يكفر كفارة يمين، نسأل الله جل أن يثبتنا على دينه وأن يحيينا على ملته ويقبضنا على الإيمان به.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد.

كتاب التوحيد

رقم الباب (13)

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

(الشرح)

الاستعاذة هي طلب العوذ من أمرٍ مخوف، الاستعاذة قسمان:

القسم الأول: استعاذة مأمور بها شرعًا، يؤجر عليها العبد ويثاب عليها وهي عبادة لله جَلَّ وَعَلَا، وهي أن يستعيذ العبد بالله من شر ما يخافه من الجن والإنس ومن كلّ ما يخافه ويقلقه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: 1]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه الكريم: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: 200]، فهذه عبادة عظيمة أن تستعيذ بالله من كلّ ما تخافه.

النوع الثاني: استعاذة منهي عنها، وهي أن تستعيذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فاستعاذة العبد بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا خالق هذه مما نهى الله جَلَّ وَعَلَا عنها وهي الشرك، لماذا هي شك؟ لأنك طلبت من مخلوق ما لا يقدر عليه إلا الخالق فكانت عبادة، وأيضًا لأن الله جَلَّ وَعَلَا أمر بالاستعاذة به، وكلّ ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به فهو عبادة، يقرب إليه سبحانه، وصرفه لغيره شرك، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم وذكر هذا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قال: **(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ)**.

(المتن)

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: 6].

(الشرح)

فكأن أهل الجاهلية يأتي الرجل إلى الوادي فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهائه يعني من الجن، فيتسلط عليه الجن بالأذى والتخويف، وهذا من عاقبة الشرك نسأل الله العافية والسلامة.

وثَمة قسم ثالث من الاستعاذة وهي مباحة: وهي الاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه، أن تستعيذ به مما تخاف، وهذه مباحة كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فمن وجد ملجأ أو معاذًا فليعذ به**».

(المتن)

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين أن الاستعاذة عبادة، فأنت تستعيذ بالله من شر ما خلق الله جَلَّ وَعَلَا مما في خلقه من الأذى، مما فيه من الشرور، وقوله: **(أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ)** كلمات الله هي القرآن، وهي أمر الله جَلَّ وَعَلَا، فهي منه سبحانه، ولهذا تستعيذ بالله،وتستعيذ بكلماته، وهذا يدل على أن كلام الله جَلَّ وَعَلَا منه سبحانه، تكلم به على ما يليق بجلاله جَلَّ وَعَلَا، وأنه كلام الله حروفه ومعانيه، كلامه ليس بمخلوق.

قوله: **(لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)** هذا فيه فضل الاستعاذة بالله، وأن من لجأ إلى الله مما يخافه فإنه الله يقيه، ويُفهم من هذا أن من استعاذ بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله فإنه يتسلط عليه الأذى، وهذا من المعاملة بنقيض القصد.

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينه وأن يحيينا على ملته ويقبضنا على الإيمان

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (14)

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

(الشرح)

بعد أن ذكر الاستعاذة ذكر الاستغاثة، والاستغاثة هي طلب الغوث من أمرٍ مخوف، وهي مثل الاستعاذة من جهة نوعيها، فإن استغاث المخلوق بالمخلوق فيما يقدر عليه؛ فإن هذا من الاستغاثة المباحة، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: 15].

والنوع الثاني: أن يستغيث المخلوق بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذه هي الشرك؛ لأنه اعتمد على المخلوق وطلبه أمرًا لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

النوع الثالث: وهي العبادة العظيمة والقربة الجليلة وهي الاستغاثة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا مما يؤجر عليه العبد لأنه مأمور بها، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ الآيات والنصوص في ذلك.

(المتن)

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ 106 وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس:106- 107].

(الشرح)

هذه الآية تدل على أن الاستغاثة لا تكون إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن المخلوق لا يملك للمخلوق شيئًا فيمالا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، فيعلم من هذا أن من استغاث بالمخلوق فيما

لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا؛ ولا كاشف له إلا هو، فقد اتخذه إلهًا وعبده، وذكر رَحِمَهُ اللهُ الدليل الثاني قال.

(المتن)

وَقَوْلُهُ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: 17].

(الشرح)

يعني اطلبوا الله؛ لأن الاستغاثة هي نوع خاص من أنواع الدعاء، وقوله: ﴿فَابْتَغُوا﴾، يعني ادعوا الله واستغيثوا بالله في طلب الرزق المعنوي والحسي، ومن ذلك دفع المخاوف وجلب المنافع، وقوله: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾، دل على أن الاستغاثة عبادة، وأن صرفها لغير الله شرك.

(المتن)

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5].

(الشرح)

هذه كما تقدم دل على أن من استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه؛ فإنه ضال، ودل أيضًا على أن المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا لا ينفع، لا ينفع المخلوق، فكيف إذا كان ميتًا أو غائبًا فإن هذا من أعظم الضلال، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5]، ثم قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 6].

(المتن)

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 62].

(الشرح)

فهذه الآية كما تقدم في الآيات السابقة فيها الأمر بدعاء الله جَلَّ وَعَلَا والاستغاثة به، وأنه لا يغيث المضطر ولا يكشف الضر إلا الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا من الشرك صرف ذلك لغير الله.

(المتن)

وَرَوَى اَلطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ يُؤْذِي اَلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا اَلْمُنَافِقِ. فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاَللَّهِ».

(الشرح)

فهذا فيه تأديب من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعض أصحابه أن تكون الاستغاثة بالله؛ لأن الاستغاثة من أخص أنواع الدعاء، وإن كان الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق الحي الحاضر جائزة إلا أنه ينبغي أن يكون العبد دائمًا متعلقًا بالله، يطلب منه الغوث ويطلب منه المدد فيما يحب ودفع ما يكره فإن هذا من تمام عبوديته.

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينه ويحيينا على ملته، ويقبضنا على الإيمان به

والله أعلى وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (15)

باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: 191].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ 191 وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 191، 192].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ 13 إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 13، 14].

(الشرح)

هذا الباب عقده رَحِمَهُ اللهُ تعالى لبيان البرهان على بطلان الشرك، ذلك أن المشرك ليس له حجة من شرع ولا من عقل، ذلك أن منع عبده من دون الله مخلوقون لا يخلقون، فالمخلوق كان عدمًا ثم يكون فناءً، ثم هذا المعبود من دون الله لا يملك لمن عبده نصرًا، فلا يدفع عنه ضر ولا يجلب له نفع، فتبين من هذا بطلان الشرك، وأن المشرك ليس معه حجة من شرعٍ ولا من عقل.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13]، القطمير هو الغشاء اللفافة التي على نواة التمر، فهو إذا كان لا يملك لفافة على نواة التمر فكيف يملك دفع ضر أو جلب نفعٍ أو شفاءٍ أو رزقٍ أو عافيةٍ أو غنى، أو الانتصار لمظلوم أو غير ذلك؟!! فتبين بهذا الحجة العقلية على بطلان الشرك.

(المتن)

وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «شُجَّ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟ فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾».

وَفِيهِ: «عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا " أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَاسَهُ مِنْ اَلرُّكُوعِ فِي اَلرَّكْعَةِ اَلْأَخِيرَةِ مِنَ اَلْفَجْرِ " اَللَّهُمَّ اِلْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا " بَعْدَمَا يَقُولُ سَمِعَ اَللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ اَلْحَمْدُ " فَأَنْزَلَ اَللَّهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾».

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾».

(الشرح)

هذه الأحاديث دلت على بطلان الشرك من جهات:

الجهة الأولى: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد ولد آدم وسيد الأولين والآخرين وصاحب الشفاعة العظمى لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فإذا عُلم أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فكيف يملك لغيره بأن يدعى من دون الله، أو يطلب المدد أو يطلب الشفاعة؟!! فإذا علم ذلك علم أن من دون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب أولى، ليس له من الأمر شيء، هذا فيه الدليل العقلي على بطلان الشرك، وفيه أيضًا دليل شرعي على بطلان الشرك بهذه الواقعة والحادثة؛ أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شحت رباعية، والرباعية هي الأسنان التي دون الثنية، فهو لم يملك دفع الضر عن نفسه، وأيضًا فيه أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجأ إلى ربه لدفع الضر، والاستنصار لرسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فدل أن من عظم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يسلك مسلكه، فإذا أصابه ضر أو ادلهمت عليه مصيبة أو نزلت به نازلة أن يلجأ إلى الله جَلَّ وَعَلَا ويستنصر به، ويطلبه دفع الضر وجلب الخير كما فعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدل هذا على بطلان الشرك، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدعى، فإذا كان لا يُدعى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فمن دونه من باب أولى.

(المتن)

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ «أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا»! اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اَللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! لَا أُغْنِكَ مِنَ اَللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اَللَّهِ شَيْئًا».

(الشرح)

هذا الحديث حديث عظيم، دل على أن أقرب الناس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي ابنته فاطمة، وأعمامه صفة والعباس، وعشيرته الأقربون منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو لا يملك لهم نفعًا وضرًا، فكيف بمن هو أبعد منهم؟ هذه واحدة.

ثانيًا: دلت على أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك شيء من أمر الآخرة، فلا يملك الشفاعة، ولا يملك الجنة، ولا يملك النار، ولا ينفع عبدًا في دخوله الجنة أو خروجه من النار إلا بإذن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يُدعى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا، لا يدعى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه ليس له من الأمر شيء؛ فدل هذا على بطلان الشرك، وأن من دون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب أولى أنه لا يغني ممن عبده شيئًا.

ودلت هذه الآية أيضًا على أن القرب من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يغني إلا العمل الصالح، فكن كان أتقى لله كان أقرب لرسول الله، ومن كان مخالفًا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مجانبًا ما عليه من الأمر والنهي منتهكًا أمر الله، متجاوزًا حدود الله أو واقعًا في الشرك فإنه لا تغني قرابته من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا.

نسأل الله أن يثبتنا على دينه ويحيينا على ملته، ويجعلنا من المعظمين لكلامه المتبعين لأمره، المنتهين عن نهيه، وأن يقبضنا على الإيمان به.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (16)

باب قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23].

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى أيضًا يدل على بطلان الشرك، ويدل أيضًا على بطلان عبادة الملائكة، ويدل أيضًا على بطلان عبادة من دون الملائكة، فإن قومًا من أهل الجاهلية عبدوا الملائكة، فدل هذا الباب على أن الملائكة مربوبون خائفون من الله، عابدون لله، لا يخرجون عن أمره ولا عن طوعه، فإذا عُلم حالهم عُلم أنهم ليسوا محلاً للعبادة، وإنما المعبود هو الله الملك الذي خلق الخلق فدبرهم.

قوله سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: 23]، يعني إذا تكلم الله جَلَّ وَعَلَا بالوحي، فسمعه جبريل، فسمعوا كلام الله جَلَّ وَعَلَا، فإنهم يصعقون خشية من الله جَلَّ وَعَلَا ويخافون خوفًا عظيمًا من الله، ثم يسألون جبريل: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: 23]، فيقول: ﴿الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23]، فيخضعون لله، ويعظمون أمر الله، ويرهبون الله، ويتقون الله، ويلهجون بتسبيح الله وتعظيمه، هذا حال الملائكة، فعُلم أنهم مربوبون لا أرباب، ثم ذكر الأحاديث في هذا الباب وهي تفسر هذه الآية.

(المتن)

وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَضَى اَللَّهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ اَلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ،

يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23]، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ اَلْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا اَلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ اَلسَّاحِرِ أَوْ اَلْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ اَلَّتِي سُمِعَتْ مِنَ اَلسَّمَاءِ».

(الشرح)

ثم الحديث الذي يليه وفيه مزيد.

(المتن)

وَعَنْ اَلنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اَللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ; تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ; أَخَذَتِ اَلسَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ «أَوْ قَالَ رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ» خَوْفًا مِنْ اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ اَلسَّمَوَاتِ; صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَاسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اَللَّهُ مِنْ وَحَيِّهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى اَلْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ " قَالَ اَلْحَقَّ، وَهُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

(الشرح)

فهذه الأحاديث تدل على خوف الملائكة من الله جَلَّ وَعَلَا، وتدل على أن الله جَلَّ وَعَلَا يتكلم بكلام مسموع بحروف وصوت على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتدل على أن الملائكة لا يعبدون؛ لأنهم عبادٌ لله، وتدل أيضًا على أن السحرة والكهنة يسترقون السمع بواسطة الشياطين، وهذا فتنة وابتلاء من الله؛ حيث أن الله جَلَّ وَعَلَا جعل بحكمته القدرة للشياطين أنها تصعد إلى العلو، فتستمع الوحي، تستمع كلام الله جَلَّ وَعَلَا، فقد تدرك شيئًا من الحق فيلقيه الأعلى على الأدنى حتى يصل إلى الكاهن أو إلى الساحر، فيأخذ الكلمة التي سمعها وهي حق فيجعل معها مائة كذبة، فإذا وقع ما أخبر به الكاهن صدق في سائر قوله، وهذا من عظيم الفتنة.

وأيضًا دل هذا الحديث على أن الله جَلَّ وَعَلَا قد يبتلي عباده من أهل الإيمان بما يمحص قلوبهم، كوجود السحرة، ووجود الكهنة، فيتميز المؤمن الموحد بالله جَلَّ وَعَلَا الذي يكفر

بالطاغوت من السحرة والكهنة ويؤمن بالله ولو كان معهم شيء من الحق والصدق الذي سمعوه من الشياطين حين استرقت السمع.

وفيه أيضًا من الفوائد أن الله جَلَّ وَعَلَا يرمي الشياطين بالشهب كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ 6 وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ 7 لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: 6 - 8]، أي يقذفون بالشهب فتحرقهم.

ودلت هذه الأحاديث على أن المؤمن يجب عليه أن يعظم الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا سمع كلام الله خضع له، وعظمه، وأجله، وآمن به، وانقاد له، واعتقد أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الحق وأنه يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقدس.

مما دلت عليه هذه الأحاديث أيضًا صفة العلو لله، وأن الله فوق خلقه، فوق عرشه، له العلو بالذات، والعلو بالقدر، والعلو بالقهر جَلَّ وَعَلَا وتقدس.

أيضًا هذه الأحاديث دلت على أمر عظيم وهي: أن السموات العظيمة هذه السموات السبع العظيمة الخلق تخاف من الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا سمعت كلام الله أخذت السماوات رعدة شديدة، أو رجفة شديدة، فكيف بالمخلوق الإنسان الضعيف الفقير إلى الله جَلَّ وَعَلَا؟ هذا المخلوق الصغير كيف لا يخاف؟ كيف لا يخشى الله ويسمع كلام الله؟ يسمع القرآن؟ يسمع الآيات؟ كيف لا يخاف وهو يصلي بين يدي الله؟ وهو يقف بين يديه ويسمع الآيات العظيمة التي فيها وعد ووعيد، هذا فيه تربية للمؤمن أن الواجب أن يكون من حاله الخوف من أمر الله.

وفيه تربية للمؤمن أنه إذا مع كلام الله عظمه، وعلم أن هذا هو الحق، فلم يقدم بين يدي الله قول أحد كائنًا من كان، وإن كان عظيمًا معظمًا في العلم والفضل.

أسأل الله أن يثبتنا على دينه، وأن يحيينا على ملته، ويجعلنا من المعظمين لكلامه، المتبعين لأمره، المنتهين عن نهيه، وأن يقبضنا على الإيمان به.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (17)

باب الشفاعة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ اَلشَّفَاعَةِ

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليرد شبهة يحتج بها المشركون، وهي أنهم يزعمون أن تقربهم لمن يعظمونه من الصالحين ومن الأنبياء وغيرهم إنما هو لطلب الشفاعة عند الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18]، ويزعمون أنهم بهذا يكونون أقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فهم يتقربون بهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنفى الله جَلَّ وَعَلَا ذلك، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3].

فأكذبهم سبحانه وبين كفرهم، فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر باب الشفاعة ليبين هذه المسألة العظيمة وهي بطلان حجة المشركين؛ في أنهم ينالون بعبادتهم غير الله الأنبياء والصالحين ينالون بذلك الشفاعة، وأيضًا ليبين رَحِمَهُ اللهُ الشفاعة وما يتعلق بها من أحكام وأنها لا تكون إلا لأهل الإيمان، وأما أهل الشرك؛ فإنه منفية بحقهم، وذكر الأدلة ذلك.

(المتن)

وَقَوْلِ اَللَّهِ تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: 51].

(الشرح)

قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾، يعني القرآن، القرآن هو النذير، هو الحجة على من بلغه؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19].

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾، وهم أهل الإيمان، وهم الذين ينتفعون بالنذارة، ومن أراد الله به خيرًا وأراد الله هدايته ينتفع بالنذارة كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: 9]، ثم قال سبحانه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: 10]، ثم قال سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: 51]، يعني ليس لمخلوق ناصر، وليس لمخلوق شفيع إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160].

فتبين من هذه الآية بطلان اتخاذ الأنداد ليكونوا شفعاء، وذلك أنه ما من شفيع إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ الدليل الثاني.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 44].

(الشرح)

قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾ [الزمر: 44]، قدم العامل على المعمول، وأصل الجملة: الشفاعة لله، (الشفاعة) مبتدأ (لله) جار ومجرور في محل رفع خبر المبتدأ، فقدم العامل وهو الخبر على المبتدأ ليدل على الحصر، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في آيات كثيرة منها قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، فهذه قدم فيها العامل على المعمول أي نعبدك، ولكن لما قدم العامل دل على أن العبادة لله وحده.

أيضًا في هذه الآية قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾ [الزمر: 44]، يعني لله وحده وليست لغيره، تبين بهذا أن الشفاعة ملك لله، وأنها إذا كانت ملكًا لله؛ فإنها لا تطلب إلا لمن الله جَلَّ وَعَلَا، فتبين بطلان حجة المشركين الذين يعبدون الأنبياء والصالحين، ويزعمون أنهم ينالون بذلك الشفاعة، فيقال: الشفاعة إنما تطلب من الله، ولا ينالها إلا من وحد الله، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى أيضًا الدليل على ذلك.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255].

(الشرح)

وهذه دلت على أن الشفاعة ملك لله كما تقدم في الآيات السابقة، ودلت أيضًا على أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يأذن للشافع بالشفاعة، ودلت أيضًا على أنه لا أحد يبتدئ الشفاعة من تلقاء نفسه، وإنما يطلبها من ا لله، وإذا عُلم ذلك فإن على من كان يرجو أن ينال الشفاعة عند الله جَلَّ وَعَلَا أن يطلبها من الله ولا يطلبها ممن هو دون الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن لا أحد يشفع إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، دل على أن من طلب الشفاعة من غير الله جَلَّ وَعَلَا أو فعل ما يكون بزعمه أنه ينال بذلك الشفاعة من أنواع القرب للأنبياء والصالحين فإنه بذلك لا ينال الشافعة، وإنما تنفى بحقه كما تقدم في الآيات وكما سيأتي في الآيات التي تليها.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26].

(الشرح)

هذه الآية فيها بيان أن الملائكة المقربون كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم هم مربوبون، لا يشفعون لأحد إلا بعد إذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا عُلم ذلك، وعُلم أن هذا حال الملائكة فكيف بمن دون، فلا أحد يشفع إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تصرف لأحدٍ العبادة بطلب الشفاعة؛ لأنه لا تنال بذلك الشفاعة إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال في هذه الآية العظيمة: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ [النجم: 26]، وهذا تقدم، وهذه دلت على أن الشفاعة ملك لله.

قال: ﴿وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26]، والرضا أن يرضى عن الشافع فيأذن له بالشفاعة، ويرضى عن المشفوع له فيشفع به، والله جَلَّ وَعَلَا لا يرضى عن المشركين، ولا يرض عمن أشرك فيه شيئًا كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

فإذا عُلم أن الله لا يغفر الشرك، فكذلك لا يُشفع في المشركين، فتبين من هذا بطلان حجة المشركين، أنهم بعبادتهم غير الله ينالون بذلك الشفاعة.

وتبين أيضًا أن المشرك ليس له حجة وليس معه برهان على شركه، وتبين أيضًا أن كلّ من كان دون الملائكة المقربين فإنه من باب أولى لا يشفع إلا من بعد أن يأذن الله ويرضى.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ 22 وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:22-23]

(الشرح)

فهذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ ليبين بطلان حجة المشركين أنهم ينالون بعبادة غير الله الشفاعة، وذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هؤلاء الذين عبدوهم مخلوقون، مملوكون، مربوبون، وذلك أنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فإذا عُلم هذا عُلم أنهم لا يصلحون للعبادة، هذا واحد.

ثانيًا: أنهم لم يشاركوا الرب جَلَّ وَعَلَا في خلق السماوات والأرض، فإذا لم يشاركوا الله جَلَّ وَعَلَا فهم أيضًا مخلوقون ضعفاء، وليس لله شريك تعالى وتقدس.

الثالثة: قال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: 22]، يعني أنهم لم يعينوا الرب تعالى وتقدس على خلق السموات والأرض، وهو سبحانه المستغني بذاته جَلَّ وَعَلَا عن خلقه والخلق كلهم فقراء إليه، ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: 23]، وهذا استثناء مما نفاه الله جَلَّ وَعَلَا، فإن الله جَلَّ وَعَلَا نفى الشفاعة، ولكن أثبت من يأذن له، وهذا لا يكون إلا لأهل التوحيد كما تقدم في الآية السابقة، وهي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26].

فهذه الآية فيها بطلان حجة المشركين، فيها أن من عُبد من دون الله ليس حقيق بالعبادة؛ لأنه لا يملك شيئًا، ولأنه ليس له شرك في السموات، ولأنه ليس ظهيرًا لله جَلَّ وَعَلَا ومعينًا له.

أيضًا دلت على بطلان الأسباب الشركية، وأن كلّ من جعل شيئًا مما يصرف له العبادة من دون الله عَزَّ وَجَلَّ سببًا في جلب المنافع ودفع المخاوف فإن حجته داحضة وحجة مردودة عليه؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو ملك السموات والأرض وما له فيهما من شريك، وما له فيهما من ظهر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقدس.

(المتن)

قَالَ أَبُو اَلْعَبَّاسِ: " نَفَى اَللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اَلْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اَلشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ اَلرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، فَهَذِهِ اَلشَّفَاعَةُ اَلَّتِي يَظُنُّهَا اَلْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ; كَمَا نَفَاهَا اَلْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ يَاتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ -لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً- ثُمَّ يُقَالُ لَهُ اِرْفَعْ رَاسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».

(الشرح)

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(أَنَّهُ يَاتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ -لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً)** أيضًا هذا من الأدلة على بطلان الشرك، وعلى أن المشرك ليس معه حجة، وأيضًا على أن من طلب من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشفاعة بعد موته أو صرف له شيء من العبادة لينال بها الشفاعة؛ فإن ذلك مردود؛ لأنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مربوب، لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يملك الشفاعة، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولهذا يستأذن الله جَلَّ وَعَلَا أن يشفع، فيسجد تحت العرش كما سيأتي، ويأذن الله جَلَّ وَعَلَا له بذلك.

تبين أن من أراد الشفاعة عليه بتوحيد الله، وعليه أن يلجأ إلى الله أن يشفع الله جَلَّ وَعَلَا فيه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصالحي عباده.

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(ثُمَّ يُقَالُ لَهُ اِرْفَعْ رَاسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ)** ثم شيخ الإسلام ابن تيمية فيما نقله الإمام المجدد.

(المتن)

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَسْعَدُ اَلنَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ"» فَتِلْكَ اَلشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اَللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاَللَّهِ.

(الشرح)

يدل على هذا قوله: **(خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ)** وقوله: **(خَالِصًا)** يعني أن يكون عمله كله لله جَلَّ وَعَلَا، فيخلص قوله وعمله من الشرك، ويتبرأ من الشرك، أما من أشرك ودعا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو دعا الأولياء والصالحين، أو سألهم الشفاعة فإنه ليس من أهل لا إله إلا الله، ولهذا لا ينال الشفاعة، فهذا دل على نفي الشفاعة لأهل الشرك، وأن الشفاعة إنما تكون لأهل التوحيد.

ودل أيضًا على فضل التوحيد، وأن الموحد إذا لقي الله وإن كان عنده ذنوب أو الخطايا أو سيئات فإنه يرجى له النجاة، يرجى له الخير، وذلك برحمة الله عَزَّ وَجَلَّ له، وبفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه، ثم بما قام به من توحيد الله جَلَّ وَعَلَا والإخلاص له، والسلامة من الشرك.

(المتن)

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ اَلَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ اَلْمَقَامَ اَلْمَحْمُودَ.

(الشرح)

يعني حقيقة الشفاعة.

(المتن)

فَالشَّفَاعَةُ اَلَّتِي نَفَاهَا اَلْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ اَلشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ اِنْتَهَى كَلَامُهُ.

(الشرح)

فهذا ما يتعلق بالشافعة التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى بهذا الباب من أبواب هذا الكتاب العظيم (كتاب التوحيد) تبين من هذا بطلان حجة المشركين الذين يعبدون الأنبياء، ويعبدون الصالحين، ويتقربون إلى غير الله جَلَّ وَعَلَا بأنواع القرب؛ بزعم أنهم ينالون بذلك الشفاعة، نسأل الله أن يثبتنا على دينه، ويحيينا على ملته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

رقم الباب (18)

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليدل على بطلان عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا عُلم أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك هداية من يحب أن يهتدي، فيُعلم بذلك أنه عبدٌ لله، وأن الله جَلَّ وَعَلَا هو المدبر لكل أمر، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ويعلم بذلك أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يعلم الغيب، ولا يملك لنفسه كما لا يملك لغيره نفعًا ولا ضرًا، فبطلت بذلك حجة أهل الشرك، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الأحاديث التي تدل على معنى هذه الآية.

(المتن)

وَفِي اَلصَّحِيحِ: عَنْ اِبْنِ اَلْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ اَلْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اَللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللَّهِ فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَمَا قَالَ هُوَعَلَى مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ ". فَأَنْزَلَ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وَأَنْزَلَ اَللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾».

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الخبر في قصة وفاة أبي طالب عم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أبا طالب كان قد بذل جهده في نصرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إن رسول الله صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بُعث كان أبو طالب محبًا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناصرًا له، وكان أبو طالب يقر بصحة ما أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ به رسوله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يقر بأن دين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حق، وأنه من خير أديان البرية، لكنه ما شهد أن لا إله إلا الله، ولذلك ما حضرته الوفاة كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: **(يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللَّهِ)** يعني أشهد لك بها عند الله؛ لأن من لم يشهد أن لا إله إلا الله فإنه لا ينفعه محبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما لا ينفعه نصرته، كما لا ينفعه ما قدم من عمل؛ لأنه مات على الشرك، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23].

ولكن إرادة الله جَلَّ وَعَلَا فوق كلّ إرادة، وحكمته اقتضت أن يموت أبو طالب على الشرك، ولهذا قال: **(هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ)** يعني على الشرك.

وفي هذا فوائد:

الفائدة الأولى: أن الله جَلَّ وَعَلَا يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 39]، فالعبد ما دامت نفسه بين جنبيه فإنه لا يأمن على نفسه الزيغ؛ كما أنه بحاجة وفقر عظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبته على الإيمان، ولهذا يسأل العبد ربه دائمًا أبدًا أن يهديه الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه وأن يقبضه عليه؛ لأن الهداية منة من الله جَلَّ وَعَلَا، والضلال عدلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكلّ ذلك بحكمته وتحت مشيئته سبحانه وتقدس، ولهذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 39].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125].

كان من دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يقول: «**اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، وكان من دعائه في صلاة الليل أنه يقول: «**اللهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»، فهذه من الفوائد العظيمة في هذا الحديث أن يكون العبد مفتقرًا إلى ربه في كلّ حال أن يهديه، ويشرح صدره، ويثبته على الإيمان حتى يلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أيضًا فيه من الفوائد: أن الهداية نوعان:

النوع الأول: هداية إرشاد ودلالة وهي معنى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ 52 صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 52، 53]، فهذه هداية دلالة وإرشاد.

النوع الثاني: هداية توفيق وإلهام، فأما دلالة الإرشاد فإن العبد يقدر عليها، فأنت ترشد غيرك إلى ما فيه الخير، وتحذره مما فيه الشر، وأما هداية التوفيق فإنها لا يملكها المخلوق وإنما هي من الله جَلَّ وَعَلَا، من قذف الله في قلبه النور اهتدى، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40]، وهذا هو معنى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56]، يعني لا تقذف في قلبه الإيمان، وهذا يؤيده قول الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: 20]، يعني عليك دلالة الإرشاد، وعليك الدلالة إلى الخير، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يهدي من يشاء.

ثم إن قوله في هذا الحديث: **(هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ)** فيها أيضًا فائدة وهي أثر العادات والتقاليد المخالفة للشرع في مخالفة الحق؛ فإن الرجل إذا نشأ على عادة أو على عمل مخالف للشرع مخالف للصواب فإنه يصعب عليه إلا أن يوافقه الله جَلَّ وَعَلَا أن ينتقل منه، وأن يتركه، وأيضًا فيه خطر الصحبة الفاسدة في إضلال الخلق، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دله على الهدى، ودله على الخير، وقال له: **(يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللَّهِ)** ثم يقولان له: **(أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ؟)** فآثر ملة عبد المطلب بتأثير هذين عليه.

وأيضًا فيه من الفوائد: رحمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفقته بأبي طالب، ولهذا لما مات قال: **(لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ)** ثم إنه نهي عن الاستغفار له ونزل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113]، فدل هذا على انقطاع المودة بين المؤمن والمشرك ولو كان أقرب قريب، وأنه لا يجوز الاستغفار للمشرك والكافر ولو كان أبًا ، أو أمًا، أو أخًا، أو ولدًا، نسأل الله العافية والسلامة.

ويدل على ذلك أيضًا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استأذن الله جَلَّ وَعَلَا بالاستغفار لأمه، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنت أن أزورها فأذن لي»**، فكان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يزور قبر أمه، ولكن لم يكن يستغفر لها لأنها ماتت على الشرك، فهذا يدل على انقطاع المودة، وانقطاع المحبة بين المؤمن والمشرك.

ونسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينا وأن يحينا على ملته ويقبضنا على الإيمان به.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (19)

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ اَلْغُلُوُّ فِي اَلصَّالِحِينَ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب في (كتاب التوحيد) ليبين أن من وسائل نقض التوحيد الغلو في الصالحين، وأن حب الصالحين في الله والتقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بذلك هو من حقيقة التوحيد، فإن من مقتضى التوحيد أن توالى أهل التوحيد وتحبهم، وإن مما ينافي ذلك أن تغلو فيهم، فتخرج بذلك عن الحد الشرعي الذي حده الله عَزَّ وَجَلَّ، أو أن تقصر في فتوالي أعداء التوحيد وتعادي أهل التوحيد، فهذا الباب باب عظيم من أبواب (كتاب التوحيد) وباب عظيم من أبواب التوحيد التي ينبغي للمسلم أن يعرفها.

(المتن)

وَقَوْلِ اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: 171].

(الشرح)

فإن أهل الكتاب غلو في شيء من الدين، ومن ذلك غلوهم في الصالحين؛ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: 171]، يعني لا تتجاوزا الحد الشرعي الذي حده الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن النصارى غلوا في عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فجعلوا ثالث ثلاثة، وجعلوه ابنٌ لله تعالى عما يقولون، وكذلك اليهود غلوا في عزير، وهذه الآية دلت على تحريم الغلو في الأشخاص أو الأعمال ووجوب الاعتدال، والسير على النمط الوسط الذي سنه الله جَلَّ وَعَلَا كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143].

أيضًا فيها بيان ما كان عليه اليهود والنصارى من الغلو في الدين، وبيان أن هذا سبب لخروجهم من الدين، وفيه أيضًا حث على ما ينافي هذه الصفة المذمومة وذلك بالاعتدال وسلوك المسلك الوسط السالم من الإفراط والتفريط، وأيضًا هذه الآية فيها سدٌ لأبواب الشرك وذرائعه.

(المتن)

وَفِي اَلصَّحِيحِ: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]. قَالَ " هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى اَلشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ اَلَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ اَلْعِلْمُ عُبِدَتْ ".»

قَالَ اِبْنُ اَلْقَيِّمِ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ اَلسَّلَفِ: «لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ اَلْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

(الشرح)

هذا الأثر ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين ما كان عليه الأمم السابقة من سبب الخروج عن الشريعة، والوقوع في الشرك، وذلك بالغلو في الصالحين، وذلك بالغلو بود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهذه الأسماء كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيما نقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها أسماء رجال صالحين، فالذي حمل أولئك على الغلو فيهم هو حبهم محبة زادت عما شرعه الله جَلَّ وَعَلَا، وذلك أن حملتهم على فعل ما نهوا عنه وهو أن نصبوا لهم تماثيل في مجالسهم، وهذا يبين سبب من أسباب الشرك وهو التصوير، وذلك بنصب التصاوير وتعليقها، وتعظيمها كما في هذا الأثر.

ثم إن أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه أن الشيطان يسعى إلى إخراج المسلم من دينه، وفيه أيضًا شدة مكر الشيطان، وأنه يأتي للمسلم بحسب تمسكه بإيمانه، وبحسب علمه وفقهه، فيأخذه بحسب ذلك خطوة خطوة، ولهذا حذر الله جَلَّ وَعَلَا من اتباع خطوات الشيطان كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: 168].

كذلك فيه أن العلم من أعظم ما يكون سببًا لسلامة المسلم في دينه، فيسلم مما ينقض إسلامه وإيمانه وتوحيده، وأن الجهل من أعظم أسباب الخروج من الدين، وفيه أيضًا أن الشيطان أحب إليه الجهل من العلم، وأنه يسعى في إبعاد الناس عما فيه بصيرة لهم ومعرفة للحق من الباطل، وتمييز لطريق أهل السعادة من أهل الشقاوة.

كذلك هذا الأثر العظيم فيه تنبيه على خطر التساهل بمبادئ الشرك وإن كان الناس عندهم علم وفهم وفقه، والخير فيهم منتشر، فإن الناس يكونون في يومٍ أهل بصيرة وعلم، ثم ما يلبسون إلا وقد فشا فيهم الجهل بموت العلماء، وبظهور أهل الجهالة والأهواء كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيحين: «**إن الله لا يقبض العلم من قلوب العباد ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**».

فهذا أثر عظيم يبين خطر الشرك ويبن خطر التصوير وأنه من وسائل الشرك، ويبين أيضًا فضيلة العلم وخطر الجهل، ويبين خطر الشيطان وأنه يأتي لابن آدم خطوة خطوة حتى يخرجه من دينه.

(المتن)

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ اَلنَّصَارَى اِبْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اَللَّهِ وَرَسُولُهُ**» أَخْرَجَاهُ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى في بيان حال أهل الكتاب من النصارى وغلوهم في عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنهم رفعوه فوق منزلته البشرية، فجعلوها إلهًا، كذلك نهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته أن تكون على تلك الطريقة التي كان عليها النصارى بالإطراء وهو مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه، ومن ذلك وصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأوصاف لا تليق به مما هي من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كعلم الغيب وأحياء الموتى أو غير ذلك مما لا يليق إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال: (**فَقُولُوا عَبْدُ اَللَّهِ وَرَسُولُهُ**) فقوله: (**فَقُولُوا عَبْدُ اَللَّهِ**) ينزل بذلك المسلم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنزلته وهو عبد الله، فهو عبدٌ لا يُعبد، وقوله: (**وَرَسُولُهُ**) أيضًا ينزل المسلم بذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلته اللائقة به فلا ينقص عن ذلك، فهو رسولٌ لا يُكذب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اَلْغُلُوُّ**».

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**هَلَكَ اَلْمُتَنَطِّعُونَ - قَالَهَا ثَلَاثًا**».

(الشرح)

المتنطعون هم الذين غلو، فحذر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغلو، أنه سبب هلاك الأمم من قبل، وأن المتنطع يهلك من جانبين:

الجانب الأول: من جانب الضلال، فهو يخرج بذلك عن الصراط المستقيم، ومن جانب أيضًا العذاب والخسارة في الآخرة؛ لأن من ضل خسر ولم يهتد، وكان في الآخرة من الخاسرين، نسأل الله أن يثبتنا على دينه ويحيينا على ملته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (20)

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ؟!

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ مِنْ اَلتَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اَللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

(الشرح)

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى بعد أن ذكر الباب السابق وهو **(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ اَلْغُلُوُّ فِي اَلصَّالِحِينَ)** ذكر نوعًا من أنواع الغلو في الصالحين الذي يفضي إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا وهو تعظيم القبور بعبادة الله جَلَّ وَعَلَا عندها، وأغلظ من ذلك وأشد هو عبادة القبور، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الأحاديث التي تدل على هذا المعنى.

(المتن)

فِي اَلصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ: «**أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ اَلْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ اَلصُّوَرِ، فَقَالَ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ اَلرَّجُلُ اَلصَّالِحُ أَوْ اَلْعَبْدُ اَلصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ اَلصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ اَلْخَلْقِ عِنْدَ اَللَّهِ**» فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ اَلْفِتْنَتَيْنِ فِتْنَةَ اَلْقُبُورِ، وَفِتْنَةَ اَلتَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: «**لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اِغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ " لَعْنَةُ اَللَّهِ عَلَى اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ; أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا**» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اَللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ اَلنَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اَللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اَللَّهَ قَدْ اِتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اِتَّخَذَ**

إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَّا فَلَا تَتَّخِذُوا اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي اَلسِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: **«خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»** فَإِنَّ اَلصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ اَلصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اِتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«جُعِلَتْ لِيَ اَلْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»**، وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: **«إِنَّ مِنْ شِرَارِ اَلنَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَاَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ»** وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ.

(الشرح)

هذه الأحاديث ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى لتدل على معنى الترجمة، وذلك في التغليظ فيمن عظم القبور وعبد الله عندها بأن جعلها مسجدًا، وذلك على نوعين:

النوع الأول: أن يدفن القبر في المسجد.

النوع الثاني: أن يبنى المسجد على القبر.

ومن جنس ذلك أن يصلى عند القبور، ويدخل في ذلك أيضًا سائر العبادات عند القبور كالدعاء والذبح، فمن قصد القبور للذبح عندها لله أو الدعاء عندها لله، أو الصلاة عندها لله، كلّ ذلك داخل في هذا النهي؛ لأن هذا من وسائل الشرك، ولهذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن حال اليهود والنصارى وما وقعهم من الغلو في تعظيم أناس من الصالحين فبنوا على قبورهم مساجد، فجعلوا قبروهم مواضع للعبادة تعظيمًا لهؤلاء الصالحين، وهذا من الغلو الذي يفضي إلى الشرك.

وفي هذا دليل على أن اليهود والنصارى ومن نحى نحوهم ممن عبدوا القبور أن هؤلاء شرار الخلق عند الله، ومثل ذلك من اتخذ وسائل تفضي إلى الشرك بالله، كعبادة الله عند القبور، ولذلك مما ذكر العلماء أن الصلاة في المساجد التي فيها القبور لا تصح، ولولم يكن القبر في قبلة المسجد، فإذا كان القبر في سور المسجد فإنه لا يصح الصلاة في هذا المسجد؛ لأن هذا مما نهى عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الأحاديث.

كذلك دلت هذه الأحاديث على أن اتخاذ الصور والتماثيل تعظيمًا للصالحين من وسائل الشرك، ومما عليه اليهود والنصارى، أيضًا في هذه الأحاديث شفقة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

على أمته أن تتبع اليهود والنصارى في عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا، من تعظيم القبور وتعظيم الصالحين وبناء المساجد على القبور.

وفيها أيضًا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما بذله من غاية الجهد في بلاغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك وأكمل الله عَزَّ وَجَلَّ بدعوته الدين كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وما كان عليه من حال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم من تعظيم الإيمان والتقوى لا يلحقهم بعدهم أحدًا في إيمانهم وتقواهم وتوحيدهم وإخلاصهم لله إلا أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذرهم من اتخاذ قبره مسجد، فهذا يدل على الحرص على الدعوة في التوحيد، والتحذير من الشرك، ولو كان الناس على توحيد وإسلام وإيمان صحيح، فإن هذا من المسائل التي تؤكد ويدعى إليه وتكرر حتى ترسخ لعظيم أمرها وهو خطر الشرك.

وأيضًا هذه الأحاديث فيها أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم لم يكن من هديهم اتخاذ المساجد على القبور، ولهذا كما في هذه الرواية قال: **(خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا)** يعني قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي خشي من ذلك هم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، ولهذا دُفن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته، وفي بعض الروايات قال: «**ولكنه خشي**»، فدل هذا على أن الذي أمر أن يدفن في بيته هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ورد أيضًا في رواية أخرى عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينه ويحيينا على ملته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (21)

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ اَلْغُلُوَّ فِي قُبُورِ اَلصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اَللَّهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي اَلْمُوَطَّأِ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اَللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اِشْتَدَّ غَضَبُ اَللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

(الشرح)

هذا الباب ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين أن الحامل على اتخاذ القبور مساجد هو الغلو في الصالحين، وهو الغلو في قبور الصالحين، وذلك بعظيم محبتهم المحبة التي تفضي إلى الخروج عن الحد الشرعي الذي أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به، ولهذا يكون من أثر هذا الغلو أن تتخذ القبور مساجد فتكون هذه القبور أوثانًا تعبد من دون الله، والواقع شاهد، فإن كثيرًا من المساجد التي فيها القبور أو تلك القبور التي بني عليه المساجد، وبني عليها القباب، يُفعل عندها من أنواع الشرك بالله ما هو الكفر المبين أو من الوسائل إليه نسأل الله العافية والسلامة.

ولهذا حذر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك؛ فقال: **(اَللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ)** والوثن هو ما عبد من دون الله على غير صورة، فما كان على شكل صورة فهو الصنم، وما لم يكن على شكل صورة فهو الوثن كالحجر والشجر، أو ما كان معنى فهو وثن؛ لأنه يصرف عن عبادة الله جَلَّ وَعَلَا، لهذا قال: **(اَللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ)** وهذا دعاء منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خوفًا على أمته أن يتخذوا القبور محلاً للعبادة، فيخرجوا بذلك عن التوحيد.

قال: **(اِشْتَدَّ غَضَبُ اَللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)** وهم اليهود والنصارى كما تقدم.

(المتن)

وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم: 19]، قَالَ كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ اَلسَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو اَلْجَوْزَاءِ، عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ اَلسَّوِيقَ لِلْحَاجِّ».

(الشرح)

فهذا يدل على خطر الغلو في قبور الصالحين بتعظيمها أو باتخاذ ما يكون وسيلة إلى تعظيمها المفضي إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، فهؤلاء لما حبوا اللات وهو رجل كان يلت السويق ويكرم الحاج فعكفوا عند قبره، والعكوف هو لطلب البركة في هذا القبر، فكان فعلهم ذلك من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا وهذا بسبب الغلو في قبور الصالحين.

(المتن)

وَعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**لَعَنَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ اَلْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا اَلْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**» رَوَاهُ أَهْلُ اَلسُّنَنِ.

(الشرح)

هذا الحديث فيه بيان وسيلة من وسائل الشرك بالله وهي بناء المساجد على القبور وقد تقدم، ومن ذلك أيضًا التحذير من تعظيم القبور بإضاءتها ووضع السرج عليها، وذلك تعظيمًا لها، فإن هذا من وسائل الشرك، ومثل ذلك بناء القبور وتجصيصها، وزخرفتها، وتطييبها، ووضع السدنة خدام لها، وغير ذلك، فالقبر يكون على ماكان عليه من غير إحداث، فيرفع شبرًا عن الأرض، ولا يجصص، ولا يطيب، ولا يزخرف، ولا يزرع شجر، ولا يكتب عليه اسم، ولا غير ذلك مما أحدثه المحدثون مما هو من وسائل الشرك بالله، دل على هذا؛ هذا الحديث وغيره من الأحاديث، فدل هذا على خطر تعظيم القبور، وأن تعظيمها مما يفضي إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

هذا الحديث أيضًا حديث ابن عباس فيه نهي النساء عن زيارة القبور، وأن هذا من الكبائر، ولذا قال: (**لَعَنَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ اَلْقُبُورِ**) وفي لفظ: «**زائرات القبور**»، فبين أن النساء مما يحرم عليهن زيارة القبور، وذلك لأن المرأة جبلت على الضعف، فتحملها زيارة القبور وزيارة ذويها ممن مات على الجزع، ويحلها على لطم الخدود وشق الجيوب، وقد أيضًا يحمله على الافتتان بنفسها أو الافتتان بها من الرجال، ولذلك نهى الشرع عن زيارة النساء إلى القبور، وإنما المباح زيارة الرجال، وكانتا زيارة القبور ممنوعة في أول الإسلام كما قال رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إلا إني قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فازوروها فإنها تذكركم الآخرة**»، كان النهي عنها سدًا للذريعة، ثم أُبيح زيارتها للسلام على أهلها والدعاء لهم.

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينه ويحيينا على ملته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (22)

باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كلّ طريق يوصل إلى الشرك

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ ٱلْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَنَابَ ٱلتَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى ٱلشِّرْكِ

وَقَوْلِ ٱللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ﴾ [التوبة: 128].. ٱلْآيَةَ.

(الشرح)

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما بين الأبواب السابقة ذكر فيها التوحيد وما كان من حماية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجناب التوحيد، وسده الذرائع المفضية إلى الشرك؛ أراد أن يبين في هذا الباب حمايته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجناب التوحيد حماية خاصة، فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حمى جناب التوحيد حماية عامة بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وسد الذرائع المفضية إليه، بالنهي عن أسباب نقض التوحيد، وحمى جناب التوحيد وسد الذرائع المفضية إلى الشرك حماية خاصة بصفته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضًا بتحذيره من جعل قبره عيدًا ومن الغلو فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ونحو ذلك.

ولهذا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ﴾ [التوبة: 128]، قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128]، يعني من جنسكم ومن لغتكم أي من العرب، وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ﴾ [التوبة: 128]، أي شديد عليكم جدًا في حماية دينكم، وقيام إيمانكم على ما بلغه إياكم من ربكم، وقوله: ﴿مَاعَنِتُّمْ﴾ [التوبة: 128]، يعني ما يكون سببًا للمشقة عليكم والضرر، وأعظم الضرر وأعظم المشقة، وأعظم الشر هو الشرك، ولهذا دلت هذه الآية على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شدته في سد الذرائع المفضية إلى الشرك أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يخاف على أمته من الشرك، فيبلغ دين الله وأمر الله وينهى عما نقض شرع الله.

(المتن)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي، عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

(الشرح)

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا)** يعني لا تعطلوها من صلاة النافلة فتكون كحال القبور التي أهلها أموات، أو كحال القبور التي لا يذكر فيه الله جَلَّ وَعَلَا ولا تؤدى فيها الفريضة، ولذلك ورد في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**».

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**(وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي، عِيدًا)** يعني تعتادون مجيئه، وتقصدونه، ويكون قدومكم إلى مسجده بقصد زيارة قبره؛ لأن هذا مما يُنهى عنه بدلالة هذا الحديث، وإنما يزار قبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزيارة مسجده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصلاة فيه، ونيل الفضل العظيم بذلك، ثم يزار قبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسلم عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا يستقبل القبر بدعاء أو بصلاة أو بسكينة وخضوع وخشوع وإنما يكون ذلك باتجاه القبلة بالصلاة والدعاء وغير ذلك، وإنما قبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزار كما يزار غيره من قبور المسلمين، ويصلى عليه ويسلم على صاحبيه أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وهذا فيه سد الذريعة المفضية إلى الغلو به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن اعتياد زيارة قبره أو أن يجعل ذلك من الدين بألا يدخل المرء مسجده إلا أن يبادر بالسلام عليه، فإن لم يبادر بالسلام عليه فكأن صلاته قد نقصت، أو زيارته لمسجده قد نقص أجرها أو ثوبها، أو أن حجه وعمرته لن تتم؛ فإن هذا من المنهي عنه.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)** أيضًا هذا داخل في هذا المعنى، وهذا فيه سد الذريعة لمن يأت إلى قبره ويزعم أنه بهذا يصلي عليه قصدًا، فيقال: صل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كنت؛ فإنه صلاته تبلغه حيث كنتم، فهي معروضة عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ثبت عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قال: يقولون: بليت، قال: إن الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **حرم على الأرض أجساد الأنبياء**».

وهذا من أحوال الآخرة التي يعلم عنها الله جَلَّ وَعَلَا، فنحن نؤمن أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه تعرض عليه صلاتنا، ولكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حالٍ هو من حال البرزخ وهو من أحوال الآخرة.

(المتن)

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ اَلْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ وَقَالَ أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغنِي أَيْنَ كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي " اَلْمُخْتَارَةِ ".

(الشرح)

هذا الحديث في المعنى المتقدم، ودل على النهي عن السفر إلى قبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصدًا، وإنما يسافر لزيارة مسجده، ثم يزار قبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تشد الرحال إلى قبره كما لا يشد الرحال إلى قبر غيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما دل هذا الحديث والحديث الذي قبله على وجوب حسم مادة الشرك، وسد الذرائع الموصلة إليه، وهذا من كمال التشريع ومن حرص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته وخوفه عليها، فدل هذا الباب على حماية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجناب التوحيد، وسده الطرق المفضية إلى الشرك.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (23)

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدون الأوثان

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ يَعْبُدُ اَلْأَوْثَانَ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب ليحذر من الشرك وأن المسلم إذا أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليه بنعمة التوحيد فإنه لا يأمن على نفسه من الزيغ، فعليه أن يسد الأبواب والذرائع المفضية إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، وأيضًا للرد على عباد القبور الذين يقولون: إن الشرك لا يقع في أمة الإسلام لأنهم يقولون: لا إله إلا الله.

قوله رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ يَعْبُدُ اَلْأَوْثَانَ)** الأوثان جمع وثن، والوثن هو: ما يقصد به عبادة لغير الله جَلَّ وَعَلَا من القبور والمشاهد وغيرها، وهو ما لم يجعل على صورة إنسان أو حيوان، كالشجر والحجر والقبر، ثم ذكر الأدلة على ذلك.

(المتن)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذه الآية ليبين أن الأمم السابقة وقع فيهم عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا مع كونهم أهل كتاب، ولذلك قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 51]، وهو الشرك، وذلك أن ناسًا من مشركي العرب جاؤوا إلى اليهود فقالوا: هل نحن خيرٌ أم محمد؟ فقالوا: بل أنتم خير فآمنوا بالشرك.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [النساء: 51]، يعني ألم تعلم وتنظر، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا﴾ [النساء: 51]، يعني عندهم علم من الكتاب ويعرفون الحق، ويعرفون التوحيد، ويعرفون الشرك، ومع ذلك كفروا بالحق وآمنوا بالباطل، وهذا معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 51]، الجبت هو كلّ كفرٍ وشرك من عبادة الصنم، ومنه الكاهن والساحر، والطاغوت كلّ ما جاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع من الشطان، ومن دعا إلى عبادة نفسه أو دعا إلى عبادة غير الله أو رضيه، وغير ذلك.

فهذه الآية دلت على أن هذه الأمة سيقع فيها مثلما وقع في الأمم السابقة من عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعموم ما ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأحاديث الدالة على أن في أمته من يتبع سنن من كان قبل من اليهود والنصارى، ومن ذلك الإيمان بالجبت والطاغوت، فدلت هذه الآية على وجوب الحذر من عبادة غير الله، والذرائع المفضية لذلك، ووجوب التحذير من الشرك وأسبابه.

(المتن)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: 60].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذه الآية ليبين أنه إذا كان في أهل الكتاب من عبد الطاغوت من دون الله، فكذلك يكون في أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدلت هذه الآية على وقوع الشرك في الأمة كما وقع في اليهود والنصارى من عبد الطاغوت، ودلت أيضًا هذه الآية على أن أشر الناس وأخبثهم وأخزاهم عند الله جَلَّ وَعَلَا يوم القيامة هم المتصفون بهذه الصفات، وهي عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾ [المائدة: 60]، وهم اليهود جعل منهم القردة وذلك كما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: 65]، والخنازير؛ قيل: هم كفار المائدة التي أنزلها الله جَلَّ وَعَلَا على عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمسخهم الله خنازير، وقيل: من أصحاب السبب من كان منهم قردة ومن كان منهم خنازير والله أعلم، فهذه الآية فيها التحذير من عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا ووجوب الأمر بالكفر بالطاغوت.

(المتن)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: 21].

(الشرح)

هذه الآية في سورة الكهف في خبر الفتية الذين آمنوا بربهم، ثم لما كان من أمرهم ما كان، كان من حال أئمتهم وسادتهم الذين ليسوا على دين التوحيد، وليسوا على إيمانٍ صحيح أن زعموا أن من بركتهم أن يتخذ على موضعهم مسجدًا، وهذا فعل أهل .. وليس فعل أهل الإيمان فيحتج به، ولهذا قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ [الكهف: 21]، فهم ليسوا على أمرهم في الحق، وإنما على أمرهم في أمر الدنيا، غلبوا عليهم ولم يكونوا منهم في دينهم.

قوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: 21]، يعني يتبركون في ذلك الموضع، فدلت هذه الآية على أن هذه الأمة يكون فيها مثلما كان في الأمم السابقة من اتخاذ المساجد على القبور، واتخاذ المواضع التي يتبركون فيها، فيكون من شأن ذلك الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

وهذه الآية دلت على التحذير من اتخاذ المساجد على القبور أو اتخاذ المواضع للبركة؛ لأن الله ذكر هذا على حال ذمٍ لفعلهم، لهذا قال: ﴿غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ [الكهف: 21]، دل هذا على النهي عن اتخاذ المساجد قبورًا أو الدفن فيها أو التبرك بالمواضع والبقع ونحو ذلك، ودل أيضًا على أن اتخاذ القبور مساجد من وسائل الشرك المفضية إلى الخروج من الدين، ومن الغلو في الصالحين.

(المتن)

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: " فَمَنْ؟ "» أَخْرَجَاهُ.

(الشرح)

قوله: **(لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ)** أي طريق، وقيل: سنن يعني هدي، **(مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)** هم اليهود والنصارى، وغيرهم من الأمم، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ)** فالقذة بضم القاف واحدة القزز وهي ريشة السهم، وله قذتان متساويتان، فهما متحاذيتان لا تختلف الثانية عن الأولى.

وقوله: **(حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)** هذا على سبيل المثال، فإنهم لو دخلوا جحر ضب لقلدتموهم فيما فعلوا، وهذا كناية عن المبالغة الشديدة في تقليد اليهود والنصارى، فيما يذم التقليد والاتباع لهديهم وسننهم، فهذا الحديث دل على أن في أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

من يتبع سنن من كان قبلهم، المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر هذا الحديث بعد ذكر الآيات التي تبين سنن الأمم من قبل، لبين أن هذا يقع في أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففيه التحذير من اتباع هدي الأمم السابقة فيما خالفوا فيه دين المرسلين.

وأيضًا هذا الحديث فيه علم من أعلام النبوة، وذلك أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بهذا الحديث من عند ربه وقد وقع كما أخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(المتن)

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اَللَّهَ زَوَى لِيَ اَلْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ اَلْكَنْزَيْنِ اَلْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي " صَحِيحِهِ"، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اَلْأَئِمَّةَ اَلْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ اَلسَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ اَلسَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي اَلْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ اَلنَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى اَلْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأتِيَ أَمْرُ اَللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

(الشرح)

هذا الحديث حديث جليل، فيه إخبار من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يقع بين يدي الساعة من حال أمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والشاهد من هذه الحديث: أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **(وَلَا تَقُومُ اَلسَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي اَلْأَوْثَانَ)** فهذا فيه بيان أن طائفة من أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمة الدعوة تعبد الأوثان، فيه التحذير من الشرك، والتحذير من الوسائل المفضية إليه، وفيه وجوب التحذير من الشرك، وفيه وجوب الدعوة إلى التوحيد وبيانه، وفيه أيضًا كمال شفقة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورحمته بأمته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه حذر أمته ما يضرها، وما هو أخاف ما يخاف عليها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينه ويحينا على ملته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (24)

باب ما جاء في السحر

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي اَلسِّحْرِ

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب من أبواب (الكتاب التوحيد) ذلك أن السحر من نواقض الإسلام، لأن السحر لا يكون إلا بالشرك والكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والسحر في اللغة: ما خفي ولطف سببه، وفي الشرع: هو عزائم ورقى وأدوية وتدخينات وعقد ونفث لتمرض الأبدان وتقتلها وتفرق بين المرء وزوجه، ويكون بالاستعانة بالشياطين والتقرب إليهم مما يفضي إلى الخروج من الإسلام ونقض الإيمان، ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الآيات والأحاديث الداخلة ضمن هذا الباب.

(المتن)

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: 102].

(الشرح)

هذه الآية من سورة البقرة في اليهود؛ الذين استبدلوا كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وما جاءت به الرسل بالسحر، مع علمهم أنه باطل، وأنه ينافي دين المرسلين، وقوله: ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ [البقرة: 102]، يعني من أخذ به، ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: 102]، يعني ما له من نصيب، فدلت على أن الساحر يبطل عمله ويكون في الآخرة من الخاسرين.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 51].

(الشرح)

لما ذكر معنى الجبت والطاغوت قال.

(المتن)

قَالَ عُمَرُ "اَلْجِبْتُ اَلسِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ اَلشَّيْطَانُ".

وَقَالَ جَابِرٌ "اَلطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ اَلشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ".

(الشرح)

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 51]، هذه أيضًا من صفات اليهود أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، والجبت هو الباطل وهي كلمة تقع على الصنم والسحر والكهانة، وغير ذلك، وذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لبيان أن السحر مما ينافي الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا، وقوله: ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 51]، الطواغيت جمع طاغوت، والطاغوت هو كلّ ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، وذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى في الأثر عن جابر؛ قال: **(كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ اَلشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ)** وهذا يبين معنى كون السحر ومنه الكهانة مما ينافي أصل التوحيد.

والطاغوت هو من الطغيان وهو مجاوزة الحد كما تقدم، وأيضًا دل هذا على أن الساحر والكاهن يستعين بشياطين، ويتقرب إليهم مما يفضي إلى خروجهم من الإسلام ونقضه للإيمان، فدلت هذه الأدلة على تحريم السحر وعلى أن الساحر كافر وعلى أن السحر مما ينافي أصل التوحيد.

(المتن)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«اِجْتَنِبُوا اَلسَّبْعَ اَلْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اَللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ اَلشِّرْكُ بِاَللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ اَلنَّفْسِ اَلَّتِي حَرَّمَ اَللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ اَلرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اَلْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ اَلزَّحْفِ، وَقَذْفُ اَلْمُحْصَنَاتِ اَلْغَافِلَاتِ اَلْمُؤْمِنَاتِ»**.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ لبين أن السحر مما يوبق العمل ويجعل صاحبه من الخاسرين، وهذه السبعة التي ذكرها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث منها ما ينافي

أصل التوحيد، ومنها ما ينافي كماله، منها ما يخرج من الإسلام والإيمان ومنها ينقص الإيمان، سميت موبقات لأنها مهلكات، والشاهد من هذا الحديث قوله: **(وَالسِّحْرُ)** فدل على أن السحر مما ينافي أصل التوحيد، وينقض الإيمان ويخرج من الإسلام.

(المتن)

وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «**حَدُّ اَلسَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**» رَوَاهُ الترمذي وَقَالَ "اَلصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ".

(الشرح)

قوله: **(مَرْفُوعًا)** يعني يرفعه إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوله: **(مَوْقُوفٌ)** الموقوف هو الأثر الذي يثبت عن الصحابي دون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو من كلام الصحابي لا من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوله: **(حَدُّ اَلسَّاحِرِ)** الحد هو ما بينه الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه أو بينه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حكم معصية من المعاصي، بقطع أو قتل، فالقاتل يقتل حدًا، والسارق الذي تثبت في حقه السرقة يوجب ذلك قطع يده، فهذه هي الحدود، والحدود هي الثابتة في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال جمع من العلماء: إن هذا الحديث له حكم الرفع، وقوله: **(حَدُّ اَلسَّاحِرِ)** يعني عقوبته، وقوله: **(ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ)** يعني يقتله، هذا الأثر دل على أن السحر معصية عظيمة وكبيرة عظيمة من الكبائر التي توجب القتل، دل أيضًا على أن قتله لأنه مفسد فسادًا عريضًا.

(المتن)

وَفِي "صَحِيحِ اَلْبُخَارِيِّ" عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ "كَتَبَ عُمَرُ بْنُ اَلْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ اُقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ" قَالَ فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ". وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا "أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ" وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ. قَالَ أَحْمَدُ عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(الشرح)

فقتل الساحر حدًا ثبت عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم عمر وحفصة وجندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، فدل هذا على حد الساحر وهو القتل، ويدل على عظم جريمة السحر وأنها من أعظم الذنوب والكبار التي توبق العمل، وتخرج صاحبها من الإسلام.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (25)

باب بيان شيء من أنواع السحر

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ: **«أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ»**.

قَالَ عَوْفٌ الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ، وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ رَنَّةُ الشَّيْطَانِ إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي "صَحِيحِهِ" لَهُمُ الْمُسْنَدُ مِنْهُ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لبيان أنواع مما هو داخل في السحر الذي يخرج من الإسلام والإيمان، أو ما هو من جملة السحر مما يكون منه بالمعنى العام؛ وإن لم يكن منه في حقيقته التي تنافي أصل التوحيد، ولهذا ذكر رَحِمَهُ اللهُ في الأحاديث المتقدمة والآثار نوعًا من أنواع السحر التي خرج من الإسلام، ولهذا قال: **(إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ)** والجبت تقدم معنا ذلك، وأن الجبت هو الباطل ويكون منه الأصنام، ويكون منه السحر، ومنه أيضًا الكهانة، وكلّ باطل جبت، ومنه ما يخرج من الإسلام ومنه ما دون ذلك، ومن ذلك العيافة والطرق والطيرة.

ذكر رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث ليبين أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت الذي هو السحر المنافي لأصل التوحيد، والعيافة والطرق إنما يراد به ادعاء علم الغيب بواسطة الشياطين، فهو يدعي علم المغيبات من خيرٍ أو شر، وهذا من أعمال السحرة، وكذلك الطرق حيث أنه يخط الأرض ويضع بها خطوطًا ويسمى الرمال، فهو يدعي بذلك علم الغيب، ومن ذلك الطيرة، والطيرة قد تكون من باب التشاؤم فيحمل الرجل وجود طير يتشاءم به إلى ترك فعل، أو إلى فعل ما عزم

على تركه فهذا كله من الطيرة، قد يحمله ذلك على أن يدعي بقدوم طير، أن يدعي علم مغيب من خير أو شر، فهذا كله من أعمال السحرة.

فدل هذا على أن من أعمال السحرة ادعاء علم الغيب، وأن هذا مما ينافي أصل التوحيد، ودل أيضًا على أن الطيرة قد تكون تنافي أصل التوحيد أو قد تكون تنافي كماله، وكلك دل على أن العيافة والطرق أنها من أعمال السحرة، ومن أعمال الكهان؛ بادعائهم علم الغيب الذي يتنافى مع أصل الإيمان، ويخرج من الإسلام.

في قول الحسن رَحِمَهُ اللهُ: الجبت **(رَنَّةُ الشَّيْطَانِ)** هذا فيه أيضًا بيان لحقيقة العيافة والطرق وأنها استعانة بالشيطان، فيرن الشيطان بصوته للساحر فيسمعه ما هو مما يكون من ادعاء علم المغيبات، وهذا مما ينافي أصل التوحيد، وقد قال بعض العلماء: إن رنة الشيطان صوته، ومن ذلك المعازف والأغاني والمزامير التي تنافي كمال الإيمان.

(المتن)

«وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(الشرح)

ذكر هذا الحديث ليبين أن التنجيم نوعٌ من أنواع السحر المنافي لأصل التوحيد، قوله: **(مَنِ اقْتَبَسَ)** يعني من تعلم، وقوله: **(شُعْبَةً)** يعني طائفة، وقوله: **(مِنَ السِّحْرِ)** يعني ما كان من علم المغيبات بواسطة النجوم فهو من السحر، وهذا الحديث دل على النهي عن التنجيم وهو معرفة المغيبات وما يكون من الخير والشر بواسطة النجوم، ويسميه بعض الناس الأبراج، ويستدل بتلك الأبراج على حال الشخص وما يكون عليه أمره من المصائب أو الخير ويستدل على ميلاد الشخص في برج من الأبراج بأنه مشئوم أو أنه على خير أو أنه سيكون فقيرًا أو غنيًا أو شقيًا أو سعيدًا، فكل هذا من الكفر بالله؛ لأن هذا من ادعاء المغيبات التي لا يعلمها إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا من أعمال السحرة، فدل على تحريم التنجيم، ومعرفة المغيبات بواسطة الأبراج، بواسطة النجوم، فهذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فدل على أن التنجيم من أعمال السحرة التي تنافي أصل التوحيد نسأل الله العافية والسلامة.

(المتن)

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَة: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَن سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ».

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الحديث ليبين نوع من أنواع السحر وهو العقد، وهي التي تسمى العزائم، وهي الخيوط التي تعقد وينفث فيها ما ينفث من قولٍ أو امن استغاثة بالشياطين أو من تحضير للجن ليقوموا بضرر بعبدٍ من عباد الله بمرضه أو قلته أو التفريق بينه وبين زوجه، وهذه التي وردت في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ 1 مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ 2 وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ 3 وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ 4 وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: 1 - 5]، والنفاثات هن السواحر، فدل هذا على أن النفث في العقد وفي الخيوط أن هذا من أعمال السحرة.

قوله: (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً) يعني على شكل ما يفعله السحرة، وقوله: (ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا) يعني نفخ مع ريقه، قوله:(فَقَدْ سَحَرَ) يعني فعل السحر الذي ينافي التوحيد، قوله: (وَمَن سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ) يعني من فعل هذا الفعل فإنه قد وقع في الشرك، قوله: (وَمَن سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ) لأن السحر شرك؛ لأنه ينافي أصل التوحيد، ولا يكون إلا بالاستعانة بالشياطين، والاستعانة بالجن بما يحدث بذلك نقض الإسلام وانتفاء الإيمان، فدل هذا على أن النفث في العقد إنما هو من أعمال السحرة.

وقوله: (وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ) يعني من تعلق على السحرة، وتعلق على أعمالهم بالصرف والعطف، وجلب المحبوبات ودفع المكروهات لم يكن أمره إلا خبالًا ووبالًا؛ لأن الله يكله إلى ما سواه من المخلوقين؛ الذين لا ينفعون ولا يضرون، وإنما يكون حاله حال من خسر دنياه وخسر آخرته نسأل الله العافية والسلامة.

دل هذا على أن السحر شرك يخرج من الإسلام، ودل على أن السحر لا يكون إلا بالاستعانة بالشياطين، ودل على أن من توكل على غير الله فقد خذله الله.

(المتن)

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى في هذين الحديثين نوع من أنواع السحر العام وهو ما ينافي كمال الإيمان مما هو نظير السحر في حدوث الضرر، بالتفريق بين الناس، وإلقاء العداوة بينهم، أو ما يكون من أثره تغطية العقل وإظهار الباطل بصورة الحق، قوله: **(أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ)** يعني أخبركم، وقوله: **(مَا الْعَضْهُ؟)** بفتح العين وسكون الضاد هي الكذب، فإن الكذب بين الناس يحدث أثر السحر في حدوث الضغينة والعداوة بينهم، ولهذا قال: **(هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ)** والنميمة هل نقل الكلام على وجه الإفساد.

وقوله: **(الْقَالَةُ)** لأنها من القول، فهي نشرٌ للقول، و إحداث للخصومة بين الناس وإحداث للفتن بينهم، فهذا الحديث فيه بيان نوع من أنواع القول أو الفعل الذي يدل على عظيم أثره ما هو نظير أثر السحر في إحداث الضغينة والخصومة والتفريق بين الناس، وهذا من المحرمات العظيمة، ومن الكبائر التي توبق صاحبها كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث **«لا يدخل الجنة نمام»**.

وحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **(إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا)** والبيان هو البلاغة، والفصاحة، وحسن القول، قوله: **(لَسِحْرًا)** يعني يحدث أثر السحر من الإيمان بالباطل والكفر بالحق؛ لأنه يقلب صورة الشيء حتى يتهيأ لمن سمعه أنه حق أو أنه باطل بحسب ما يظهره صاحب البيان، كما قيل:

تقــول هــذا جنى النحــل تمدحــه وإن شـــئت قلـــت ذا قـــيء الزنـــابير

فهذا الحديث في بيان نوع من أنواع السحر العام الذي له أثر السحر في تغيير الحقائق والتمويه على السامع مما يحدث بذلك تغيير الحق وإظهاره بصورة الباطل، وتغيير الباطل وإظهاره بصورة الحق، وهذا مما يذم صاحبه ويأثم به، نسأل الله العافي والسلامة.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (26)

باب ما جاء في الكيان ونحوهم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

(الشرح)

لما ذكر السحر وحكمه وما جاء فيه ذكر أنواعه، ذكر رَحِمَهُ اللهُ ما جاء في الكهان، والكهان جمع كاهن وهو الذي يخبر عن مغيبات في المستقبل اعتمادًا على الشياطين وأخبارهم، وهم نوعٌ من أنواع السحرة، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الأحاديث الدارجة ضمن هذا الباب.

(المتن)

رَوَى مُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ" عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ -وَقَالَ "صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا" -: «**عَنْ "أَبِي هُرَيْرَةَ" مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**». وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.

«**وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**» رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى.» إِلَى آخِرِهِ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ "الْعَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ".

وَقِيلَ هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَقِيلَ الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ: «**وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ «أَبَا جَادٍ»** وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ "مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَاقٍ"».

(الشرح)

هذه الأحاديث دلت على المعنى الذي يشمله اسم الكاهن، وهو العراف، والرمال، والمنجم الذي يدعي معرفة المغيبات بطريق النجوم أو بطريق الخط على الرمل، أو بطريق كتابة الأحرف المقطعة فيدعي بذلك معرفة ما في الضمير، أو معرفة ما يكون في المستقبل من خير أو شر، فيستعين بذلك بالشياطين لمعرفة تلك المغيبات، فهؤلاء هم الكهان الذين ذكرهم رَحِمَهُم اللهُ في هذا الباب.

ودلت هذه الأحاديث على حرمة إتيان الكهان، ودلت على أن إتيان الكهان على نوعين:

النوع الأول: إتيانهم لسؤالهم مع عدم تصديقهم، ولكن يأتيهم فيسألهم ويتسمع كلامهم وينظر في قولهم؛ فإن هذا محرم، ومن فعله فقد فعل كبيرة من الكبائر العظيمة، فإذا صدقه فقد كذب بالقرآن الذي أخبر الله جَلَّ وَعَلَا فيه بقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65].

فدلت هذه الأحاديث على هذا النوع وهو من يأتي فيصدقه؛ فإنه لا يقبل منه صلاة أربعين يومًا، وهذا معنى قوله:**(مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)** وهذا يدل عليه أيضًا معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عمران: **(لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ)** هذا فيه الوعيد، **(لَيْسَ مِنَّا)** يعني ليس على الإسلام، ولهذا فسرها بقوله: **(فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)** ومن أتاهم فلم يصدقهم فإنه من أهل الوعيد؛ لأنه قد أتى السحرة وأتى الكهنة الذين يجب عليه أن يكفر بهم، ويحذر منهم، وأن يجتنب مجالستهم، وأن يحذر من الإصغاء إليهم.

دلت هذه الأحاديث على النهي عن إتيان الكهان والعرافين والمنجمين وغيرهم، وتحريم الذهاب إليهم، وتحريم سؤالهم، وتحريم مجالستهم، وتحريم تصديقهم، دل على أن من صدقهم فقد كفر، نسأل الله العافية والسلامة، ودل هذا أيضًا على وجوب التحذير من الكهان والعرافين والمنجمين وغيرهم، فوجب التحذير منهم، والدلالة عليهم، وتبليغ ولاة الأمر عن أماكنهم حتى يكون في ذلك محاربة للشرك، وأسباب نقض التوحيد، ودل أيضًا على أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ودل على أن من ادعى علم الغيب فقد كفر؛ لأن هذا ينافي التوحيد، ومما دل عليه أيضًا أنت التنجيم معرفة المغيبات من طريق النجوم أو بطريق الخط بالرمل كلّ هذا من الكهانة ومن الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

(الشرح)

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب بعد ذكره لحكم السحر وما جاء في أنواعه، وذكر الكهانة، وما ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى في حكم الكهانة، وإتيان الكهان ذكر النشرة؛ لأن النشرة تكون من أعمال الشياطين، والنشرة نوع من العلاج، يكون بسحر فيفك السحر بسحر مثله، ويكون بالرقى، وبالأدعية والأذكار والآيات الواردة أو المشروعة،والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى ذكر النشرة وأطلق؛ قال: **(بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ)** لأن فيها تفصيل، ثم ذكر الأحاديث الدارجة عن هذا الباب.

(المتن)

عَنْ جَابِرٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَقَالَ "سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ".

(الشرح)

هذا الحديث فيه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن النشرة التي كان أهل الجاهلية يعملها، فإن أهل الجاهلية كانوا يعملون النشرة، ولهذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **(هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)** وذلك أنهم كانوا يرفعون السحر بسحر مثله، وهذا هو النوع الأول من أنواع النشرة وهو محرم، ولا يرفع السحر بالسحر إلا ساحر، ولهذا ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى في (كتاب التوحيد) بأن النشرة على هذا الوجه مما ينقض التوحيد ويخرج من الإسلام؛ لأنها من أنواع السحر، والواجب على المسلم حينما يتداوى ألا يتداوى بمحرم، وإنما يتداوى بالمباح، أو

بما ورد بالشرع الإذن به، أو بيان أنه من أنواع العلاجات والأدوية كالعسل والحجامة والكي وإن كان ورد النهي عنه للكراهة، ولكن لا يتداوى بمحرم كما ورد في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**تداووا عباد الله ولا تتداووا بمحرم**».

ومن أنواع الأدوية المحرمة النشرة وهي فك السحر بسحر مثله، ومن أنواع الأدوية المحرمة الخمر، كأن يزعم الطبيب أن شفاء مريض من مرضه إنما يكون بشربه الخمر، ومثل ذلك ما يزعمه بعض الأطباء من أن شفاء مريض من مرضه وألمه في روحه إنما يكون بالموسيقى ونحو ذلك، فيقال: لم يجعل الله جَلَّ وَعَلَا شفاء أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما حرم عليها، كما ورد ذلك في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فدل حديث الباب على النهي عن النشرة التي كان عليها أهل الجاهلية وأنها من عمل الشيطان وهي نوع من أنواع السحر.

كما دل هذا الحديث على أن العلم يؤخذ بالسؤال، ولذلك سأل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وهذا كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

(المتن)

وَفِي "الْبُخَارِيِّ" عَنْ قَتَادَةَ قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيِّبِ رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ لَا بَأسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ.

(الشرح)

هذا الأثر عن ابن المسيب فيه أن من مُنع عن امرأته فكان قد ربط عنها فإنه لا يأتيها بفعل سحر ولهذا قال: **(أَوْ يُؤْخَذُ)** يعني يحال بينه وبين امرأته، ويحبس عنها، فلا يستطيع جماعها بسبب السحر، فإنه يباح له أن يتداوى، ودواؤه بالرقية، بالقرآن، بالأذكار، والأدعية الواردة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو فيما ليس فيه حرام، وهذا معنى قوله: **(أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ لَا بَأسَ بِهِ)** وهذا فيه بيان مشروعية الرقية، وهذا النوع الثاني من أنواع النشرة، وهو حل السحر بالأوراد والأذكار الواردة الثابتة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو فيما لا بأس به من الأدعية؛ فإن حل السحر بهذا النوع من أنواع العلاج مما هو مشروع، ومما لا بأس به، وهذا معنى قول ابن المسيب رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

(المتن)

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ لَا يَحِلُّ السِّحَرَ إِلَّا سَاحِرٌ.

(الشرح)

يعني لا يحل السحر بالاستعانة بالشياطين إلا ساحر، وهذا معنى كون النشرة سحرٌ.

(المتن)

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحَرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ أَحَدُهُمَا حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشَرُ إِلَى الشَّيْطَانِ، بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَالثَّانِي النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ.

(الشرح)

قول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فيه بيان أقسام النشرة، وفيه بيان أن حل السحر بالأدعية والأوراد أن هذا جائز وأن هذا من التداوي، وفيه بيان أن حل السحر بسحر مثله بالاستعانة بالشياطين أن هذا من عمل السحرة، ومن عمل أهل الجاهلية الذي ورد التنبيه عنه والتحذير منه.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (28)

باب ما جاء في التطير

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب؛ لأن الطيرة من أنواع الشرك الذي يتنافى مع التوحيد، مع كماله أو مع أصله بحسبه كما سيأتي، والطيرة من أعمال أهل الجاهلية، وهي نوعٌ من أنواع التشاؤم، ونوع من أنواع الشؤم الذي يحمل صاحبه على ترك ما عزم على فعله، وهذا كله من تعليق الأسباب بغير مسببها، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الأدلة على ما أراد بيانه من أحكام الطيرة.

(المتن)

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 131]. وَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: 19].

(الشرح)

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر هذه الآية وهي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 131]، وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: 19]، أراد رَحِمَهُ اللهُ تعالى بهذه الآيات بيان أن التطير من أعمال الجاهلية، ومن أعمال المشركين، وأراد بذلك أن الله جَلَّ وَعَلَا ذم فعلهم، وأراد أيضًا بيان أن الأسباب كلها من عند الله، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المسبب، وهو المقدر للأشياء، لا مكره له، ولا غالب لأمره كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: 38].

قوله سبحانه: ﴿أَلَا﴾ [الأعراف: 131]، (ألا) أداة تنبيه، وقوله سبحانه: ﴿طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 131]، يعني ما قدره الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا فيه رد الطيرة، وبيان أن فعلهم مما يقعون فيه من التطير إنما هو فعل من لا يؤمن بالله جَلَّ وَعَلَا.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: 19]، هذه الآية قوله: ﴿طَائِرُكُمْ﴾ [يس: 19]، يعني حظكم ومنالكم من الشر الذي حدث لكم، قوله: ﴿مَعَكُمْ﴾ [يس: 19]، يعني بسبب أفعالكم، وبسبب ذنوبكم، وبسبب مخالفتكم أمر الله جَلَّ وَعَلَا، عقوبة لكم جزاءً وفاقًا، فهذه الآيات دلت على أن الأمر كله لله، ودلت على أنه لا يجوز للعبد أن يتطير؛ لأن هذا من عمل أهل الجاهلية، ودلت أيضًا على أن القضاء والقدر من أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما يصيب العبد من المصائب إلا بأمر الله، وما يصيبه من الخير إلا بقضاء الله.

دلت أيضًا على أن المصائب وما يقع على العبد من الشؤم الذي يناله إنما هو بسبب فعله بتركه ما أوجب الله عليه، أو فعل ما حذره منه، أو تركه السبب المشروع، أو فعله ما يضره، فهذا إنما هو من فعله، وكلّ أمرٍ بأمر الله جَلَّ وَعَلَا من الخير والشر، أيضًا دلت هذه الآيات على أن معرفة الشرك ووسائله والذرائع المفضية له من شأنها مع الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحماية من الوقوع به، ففيه ذم الجهل، والحض على العلم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 131].

وقد يكون ذلك ليس فيه ذم والعلم الذي ينفع هو العلم المقترن بالإيمان؛ الذي يحمل على الإيمان بالله وتصديق الرسل والانقياد لأمر الله جَلَّ وَعَلَا مما أرسل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به رسله.

وأيضًا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: 19]، هذه فيها وجوب النصح، وفيها أيضًا وجوب قبول النصيحة، وفيها أيضًا أن عدم قبول النصيحة من فعل الكفار كما في سياق الآية، ثم المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر جملة من الأحاديث.

(المتن)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ**» أَخْرَجَاهُ.

زَادَ مُسْلِمٌ: «**وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ**».

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**"لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ" قَالُوا وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ "الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ"**».

وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "أَحْسَنُهَا الْفَالُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ لَا يَاتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ"».

(الشرح)

هذه الأحاديث دلت على أن الطيرة وهي التشاؤم بالطيور والأسماء أو الألوان أو البقاء أو نحو ذلك مما هو من عمل الجاهلية؛ دلت على أن هذا شرك، ودلت على أن من تطير فإنما الطيرة عائدة عليه بالشر؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو مقدر الأمور، والقاضي بها.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا عَدْوَى) العدوى اسم مشتق من الاعتداء، والمنفي هنا في هذا الحديث هو ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن العلة من مرض ونحوه تسري بطبعها لا بقدر الله، ولكن المؤمن يجتنب ما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ من وقوع العدوى بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له ببذل الأسباب باجتناب أسباب المرض، فهو يفر من قضاء إلى قضاء الله، أما المنفي في هذا الحديث وهو قوله: (لَا عَدْوَى) فإنما المراد بذلك ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن العدوى تؤثر بطبعها لا بقدر الله.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَلَا هَامَةَ) كان أهل الجاهلية يتشاءمون بطير البوم، وهو التي تسمى الهامة، فكانوا يتشاءمون بها، فإذا عزم أحدهم على سفر فرأى بومة في طريقه ترك سفره تشاؤمًا، وهذا من أنواع الطيرة ومن أنواع الشرك.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَلَا صَفَرَ) هذا أيضًا مما كان فعله أهل الجاهلية؛ أنهم يتشاءمون بشهر صفر، فكانوا يتركون السفر فيه، أو عقد الأنكحة فيه، وقال بعض أهل العلم: الصفر هو دودة تكون في البطن، تصيب الناس، وتصيب الماشية، ويزعمون أنها أشد من الجرب، وأنها تعدي بذاتها، فدل هذا الحديث على النهي عن التطهير والتشاؤم، ودل على وجوب التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا في دفع المكروه وجلب المحبوب، ودل أيضًا على أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المقدر للأمور القاضي بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقدس، ودل أيضًا على وجوب بذل الأسباب مع التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (زَادَ مُسْلِمٌ: وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ) النوء سيأتي بإذن الله ذكره، قوله: (وَلَا غُولَ) هو من الجن والشياطين، كان أهل الجاهلية يزعمون أن الغول تضل الرجل عن الطريق، وتأخذه بناحيتها حتى يهلك، فجاء هذا الحديث بإبطال هذا الاعتقاد وأن الواجب على المسلم أنه إذا استوحش في طريق فتغولت له الغيلان والشياطين فأحدثت في قلبه نوعًا من الوحشة أن يذكر الله جَلَّ وَعَلَا كما ورد في النصوص الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

ومن ذلك ما ثبت في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في مسند الإمام أحمد أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا توغلت لكم الغيلان فبادروا بالأذان**»، فهذا مما يُرد به كيد الشياطين وهو من عموم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدل هذا الحديث على إبطال ما كانت تعتقده أهل الجاهلية من الطيرة، ومن العدوى بالأمراض وأنها تعدي بطبيعتها أو بذاتها، وبطلان التشاؤم بالهامة وهي البومة أو بصفر وهي الدابة التي تكون في البطن، أو بشهر صفر.

وأيضًا دل على بطلان الاعتقاد بالنجوم وتأثيرها، وأنها سبب في الخير أو الشر أو الصحة والمرض ونحو ذلك، دل أيضًا على بطلان اعتقاد الغيلان وهي الشياطين وما يجب على المسلم من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لطردها، ودل أيضًا على وجوب التوكل على الله وأن الأمر كله لله وبيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأيضًا دل على سد الذرائع المفضية للشرك بالله من التشاؤم والطيرة ونحو ذلك، وأن الواجب على المسلم أن يحقق التوحيد بالتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حديث أنس قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ)** تقدم، وقوله: **(وَيُعْجِبُنِي الْفَالُ" قَالُوا وَمَا الْفَالُ؟ قَالَ "الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ)** والفأل هو في إيذاء الطيرة؛ لأن الطيرة تشاؤم، والتفاؤل هو ظنٌّ حسن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا رأى الرجل ما يستبشر به من أمر دينه أو أمر دنياه فإنه يحسن الظن بالله أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدر له الخير، وهذا من التوكل على الله، ولهذا قال: **(الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ)** كأن يكون الرجل مريضًا فيزوره زائر فيلقي له كلمة طيبة فيقول: وجهك خير، وحالك طيبٌ وأنت في صحة وفي حال حسنة، فيمد له في عمره ويجعل في قلبه إيمانًا بالله وحسن توكل عليه، وحسن ظنٍ به، هذا هو الفأل، وهكذا كلّ حال من أحوال المسلم، إذا رأيت رجلاً استجدت به نعمة فتجعله يتفاءل ويحسن ظنه بالله، ويعظم الله، ويحب الله، ويظن أن أمره إلى خير إن شاء الله إذا كان مؤمنًا بالله متوكلاً عليه.

وإذا رأيت رجلاً قد حدث له مكروه يكرهه فتذكره بالله وتخفف عليه مصيبته، وتجعل فأله بالله أكثر وأعظم وإيمانه بالله أقوى، هذا كله من الفأل الحسن، وهكذا المرء في نفسه بينه وبين ربه هو يتفاءل ويذكر نعم الله عليه، ويظن بالله خيرًا حتى يحقق التوحيد ويقضي على أسباب الشرك وهي التطير والتشاؤم.

قال رَحِمَهُ اللهُ في حديث أبي داود عن عروة: **(ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَحْسَنُهَا الْفَالُ)** وتقدم هذا، ثم قال: **(وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ لَا يَاتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)** هذا فيه أن الرجل عليه ألا يتطير، فإذا وجد في طريقه أو في أمره في دنياه ما يحمله على التطير فعليه

أن يستعيذ بالله، وأن يذكر الله جَلَّ وَعَلَا، وأن يؤمن بالله، ولا يترك ما قد عظم على فعله لمجرد الطيرة والشؤم؛ فإن هذا من الشرك، فإن تركه لبذله أسباب معرفة النافع والضار فتبين له أن عليه أن يترك مضيه فيما عزم عليه من سفر أو نحو ذلك لسبب مشروع أو معلوم حسًا وواقعًا؛ فإن هذا ليس من التطير، ولكن التطير هو أن يترك ما عزم عليه لمجرد الشؤم الذي خطر في قلبه.

ثم قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(اللَّهُمَّ لَا يَاتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ)** لا يقدر الخير إلا الله، وقوله: **(وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ)** يعني لا يدفع المكاره إلا الله، وهذا هو تحقيق التوحيد كما تقدم، وقوله: **(وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)** يعني لا تحول من حال إلى حال، من حال الخوف إلى حال الأمن، من حال المرض إلى حال الصحة، من حال الفقير إلى حال الغنى ونحو ذلك إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله هو القوي المقدر للأمور.

(المتن)

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا. وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «"مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ" قَالُوا فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ "أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ"».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».

(الشرح)

هذه الأحاديث ذكرها رَحِمَهُ اللهُ ليبين أن الطيرة شرك، لما فيها من تعلق القلب بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن اعتقد أن هذا الذي تطير به من طير أو بقعة أو لونٍ هو الذي يجلب الضر بذاته فهو قد أشرك بالله شركًا أكبر؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو المقدر للأمور، وإن كان ظنه سبب للشر والله جَلَّ وَعَلَا لم يجعله سببًا فإنه بذلك يكون قد أشرك شركًا أصغر ينقص بذلك توحيده وإيمانه.

قوله: **(وَمَا مِنَّا إِلَّا)** يعني وما منا إلا ويقع في قلبه شيء من هذا مما يتشاءم به، لكن كيف يعالج المسلم ذلك؟ يعالجه بالتوكل على الله، ولهذا قال: **(وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ)** يعني أن التوكل على الله وحسن الظن به وقوة الاعتماد عليه تدفع قوة الشؤم في قلب العبد، ويطرد وسوسة الشيطان عنه، فيكون القلب مؤمنًا بالله معتمدًا عليه، فهذا الحديث وهو حديث ابن

مسعود دل على أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذر من الأبواب وسد الأبواب التي تفضي إلى الشرك بالله، ومن ذلك سوء الظن بالله من التطير والتشاؤم.

حديث ابن عمرو مرفوعًا مما رواه أحمد رَحِمَهُ اللهُ؛ قال: **(قَالُوا فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)** وهذا مثل الحديث الذي تقدم حديث عروة بن عامر، وهو قول: «**اللهم لا يأت بالحسنات إلا أنت**»، فإن العبد عليه ألا يمضيه ولا يرده إلا إيمانه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبذل الأسباب المشروعة والمباحة بالإقبال والإدبار والفعل والترك، وليس ما خطر في قلبه من أسباب التشاؤم والطيرة؛ فإن هذا هو الذي ورد التحذير منه في هذه الأحاديث، فهذا الحديث دل على أن الطيرة ينهى عنها لأنها شرك، لأنها تحمل على المضي والإقبال والإدبار والفعل والترك اعتمادًا على مجرد هذه الخواطر، وهذا هو الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالواجب على المسلم أن يحذر من أسباب الشرك، وأن يذكر الله جَلَّ وَعَلَا في كلّ حاله؛ لأن ذكر الله والاعتماد عليه والإيمان به هو الذي يطرد الشيطان عنه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36].

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (29)

باب ما جاء في التنجيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

(الشرح)

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب في سياق ذكر أبواب التوحيد، وذلك أن التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وهو ما يسمى بعلم تأثير النجوم، منه ما يقدح في التوحيد أصلاً أو كمالًا، ومنه ما هو مباح، ولهذا ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن من القوادح في التوحيد التعلق بالنجوم، باعتقاد تأثيرها أو أنها سبب للحوادث الأرضية.

(المتن)

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي "صَحِيحِهِ" قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ; أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ» انْتَهَى.

(الشرح)

هذا الأثر عن قتادة في بيان الحكمة من خلق النجوم، وأنها على ثلاثة أحوال:

1. زينة للسماء.
2. ورجومًا للشياطين.
3. وعلامات يُهتدى بها أو يهتدي بها سالك الطريق ويعرف بها اتجاهات الشمال والجنوب والشرق والغرب والقبلة بمعرفة مواقع النجوم، فهذه هي الحكمة من خلق النجوم، وليس من الحكمة في خلقها أنها لها شيء من التدبير أو التصريف أو شيء من التأثير أو أنها لها شيء من الأسباب كلّ هذا مما يعتقده أهل الجاهلية مما هو من القوادح في التوحيد.

(المتن)

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا، وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

(الشرح)

هذا الأثر فيه بيان خلاف العلماء رَحِمَهُم اللهُ في هذا العلم المباح، وهو معرفة منازل القمر وسيره، معرفة سنن الله جَلَّ وَعَلَا في المشارق والمغارب التي جعلها الله جَلَّ وَعَلَا للقمر، وما يكون في تلك الأزمان مما هو محل الزرع أو البذر أو نضج الثمار ونحو ذلك مما لا تعلق للنجوم به في التأثير، فإن تعلم ذلك على هذا الوجه مما وقع الخلاف فيه بين العلماء، فإذا عُلم أن هذا العلم المباح على الصحيح من قول العلماء كان محل خلاف، فكيف بما كان مما هو ناقض للتوحيد أو ينقصه مما هو اعتقاد في النجوم وأنها مؤثرة أو أنها سبب للحوادث الأرضية.

(المتن)

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي "صَحِيحِهِ".

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى والشاهد منه قوله: **(وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ)** ومن السحر الاعتقاد بالنجوم كما ورد في الحديث: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»، فدل هذا على تحريم التنجيم، واعتقاد التأثير في النجوم، وأن هذا من الكبائر، وأن هذا مما يُدخل النار، قوله: **(لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ)** هذا دليل على أن هذا الفعل من الكبائر وأنه من العظائم نسأل الله العافية والسلامة، والاعتقاد بالسحر والأخذ به والعمل به؛ هذا كله مما يخرج من الإسلام وينقض الإيمان، وهذا الحديث أيضًا فيه تحريم شرب الخمر وأنها من الكبائر العظيمة، وتحريم قطع الرحم وأنها من الكبائر والجرائم الكبيرة في وجوب صلة الرحم والإحسان إلى الأقربين وأن هذا من الفضائل التي تنال بها الجنة ويتقرب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نسأل الله التوفيق والتسديد والثبات على دينه وأن يرزقنا علمًا نافعًا وعملاً صالحًا.

وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (30)

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لتعلقه بالباب الذي تقدم وهو التنجيم؛ فإن من التنجيم اعتقاد تأثير النجوم بالمطر وإنزاله من السماء، والأنواء جمع نوء وهي منازل القمر، وكان أهل الجاهلية يعتقدون فيها، فيعتقدون بأن المطر ينزل بمنازل القمر فيقولون: مطرنا بنوء كذا أو بنوء كذا أي بتأثير النجم الفلاني أو بتأثير منزلة القمر أو سيره في ليلة أو في يومٍ ونحو ذلك، فذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب؛ لأن من الشرك الأكبر اعتقاد أن المطر ينزل بفعل النجوم، أو بتأثيرها.

ومن الشرك الأصغر أن يعتقد أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المنزل للمطر.

ومن الشرك الأصغر إذا كان يعتقد أن لها تأثيرًا، تأثيرًا في إنزال المطر، وإن لم يعتقد أنها هي الفاعلة المنزلة له، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الآيات والأحاديث الداخلة ضمن هذا الباب.

(المتن)

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 82].

(الشرح)

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة: 82]، يعني نصيبكم من المطر الذي ينزل من السماء، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 82]، يعني تكذبون أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي أنعم عليكم بذلك، فتجعلون هذا من فعل النجوم والكواكب، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، هذه الآية

عاب الله جَلَّ وَعَلَا فيها على المشركين لكفرهم بنعمة الله جَلَّ وَعَلَا، فنسبوا هذه النعمة وهي المطر إلى النجوم، فبين الله جَلَّ وَعَلَا أن هذا تكذيب لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي ينزل من السماء الماء كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ 68 أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: 68، 69].

فهذا فيه إبطال نسبة إنزال المطر إلى الأنواء والنجوم والكواكب، وأنها هذا من الكذب، وفيها أيضًا وجوب نسبة هذه النعمة لله كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، ونسبة النعم إلى الله جَلَّ وَعَلَا من شكره، من شكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا هو الواجب.

(المتن)

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ».

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(الشرح)

هذا الحديث الشاهد فيه أن من أعمال الجاهلية التي كان أهل الجاهلية يعملونها قبل بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم كانوا يستسقون بالنجوم، هذا هو الشاهد من هذا الحديث وهو قوله: **(وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ)** والاستسقاء بالنجوم هو نسبة المطر إلى النجوم، وتأثيرها، وأن المطر والغيث والماء إنما ينزل من الأنواء، وهذا من جحد نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن الكفر بها، هذا هو الشاهد من هذا الحديث، ففيه الوعيد لمن نسب الغيث والمطر والماء الذي ينزل من السماء إلى النجوم، وأن هذا من عظائم الأمور وكبائرها.

ذكر في هذا الحديث جملة من الكبائر منها الفخر بالأحساب وهو التعاظم على الناس؛ بآثار الآباء وأخبارهم وأمجادهم وما حازوه من سبق الدنيا، وما نالوه من شرفها وأموالها ونحو ذلك، فهذا من الفخر الذي قد يحمل على البغي وعلى الكبر وهذا هو الغالب، والطعن بالأنساب الوقوع في عيب الآخرين في أنسابهم، و التنقص من أصولهم، والنياحة على الميت؛ النياحة هي رفع الصوت، ورفعه على سبيل الندبة، وعلى سبيل التسخط والجزع من قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا مات للعبد ميت، والنياحة رفع الصوت والندب على الميت جزعًا وتسخطًا.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ) يعني يوم القيامة تعاقب عقابًا شديدًا، وذلك أنها يكون عليها كساء وثوب من قطران، ودرع من جرب؛ فسره أهل العلم قالوا: إنه ثوبٌ من نحاس مذاب تلطخ به فيصير كالثوب، فهو شديد الحرارة والعذاب، ولهذا قال: (وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ) والدرع هو الثوب ينسج من حديد يلبس في الحرب، ولكنه في هذا الحديث أراد به أنها يكون عليها أثر مرض الجرب حتى يكون كالدرع عليها من شدة تعذيبها نسأل الله العافية والسلامة، وهذا يدل على خطر النياحة على الميت، ويدل على وجوب الصبر على قضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقدره.

ودل أيضًا على تحريم الفخر بالأحساب والأنساب وأن هذا من عمل الجاهلية إذا كان على وجه فخر الدنيا، وعلى وجه البغي على العباد والتكبر عليهم، ودل على تحريم الوقوع في الأنساب بالطعن بها، والقدح بها، وذمها، والتنقص من أهلها، ودل أيضًا على ذم حال أهل الجاهلية وأن الإسلام جاء برفع الجاهلية، يذم المسلم أن يعود إلى أمر الجاهلية بعد أن أخرجه الله عَزَّ وَجَلَّ من ذلك.

(المتن)

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ "قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾».

(الشرح)

قوله في هذا الحديث: (عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ) يعني على عقب مطر نزل من السماء، وقوله: (هَلْ تَدْرُونَ) هذا لفظ استفهام أراد به شد الانتباه لما يلقى، قوله: (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ) قوله: (مِنْ عِبَادِي) يعني ممن هم تحت تدبيري وخلقي ونعمتي وتحت ربوبيتي، فهذه هي العبودية العامة، وهي أن العباد كلهم مملوكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مربوبون، وأنه سبحانه هو القاهر لهم، وأنه جَلَّ وَعَلَا هو الذي يغدق عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

في هذا الحديث القدسي: **(مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ)** مؤمن يعني شاكر موحد لله، وكافر يعني جاحد للنعمة كافر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7]، قد يُحمل هذا على الكفر الأكبر، وقد يحمل على الكفر الأصغر بحسبه كما سيأتي.

قوله في هذا الحديث: **(فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ)** وذلك لأنه نسب نعمة لله جَلَّ وَعَلَا، والله جَلَّ وَعَلَا هو المنعم على عباده بكل نعمة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18]، وغير ذلك من الآيات.

قال: **(وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا)** قوله: **(بِنَوْءِ)** هذا فيه نسبة المطر إلى غير الله، وهي الأنواء والنجوم، فمن اعتقد أن هذه النجوم هي التي تنزل المطر فهو كافر بالله خارج من الملة، ومن اعتقد أنها مؤثرة وأنها سبب، وإنما الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي ينزل المطر فهذا قد اعتقد في سبب لم يجعله الله سببًا ولم يُعرف بالحس، ولم يعرف بالتجربة والواقع أنه سببًا، وهذا من الشرك الأصغر، ولذلك قال: **(وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)** هذا الحديث فيه التحذير من نسبة النعمة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن هذا من الكفر به بحسبه.

ثم إن هذا الحديث أيضًا دل على مشروعية تعليم الناس وتنبيههم لأمور العقيدة؛ حتى لا يقعوا بسبب الجهل فيما يخل بعقيدتهم، كذلك فيه حسن التعليم، ولهذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟)** وهذا فيه شد الانتباه لما يُلقى من العلم.

وفيه أيضًا من الفوائد العظيمة: رد العلم إلى عالمه وهذا أدب الصحابة، ولهذا قالوا: **(اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ)** وهذا من الأدب أن الإنسان لا يتكلم بشيء من العلم إلا بما علم، وما لم يعلمه يتوقف فيه، ولا يلج في شيء منه، وإنما يحيل علمه إلى من علمه.

وفيه أيضًا من الفوائد: أن من الكفر ما هو أكبر، ومنه ما هو أصغر، فالأكبر يخرج من الملة وهو نقيض الإيمان فينقض الإيمان في أصله، والأصغر ما لا يخرج من الملة ولكنه ينقص به الإيمان وهو من الكبائر نسأل الله العافية والسلامة.

فدل هذا الحديث على وجوب نسبة النعم إلى الله، تحريم نسبتها إلى غير الله، وأن من نسب المطر إلى النجوم فإن هذا مما هو من الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحسبه، إما أن يكون كفرًا أكبرًا أو أن يكون كفرًا أصغرًا.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (31)

باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى في هذا الباب مسألة عظيمة من مسائل التوحيد وهي المحبة؛ فإن محبة الله جَلَّ وَعَلَا ومحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحبة دينه وشرعه من أركان التوحيد التي لا يصح التوحيد إلا بها، وهي المحبة المنافية للبغض، وإن كراهية الله جَلَّ وَعَلَا أو كراهية رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو كراهية شرعه من نواقض الإسلام؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 9].

ونظير ذلك محبة شيء من المخلوقين أعظم من محبة الله جَلَّ وَعَلَا، أو أعظم من محبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أعظم من محبة دينه، أو محبة شيء من ذلك مثل محبة الله جَلَّ وَعَلَا، أو محبة رسوله، أو محبة دينه، فهذا كله مما ينافي التوحيد، هذا الذي أراده رَحِمَهُ اللهُ تعالى، قد يكون في القلب شيء من محبة ما يسخط الله جَلَّ وَعَلَا، كهوى فيميل إلى شيء من المعصية أو شيء من الآراء ولا يخرجه ذلك من دين الإسلام، وإنما هذا بحسبه، فإن من أحب شيئًا كمحبة الله أو رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن هذا هو الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، وفي هذا ذكر هذه الآية ومناسبتها لـ (كتاب التوحيد) ما تقدم، وهي أن المحبة من أصول التوحيد وأركانه، أن تحب الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحب دينه.

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: 165]، يعني من المشركين، ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: 165]، يعني نظراء، فالله جَلَّ وَعَلَا لا ند له، ولا كفء له من خلقه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22].

وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165]، هذا وجه شركهم؛ أنهم أشركوا مع الله جَلَّ وَعَلَا المخلوقين في المحبة، فدل هذا على أن المحبة لله جَلَّ وَعَلَا ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولدينه يجب أن تكون أعظم مما عداهما، وأيضًا دل على أن من أحب شيئًا مع الله جَلَّ وَعَلَا كمحبة الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه مشرك، والدليل على هذا قوله: ﴿أَنْدَادًا﴾ [البقرة: 165]، أي جعل ندًا ونظيرًا لله جَلَّ وَعَلَا.

ودل أيضًا على أن المحبة لله عبادة وقربة من أعظم القرب، ودل أيضًا على أن محبة الله جَلَّ وَعَلَا لا تنفع إلا بالبراءة من الشرك، ولهذا قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165]، يعني هم يحبون الأنداد كمحبتهم لله جَلَّ وَعَلَا ، فدل هذا على عظيم محبتهم لله جَلَّ وَعَلَا، ولكن لم ينفعهم ذلك؛ لأنهم ما أخلصوا لله جَلَّ وَعَلَا، فدل هذا على معنى التوحيد، وأن التوحيد لا يصح إلا بالبراءة من الشرك.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذه الآية لبيان أن المحبة لله جَلَّ وَعَلَا ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه يجب أن تكون أعظم من محبة ما سواهما، وأن من أحب شيئًا من المخلوقين مع الله جَلَّ وَعَلَا؛ فأحبه كمحبة الله فإنه مشرك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24]، هم الذين خرجوا عن أمر الله جَلَّ وَعَلَا بالشرك، فدل هذا الدليل الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى على أنه يجب محبة الله جَلَّ وَعَلَا، ومحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحبة دينه، من الجهاد في سبيل الله، والعمل الصالح، والتقوى أعظم من محبة الآباء والأبناء والأخوان، وغيرهم مما هو من المخلوقين.

ودل أيضًا على أن كلّ محبة صرفت عن محبة الله جَلَّ وَعَلَا؛ فإنها محرمة، ودل أيضًا على أن المحبة التي تفضي إلى محبة الله جَلَّ وَعَلَا ومحبة دينه ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن هذا مما هو مأمور به.

ولهذا فالمحاب ثلاث:

1. محبة الله جَلَّ وَعَلَا، وهذه الدين الذي أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به في هذه الآية.
2. والمحبة مع الله، وهذه الشرك الذي حذر الله عَزَّ وَجَلَّ منه في هذه الآية.
3. والمحبة في الله، وهي المحبة لما يحبه الله جَلَّ وَعَلَا ويحبه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن حب ذلك من الدين الذي يقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

(المتن)

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الحديث ليدل على وجوب محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من محبة ما سواه ولو كان أباه أو ولده أو الناس أجمعين، فتبين من هذا أن هذا هو الدين، وتبين أيضًا على انتفاء الإيمان، بانتفاء أصله لمن أحب مع الله جَلَّ وَعَلَا الأولاد والآباء والمخلوقين فإن هذا ينافي أصل الإيمان، فمن ساوى محبة الله جَلَّ وَعَلَا ومحبة المخلوقين فإنه جعل لله ندًا كما تقدم في الآية السابقة التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

ودل أيضًا على نقص الإيمان لمن قدم شيئًا من المحاب التي يحبها من أمور الدنيا على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا وطاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان يحب الله جَلَّ وَعَلَا أعظم منها؛ فإن بذلك نقص إيمانه؛ لأنه وقع في معصية الله جَلَّ وَعَلَا، فدل على وجوب محبة الله جَلَّ وَعَلَا، ومحبة رسوله، وأن هذا من الدين، وأن تقديم محبتها ومحبة الدين على كلّ ما سواه هذا من أعظم ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به.

ودل أيضًا على أن الأعمال من الإيمان، ولهذا قال: **(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ)** والمحبة من العمل، وهي عمل القلب، فدل على أن من أحب الله عَزَّ وَجَلَّ وأحب رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر ممن سواهم؛ فإن هذا من الإيمان، ومن تحقيقه للإيمان.

ودل أيضًا على أن الإيمان ينفى ويُراد به أصل الإيمان أو يراد به كماله، وهذا بحسبه، فقد ينفى الإيمان ويكون النفي هنا بيانٌ لعظيم الجرم الذي وقع فيه صاحبه، كما دل أيضًا هذا الحديث على التلازم بين الظاهر والباطن، فإن الإيمان إذا كان مستقرًا في القلب فلابد أن يظهر في الجوارح، فكما أن الإيمان في القلب فكذلك الإيمان في الجوارح.

(المتن)

وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَن يُقْذَفَ فِي النَّارِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى» إِلَى آخِرِهِ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى لبيان وجوب تقديم محبة الله جَلَّ وَعَلَا ومحبة رسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما سواهما، وبيان أنها من الدين، وأيضًا بيان أن هذه المحبة لله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان، فدل على أن العمل من الإيمان، ودل أيضًا على أن كراهة الخروج من الدين مثل الكفر والشرك أو نقص الدين بالمعاصي أيضًا دل هذا على أنه من الإيمان وأنه بقدر تحقيق الإيمان في القلب يكون سعي العبد فيما يقربه إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وسعيه في الابتعاد عما يباعده عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ)** يعني ثلاث خصال، قوله: **(مَنْ كُنَّ فِيهِ)** يعني من اتصف بهن، قوله: **(وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ)** يعني لذة الإيمان وطعم الإيمان، وهذا ورد في أحاديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا**»، وهذا هو معنى قول الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، والحياة الطيبة هي ذوق لذة الإيمان وطعمه، برضا العبد عن الرب، وسكون نفسه واطمئنانه بما يقضيه الله جَلَّ وَعَلَا عليه من قضائه وقدره، وهذا يفسر قول الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

فكونه يطمئن بذكر الله أي بالإيمان، فهو يجد طعم الإيمان في قلبه فتسكن جوارحه لأمر الله، وتستقيم على طاعة الله كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا)** يعني أن يحب الله جَلَّ وَعَلَا ويحب رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من غيرهما من المخلوقين، من الولد والوالد والناس أجمعين.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ)** هذا فيه بيان أن ما عدا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل الإيمان؛ فإنه يُحب في الله، وأما محبة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي من محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه هو الرسول المبلغ عن الله جَلَّ وَعَلَا أمره وشرعه، فدل هذا على أن من مقتضى محبة الله ومحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن توالي في الله وتحب في الله فتحب أهل الإيمان.

وأنه بقدر محبة العبد لربه جَلَّ وَعَلَا ومحبته لرسوله؛ فإنه يحب أهل التوحيد وأهل السنة ويواليهم، وبذلك يجد طعم الإيمان، ولا يكون محبته لهم من أجل الدنيا، أو من أجل المال، أو من أجل القرابة، أو لغير ذلك مما ينافي محبة الله جَلَّ وَعَلَا ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو ينافي المحبة في الله.

قوله: **(وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)** هذا فيه بيان أيضًا البراء، فكما أنك تحب في الله فأنت تبغض في الله، ومن بغضك في الله أن تبغض المعاصي، وتبغض أهل المعاصي، فتبتعد أشد ما يكون ابتعادك عن أسباب الكفر وأسباب نقص الإيمان، فكما أنك تكره أن تلقى في النار فتفر منها فرارًا شديدًا، فكذلك تكره أن تعود في الكفر والشرك، أو في المعاصي والبدع مما يبغضه الله جَلَّ وَعَلَا، وتفر من ذلك أشد من فرارك من النار، والسبب في ذلك أن النار في الدنيا حينما تحرقك وأنت على إيمان وتوحيد؛ فإن في ذلك فناء دنياك، وأما الكفر والشرك فإن فيه فناء دينك مما يفضي إلى الخلود في النار، نسأل الله العافية والسلامة.

وقوله في رواية: **(لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ)** هذا كما تقدم أن السعادة والاطمئنان وذوق الإيمان هو حقيقة يوجد في القلب، كما قال هرقل لأبي سفيان في الصحيحين: «**هل يترد منهم أحدٌ سخطة لدينه؟ فقال أبو سفيان: لا. قال: كذلك حلاوة الإيمان حين تخالط القلوب**»، فهذا الحديث حديث عظيم دل على وجوب محبة الله، ومحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودل على مقتضى محبة الله ورسوله وهي الحب في الله والبغض في الله.

(المتن)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ

كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166]، قَالَ **«الْمَوَدَّةُ»**.

(الشرح)

ختم المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب بهذا الحديث العظيم حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قوله: **(مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ)** هذه فيها بيان أن مقتضى محبة الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محبة أهل الإيمان، وقوله: **(فِي اللَّهِ)** بيان سبب المحبة وهو محبتهم لله، وعملهم بطاعة الله، واستقامتهم على أمر الله، قوله: **(وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ)** هذا فيه بيان أيضًا مقتضى المحبة لله والمحبة لرسوله، وهي أن تبغض ما يبغض الله جَلَّ وَعَلَا ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن تبغض من يعمل فيما يبغض الله جَلَّ وَعَلَا ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشرك والكفر والمعاصي والبدع، ولهذا قال: **(وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ)** يعني أبغض تقربًا لله، ولا يكون البغض تقربًا لله إلا إذا كان سببه ومنشأه أن الذي أبغضته يبغضه الله جَلَّ وَعَلَا، وأمر ببغضه، وذلك لوجود مقتضى البغض وهو الشرك والكفر والمعاصي والبدع.

قال: **(وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ)** قوله: **(وَوَالَى)** يعني أحب ونصر وأيد؛ لأن الموالاة هي المحبة والنصرة، قوله: **(وَعَادَى)** يعني اجتنب وأبغض وباعد عن أهل الكفر والمعاصي، وقوله: **(فِي اللَّهِ)** تقدم.

وقوله: **(فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ)** الولاية هي النصرة والمحبة كما تقدم، الولاية أن يوالي الله جَلَّ وَعَلَا عبده أن يحبه وينصره ويؤيده وأن يكون معه كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128].

قال: **(فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ)** يعني سبب محبة الله لعبده ونصرته له هو أن يحب الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن يحب في الله وأن يبغض في الله وهذا هو التوحيد، التوحيد أن تفرد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة وأن تجعل الطاعة للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلّ ما أمر، وأن تعمل بمقتضى ذلك، ظاهرًا وباطنًا، فتحقق التوحيد لله، وتحقق الاتباع للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن تجتنب ما ينافي ذلك من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، والبدع والأهواء، وأن تعمل بمقتضى ذلك وهو أن توالي في الله وتعادي في الله، فهذا تنال به ولاية الله جَلَّ وَعَلَا كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 257]، والإيمان هو التوحيد، فأعظم الناس ولايةً لله جَلَّ وَعَلَا وأعظم الناس يتولاه الله جَلَّ وَعَلَا من حقق التوحيد، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: 54]، فهذه الآية العظيمة دلت على هذا المعنى الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قال: (وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَان) هذه فيها بيان أن للإيمان ذوق حقيق يجده العبد في قلبه فتستقيم جوارحه على طاعة الله كما تقدم، قال: (وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ) هذا فيه بيان أن الصلاة والصوم لا تكفي وحدها دون تحقيق التوحيد؛ فإن الصلاة والصوم والزكاة والحج لا يُنظر فيها لمن أشرك بالله، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

وأيضًا قد يكون الرجل مسلمًا غير مشرك ويصلي ويصوم ولكن تحقيقه للتوحيد للولاء والبراء ونصرة التوحيد وأهل التوحيد، والبراءة من الشرك وأهل الشرك ليست على وجه الكمال؛ فإنه بهذا يضعف إيمانه ويقل ولاية الله جَلَّ وَعَلَا له بقدر ضعف تحقيقه للتوحيد، وبقدر ذلك يضعف ذوقه لطعم الإيمان وثباته عليه نسأل الله العافية والسلامة.

وأعظم المؤمنين ولاية لله وأعظمهم ذوقًا لطعم الإيمان هو من حقق التوحيد والاتباع للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو كان مقتصد على فعل الفرائض وأداء الواجبات؛ فإن العبرة ليست كثرة العمل مع ضعف التوحيد، وضعف الاتباع، وضعف الولاء والبراء؛ فإن هذا نقصٌ في الإيمان، أما من نقض توحيده وانتفى ولاءه للمؤمنين وبراءه من المشركين فتولى المشركين، ووالاهم لدنيهم، وأحب دينهم، وأبطن محبة الكفر وأهله، وبغض الإسلام وأهله أسأل الله العافية، فإن قلبه منتفٍ عنه الإيمان وليس فيه إلا الظلمة الحرج ولا يجد في ذلك طعم الإيمان.

قوله: (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا) هذا فيه ذكر حال كثير من الناس؛ أن كثيرًا من أحوالهم قد تغيرت، فأصبح حبهم وبغضهم وولاءهم وبراؤهم على أمر غير ما أمر الله جَلَّ وَعَلَا به، وهذا من نقص الإيمان نسأل الله العافية والسلامة ومن ضعف تحقيق التوحيد.

قوله: (وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا) يعني لا ينفعهم في قربهم إلى الله جَلَّ وَعَلَا، هذا حديث عظيم دل على بيان الأسباب التي ينال بها ولاية الله، ودل أيضًا على بيان معنى الولاية، ودل أيضًا على أن الولي لله هو المؤمن المحقق للتوحيد، ودل على وجوب الولاء والبراء، وأن هذا من مقتضى محبة الله، ومحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودل أيضًا على نقص من آثر الدنيا على الغيرة على دين الله والحب في الله والبغض في الله ولو كان من أهل التوحيد والإسلام

والإيمان، فجعل ولاءه وبراءه ومحبته وبغضه وفعله تركه لباعث دنيوي، كلّ هذا دل أنه لا يجدي على أهله شيئًا نسأل الله العافية والسلامة، فهذا حديث عظيم جليل القدر.

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166]، قَالَ: الْمَوَدَّةُ) هذا فيه بيان أن الولاء والبراء إنما يجدي إذا كان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتحب في الله، وتبغض في الله، أما من أحب في غير الله، ووالى فيما يسخط الله؛ فإن محبته وولاءه إنما يعيد عليه بالضرر، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ 165 إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 165، 166].

يعني أسباب المحبة والمودة، دل على هذا المعنى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ 5 وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:5- 6].

وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه الكريم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ 62 قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: 62، 63]، والآيات في هذا كثيرة التي تبين تبرؤ المشركين ممن والاهم وأحبوهم ونصروهم ممن وافقوهم على دينهم أو قدموا طاعتهم على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نسأل الله أن يرزقنا تحقيق التوحيد، وأن يهدينا صراطه المستقيم.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (32)

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لأن الخوف من الله جَلَّ وَعَلَا من أخص مسائل التوحيد، ومن أخص صفات الموحدين، ولأن الخوف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من نواقض التوحيد؛ فبتين وجه مناسبة دخول هذا الباب في الكتاب، قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [آل عمران: 175]، (إِنَّمَا) أداة حصر، وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ [آل عمران: 175]، هو اسم من أسماء الشيطان وهو علم على إبليس الذي لعنه الله وطرده من رحمته، ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: 175]، هذه فيها بيان أن من خاف من غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو حمله خوفه ولو كان من ذي سببٍ إلى الخروج عند حد الشرع؛ فإن ذلك من تولي الشيطان، كما دل هذا على أن الشيطان ليس له سلطان على أهل الإيمان ممن تولى الله؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ 99 إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 99، 100].

ثم قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]، قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [آل عمران: 175]، يعني لا تخافوا أولياء الشيطان، وقوله: ﴿وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: 175]، هذه فيها الأمر بالخوف من الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا من أخص صفات أهل التوحيد، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]، فإن مقتضى التوحيد والإيمان هو مراقبة الله جَلَّ وَعَلَا وخوفه؛

الذي مقتضاه هو معرفة الله، ومعرفة صفاته، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القاهر فوق عباده الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة، والذي لا يعجز عن شيء في الأرض ولا في السماء، فدل على أن الخوف عبادة لله جَلَّ وَعَلَا، ودل على أن صرف الخوف للبشر وسائر المخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا؛ فإن هذا من الشرك، ودل على أن من تولى الشيطان خوفه، ومن تولى الله حفظه الله جَلَّ وَعَلَا لإيمانه به وتوحيده.

(المتن)

وَقَوْلِهِ.

(الشرح)

يعني وباب قول الله.

(المتن)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 10].

(الشرح)

هذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين أن الخوف من الله جَلَّ وَعَلَا من توحيده، وأن الخوف من المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله أو الخوف من المخلوق فيما يفضي إلى ترك دين الله جَلَّ وَعَلَا والكفر به؛ فإن هذا من النواقض التي ينقض بها المرء دينه وإيمانه وتوحيده، وتبين مناسبة دخول هذه الآية في هذا الباب وفي (كتاب التوحيد).

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]، أي بعض الناس ممن ضعف إيمانه، قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]، إشارة إلى القول لما تضمنه ذلك من ضعف الإيمان أو عدمه؛ فإنه يدعي الإيمان ظاهرًا وإن كان في باطنه خلوٌ من الإيمان أو ناقص الإيمان، قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]، يعني بسبب ظاهر إيمانه، قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]، فتنة الناس أي العذاب الذي عُذب لإظهاره الإيمان وما جرى عليه من أمر مكروه، قوله: ﴿ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]، أي جعل أذى الناس الذي ناله بسبب إيمانه وظاهر إسلامه جعله سببًا لردته عن الإيمان وتركه للتوحيد، وكفره بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه لم يصبر على طاعة الله وتوحيده والإيمان به، نسأل الله العافية والسلامة.

مثلاً قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: 10]، يعني لئن جاء فتح وعز للإسلام وظهور لدين المسلمين وغلبة للمسلمين على المشركين؛ فإنه يقول: إنا كنا معكم، يعني كنا في الدين، فهو يطمع فيما غنمه المسلمون من المشركين.

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 10]، يعني من الإنفاق والنفاق، فدلت هذه الآية على صفات المنافقين، ودلت على أيضًا أن الخوف من المخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، أو أن ضعف التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا في دفع أذى المخلوقين يفضي إلى الكفر بالله والشرك به وترك الدين، نسأل الله العافية والسلامة.

فدل هذا على أن الخوف من الله عبادة، وأنه من أعظم ما يستجلب به رحمة الله ونصره، كذلك دل على أن الخوف من المخلوقين وإن كان من ذي سببٍ إذا كان يفضي إلى ترك الدين فإن هذا من الشرك ومن ضعف الإيمان، ومن صفات المنافقين نسأل الله العافية والسلامة.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18].

(الشرح)

هذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ لبيان أن خشية الله وخوفه والهيبة منه التي يقتضيها معرفة الله، ومعرفة أسمائه وصفاته والإيمان به أن هذا من صفات أهل التوحيد والإيمان، ومن صفات أهل الاهتداء، وأن هذا من أخص خصال التوحيد، ولهذا فإن من كان من أهل التوحيد فإنه يخشى الله جَلَّ وَعَلَا ولا يخشى غيره، ويخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يخاف غيره، ولا يحمله خوف المخلوقين إلى ترك الحق.

قوله جَلَّ وَعَلَا : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 18]، يعني يعمرها بالعمارة الحسية والمعنوية، يعمرها بالعمارة المعنوية وهي العبادة والتوحيد والطاعة والصلاة وغير ذلك مما جعلت المساجد له، وكذلك يعمرها ببنائها إيمانًا واحتسابًا.

قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: 18]، يعني من حقق الإيمان بالله واليوم الآخر، ظاهرًا وباطنًا، قولًا وعملاً واعتقادًا، قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: 18]، يعني لم يخش غير الله جَلَّ وَعَلَا فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كذلك لا يكون في قلبه خشية للمخلوق، وهيبة منه، وخوف

منه وإن كان ذو سبب تفضي إلى ترك الحق والإيمان، أو تكون هذه الخشية في قلبه كخشيته من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]، يعني المتصفين بهذه الصفات، أولئك من المهتدين يعني من الموحدين، دل هذا على وجوب إخلاص الخشية لله والخوف منه، وأن هذا من العبادة، ودل على فضيلة عمارة المساجد وبنائها، عمارة حسية ومعنوية، وأن هذا من تحقيق التوحيد.

(المتن)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

(الشرح)

هذا حديث عظيم ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ليبين أن من تحقيق التوحيد تعلق القلب بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن كلّ الأمر بيده، ولهذا فإنه لا يخاف إلا الله، ولا يخش إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يلتفت إلى تخويف المخلوقين أو ترهيبهم، وإن كان من ذي سبب؛ فإنه لا يلتفت إليه التفاتة تصرفه عن توكله على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والخوف منه وثباته على دينه، ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: **(إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ)** يعني الإيمان، واليقين من أخص خصال الإيمان، وضد اليقين الشك، قوله: **(إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ)** يعني من قلته أو من انعدامه، فيضعف اليقين بما دون الشرك والكفر، وهذا من ضعف الإيمان، أو ينعدم اليقين بزوال الإيمان نسأل الله العافية والسلامة؛ فإن ضد اليقين هو الشك والريب؛ قال: **(أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ)** وهذا محمول على الكفر، وهذا ينتفي به الإيمان، ومحمول على ما دونه من المعاصي، وإرضائهم فيما يسخط الله جَلَّ وَعَلَا وطاعتهم في المعصية؛ فإن العبد المؤمن إذا خشي الله وخافه، وتوكل عليه وكان في قلبه اليقين أن الأمر كله بيد الله؛ فإنه لا يترك أمر الله جَلَّ وَعَلَا إرضاءً لمخلوق ضعيف، فإن رقاب العباد كلهم بيد ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: **(وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ)** لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو الرازق، وهو المدبر، وهو المصرف، هو الذي يطعم ويسقي ويشفي ويحيي ويميت، وإن كان يُحمد للمرء أن يشكر من كان له عليه يدٍ من نعمة؛ فإنه يشكره عليها ويثني عليه كما قال رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صنع لكم معروفًا فكافئوه**»، ومن مكافئته الدعاء له، وشكره، والثناء عليه، ولكن لا تنسب النعمة له، ولا يُحمد على رزق الله، وإنما الحمد استحقاقًا، واستغراقًا في جميع خصال المحامد،

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرازق المدبر المصرف الذي يوالي نعمه عل عبده كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53].

قال: **(وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ)** لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يقدر، فيعطي ويمنع، فإذا كان المخلوق سببًا مانعًا مما يحبه العبد؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يجعله مانعًا، هو الذي قدر أن يحول هذا العبد بينك وبين ما تحب، ولله الحكمة البالغة في ذلك، فاحمد الله على ما أعطاك، وإن كان المخلوق سببًا فيه، واشكر الله على ما منعك، وإن كان المخلوق سببًا فيه؛ فإنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: **(إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ)** هذا فيه أيضًا بيان العلة التي هي سبب ضعف اليقين، وذلك أن العبد كلما ظن أن رزقه يأتيه بقدر كده وسعيه، أو بقدر بذله السبب؛ فإن هذا من ضعف اليقين، وبذل الأسباب مشروع، وتركها نقص في العقل، والاعتماد عليها شرك، ولكن ليعلم العبد أنه كلما بذل سببًا؛ فإنه ببذل هذه الأسباب يحقق ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به من التوكل عليه، ولكن لا يكون في قلبه توكلاً على السبب، ثم إذا بذل هذا السبب ليعلم أن الله جَلَّ وَعَلَا يعطيه ما هو خير له من أنواع الرزق، ويصرف عنه ما هو شرٌّ عليه من ذلك، فيحمد الله على ما أعطاه، ويشكر الله جَلَّ وَعَلَا كذلك على ما رده عنه مما كان يحبه ويرضاه.

فهذا دل على وجوب التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا، وعلى وجوب خشيته والخوف منه، دل أيضًا على أن التوكل على المخلوق شرك، ودل أيضًا على أن نسبة النعم لغير الله جَلَّ وَعَلَا وإن كان من ذي سبب؛ فإن هذا من ضعف اليقين، وأيضًا دل على أن ذم المخلوقين فيما منعوه أن هذا من ضعف الإيمان وإن كان من ذي سبب، ودل أيضًا على أن من تمام الإيمان ومن كماله أن يعتقد العبد أن رزق الله جَلَّ وَعَلَا هو ما قدره له، وأن ما منعه الله جَلَّ وَعَلَا لا يأتي به عبدٌ من عباد الله، ولو اجتمع أجمعهم لجلب المحبوبات أو دفع المكروهات لم يكن ذلك إلا بأمر الله جَلَّ وَعَلَا، وبقضائه وقدره، وهذا يتضمن أن يحب العبد ربه، وأن يسعى في مرضاته، وأن يخافه وأن يخشاه ويتوكل عليه في كلّ أمر.

(المتن)

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

(الشرح)

فيه أن خشية الله جَلَّ وَعَلَا وخوفه والتوكل عليه من تحقيق التوحيد، ومن صفات أهل التوحيد والإيمان، وأن ضد ذلك وهو الخشية من المخلوق وخوفه وإن كان من ذي سبب، وطلب رضاه ولو كان في سخط الله أن هذا من نقص التوحيد، فإذا حمل ذلك على ترك الدين والكفر بالله والشرك به؛ فإن هذا من نواقض التوحيد.

ودل أيضًا على أن الجزاء من جنس العمل، وذلك أن من سعى إلى الله جَلَّ وَعَلَا برضاه أرضاه الله جَلَّ وَعَلَا في نفسه وأرضى عنه عباده المؤمنين وأولياؤه المتقين، وهذا فضل من الله جَلَّ وَعَلَا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96].

وهذا الود ليس هو ميزان العامة حيث يرون كثرة الأتباع، وكثرة الجماهير، فيقولون: هذا فلان أرضى الله عنه الناس فدل على رضا الله عنه لا، وإنما هذا الود إنما هو محبة الله، ومحبة أوليائه، ومحبة عباده المتقين، وخاصة أوليائه المؤمنين، وأما محبة العامة والدهماء أو المنافقين والفساق وغيرهم؛ فإن هذه ليست ميزان، فإن من لا علم له ولا بصيرة يُحب من أمر بحبه، ويبغض من أُمر ببغضه وإن كان من أحبه يجب عليه بغضه، ومن أبغضه يجب عليه محبته، فهذا كله مما لا يلتفت إليه.

قوله: (وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ) هذا أيضًا بيان أن الجزاء من جنس العمل، وبيان أن من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، فإن من تعجل رضا الناس ولو كان من غير بابه؛ فإنه يحرم ذلك، فيحرم رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُحرم الرضا في نفسه، ويُحرم أيضًا رضا عباد الله عنه.

وهذا فيه أيضًا فائدة: وهي أن رضا الناس وسخطهم هو بيد الله، فإذا أردت محبة الناس فأحب الله وتقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا بما يرضيه، وعاملهم بما أمرك الله عَزَّ وَجَلَّ به؛ فإن قلوبهم بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك إذا كان فعلك أمر الله جَلَّ وَعَلَا واستقامتك على شرعه وعلى توحيده تفضي إلى سخط المخلوقين فلا ترضيهم بسخط الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن من تحقيق التوحيد أن تعلم أن الحب والبغض والرضا والغضب كله بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن المخلوقين كلهم ورقابهم بيد الله جَلَّ وَعَلَا وتقدست أسماؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتبين من هذا أن من تحقيق التوحيد والإيمان أن ترضي الله جَلَّ وَعَلَا ولو كان ذلك فيه سخط للمخلوقين، وتبين من هذا أن إرضاء المخلوقين بسخط الله أن هذا من نقص التوحيد، وإذا كان إرضاؤهم في الكفر والشرك، وما يفضي إلى الخروج من الإسلام؛ فإن هذا من نقض التوحيد ومما ينافيه.

أيضًا تبين من هذا وجوب التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا، وتبين أن العباد أمرهم بيد الله جَلَّ وَعَلَا، وأنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا، وأن قلوبهم كلها بيد الله جَلَّ وَعَلَا الذي يقلبها كيف يشاء،

كذلك مما دل عليه وجوب الثبات على الإيمان والإسلام، ولو كان في ذلك سخط الناس؛ لأن هذه الحياة الدنيا عمرها قصير، وعمر العبد أيضًا سريع الزوال والتحول، والحياة الآخرة حياة دائمة، فيا خسارة من أسخط الله جَلَّ وَعَلَا في طلب لرضا الله في وقت قصير سريع الزوال كثير التقلب، وسخط الله عليه في حياة دائمة أبدية وهي الحياة الآخرة، ويا سعادة من أرضى الله جَلَّ وَعَلَا فنال الرضا في الآخرة ولو كان في ذلك سخط المخلوقين.

ولكن هنا مسألة وفائدة: وهي أن العبد لا يسعى إلى سخط المخلوقين وإلى نفرتهم منه، وإلى مباينتهم له إلا فيما يرضي الله جَلَّ وَعَلَا، وكذلك هو يسعى إلى تأليف قلوبهم بالحق وإلى أن يعاملهم المعاملة التي يقبلون فيها الحق ويتأثرون بما هو عليه من علم وعمل؛ لأن هذا هو الواجب كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

فتبين من هذا أن تنفير الناس بحجة إرضاء الله جَلَّ وَعَلَا أن هذا ليس مقصودًا لذاته، ولكن من بذل سببه في بيان الحق وأحسن في عرضه ورفق بالمدعوين، وعدل معهم ولم يجر ولم ينفر فإن سخطوا عليه فلا يلتفت إلى سخطهم؛ لأن الأمر كله لله.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (33)

باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن من أجل شعب التوحيد وأعظم صفات أهل الإيمان هو التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا، وأن مما ينافي التوحيد التوكل على المخلوق، قوله رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23] ..)** قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ [المائدة: 23]، يعني على الله توكلوا وليس على غيره، قدم ما حقه التأخير ليدل على الحصر، وأن من توكل على الله وعلى المخلوق، أو توكل على المخلوق فقد أشرك، دلت هذه الآية على وجوب التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا وأنه من أعظم العبادات، ودلت على أن أعظم المؤمنين إيمانًا هو أعظمهم توكلاً على الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه بقدر تحقيق الإيمان يكون تحقيق التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ودلت على أن عمل القلب من الإيمان، وذلك بالتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وذلك بتفويض الأمر واعتماد القلب مع بذل السبب في اعتماد العبد على ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجلب المنافع ودفع المكاره، هذا هو حقيقة التوكل على الله، وليس من التوكل على الله ترك بذل الأسباب؛ فإن هذا من التواكل، وإنما الأسباب مع اعتماد العبد على ربه في جلب المحبوبات ودفع المكروهات هو التوكل على الله سبحانه.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2] .. الآيات.

(الشرح)

هذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب لبيان أن من الإيمان التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلى أن عمل القلب من الإيمان، وعلى أن تفويض الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والاعتماد عليه، ورجاءه وخشيته وحسن الظن به في جلب المحبوبات ودفع المكروهات مع بذل الأسباب هو فعل أهل الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، فدل على أن التوكل على الله من الإيمان ومن التوحيد، ودل على أن صرفه للمخلوق من الشرك.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64].

(الشرح)

هذه الآية فيها الحث على التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه هو الذي يكفي عبده المؤمن، هو حسبه أي كافيه، فإذا علم العبد أن الله كافيه فيما يخاف وهو ناصره على عدوه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معه إذا حقق الإيمان؛ فإنه يتوكل على الله جَلَّ وَعَلَا فيما يرهب وفيما يرغب، فيكون اعتماده على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدلت هذه الآية على وجوب التوكل على الله، وأن هذا من أعظم العبادات، ودلت على أيضًا أن التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا سبب الطمأنينة، فإن من توكل على الله كفاه، ووثق بالله وأحسن ظنه به؛ فإن الله معه، ومناصره، ومكافئه على حسن ظنه به، وحسن الحال، فإن الجزاء من جنس العمل.

(المتن)

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

(الشرح)

يعني كافيه، هذه الآية دلت على أن الله جَلَّ وَعَلَا يكافئ من توكل عليه واعتمد عليه، وفوض الأمر له وأحسن الظن به في جلب المحبوبات ودفع المكروهات؛ أن الله يكفيه ما أهمه، ولهذا من الدعاء الذي ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**»، وهذا من الأدعية الثابتة في السنة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ذلك ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

(المتن)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي ٱلنَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: 173]، ٱلْآيَةَ. رَوَاهُ ٱلْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

(الشرح)

هذان الأثران عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ذكرهم البخاري تعليقًا، فهما بيان أن التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا هو مفتاح الفرج، ومفتاح النصر على الأعداء، وسبب الطمأنينة وسكون القلب، وسبب معية الرب للعبد، ولهذا لما ألقي إبراهيم في النار قال هذه الكلمة: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، يعني الله كافينا، والله جَلَّ وَعَلَا لا يكفي إلا من توكل عليه حق التوكل، لذل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حينما قضى الله عَزَّ وَجَلَّ وقدر عليهم ما قدر في غزة أحد، ثم جاءهم رجل وأخبرهم أن المشركين قد جمعوا لهم ليقاتلوهم مرة أخرى بعد أن حدث لهم ما حدث، وبعد أن أصابتهم الجراح وفقدوا من فقدوا من أحبتهم وأصحابهم وأهليهم في هذه المعركة، ومع ذلك كانت سبب قوتهم وشجاعتهم قولهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، وهذه الكلمة يتواطأ عليها القلب واللسان وتفويض العبد أمره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا علم أن الله هو حسبه وكافيه والأمر بيده توكل عليه، ومن توكل على الله كفاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 174].

فدل هذا على فضل هذه الكلمة العظيمة وهي حسبي الله ونعم الوكيل، وأنه ينبغي للمؤمن أن يكثر منها خاصة عند الكروبات والشدائد والملمات والمصائب؛ دلت على أن التوكل من أفضل العبادات وأجلها، وسبب الفرج، ودلت أيضًا على أن التوكل على الله صفة خاصة المؤمنين من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، ودلت أيضًا على أن من توكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن هذا من الشرك، سواء كان المخلوق سببًا أو غير سبب؛ فإن التوكل عبادة خاصة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحتى وإن كان المخلوق سببًا؛ فلا يجوز التوكل عليه، وإنما يتوكل على الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يقول: توكلت على الله ثم عليك؛ فإن هذا من الشرك، وهذا من الاعتماد على الأسباب، وإنما يكون اعتماده على المسبب وهو الله جَلَّ وَعَلَا، مع بذل الأسباب، وهذا فيه أن بذل الأسباب من حقيقة التوكل، ولكن الاعتماد عليها ينافي التوكل؛ لأن التوكل هو تفويض العبد أمره إلى ربه سبحانه مع بذله أسباب جلب المحبوبات ودفع المكروهات.

أيضًا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: 173]، هذه فيها بيان أن الإيمان يزيد وينقص، وأيضًا فيها امتحان المؤمنين، فإن الله جَلَّ

وَعَلَا يمتحن عباده المؤمنين، وتسلط الكافرين عليهم، ليظهر الإيمان ويتميز المؤمن من المنافق، والموقن من الشاك.

وأيضًا فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد يقدر على عبده شيء مما يكرهه ويكون ذلك خيرًا، ولا يكون هذا إلا للمؤمن المتوكل على الله جَلَّ وَعَلَا، فهذا الباب باب عظيم من أبواب التوحيد، نسأل الله أن يثبتنا على دينه وأن يحيينا على ملته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (34)

باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: 56].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن حسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورجاءه والخوف منه هو من حقيق التوحيد، وأن سوء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والقنوط من رحمته واليأس منه جَلَّ وَعَلَا مما ينافي التوحيد، وذلك أن الموحد حسن الظن بربه؛ لأنه يعلم أن الأمر كله لله، وأن التدبير كله بيد الله، وأن العباد عباد الله، والملك ملك الله، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا لا يقنط العبد من رحمة الله، ولا يأمن أيضًا المسيء الذي أساء الفعل من غضب الله ومقته وسخطه نسأل الله العافية والسلامة، هذا دل على مسألة من مسائل التوحيد وهي حسن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعظيم الرجاء له، وأيضًا في مقابل ذلك الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعدم الأمن من سخطه وعقابه.

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 99]، يعني استدراج الله جَلَّ وَعَلَا للمخلوق بالنعم ثم أخذه على حين غفلة ومعصية وشرك وكفر نسأل الله العافية والسلامة، وهذا لا يكون إلا لمن خادع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142]، وكما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ 8 يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 8، 9]، إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ 14 اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 14، 15].

وأما المؤمن؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا يغفر له ذنبه ويسبغ عليه ستره، ويمد له في عمره، ويكفر عنه ما يكون له من المصائب، وما يكون عليه من أقدار الله عَزَّ وَجَلَّ المؤلمة التي يرجع بها إلى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا ما غفل وأصر واتبع الهوى وترك الهدى وعلم الحق وترك العمل به عن إعراض وإيثار للشهوات والمعاصي؛ فإنه بذلك يستحق عقوبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لأمن سخط الله وغضبه وعقابه، وهذا من أعظم المعاصي والسيئات التي تستوجب عقوبة الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99]، والخاسرون يعني الهالكون.

ثم قوله رَحِمَهُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: 56]، أيضًا هذه فيها بيان عظيم رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه لا يجوز للعبد أن يقطن من رحمة الله وأن يستبعد الفرج فييأس من رحمة الله، هذا ليس من صفات أهل الإيمان، وإنما المؤمن يعلم أن الفرج من عند الله؛ فهو يقبل على ربه يدعوه ويتوكل عليه، ويحسن ظنه به، ويتوب من سيئاته ومعاصيه، حتى يكون ذلك سبب لرحمة الله جَلَّ وَعَلَا ومغفرته، فتبين من هاتين الآيتين أن الأمن من غضب الله وعقابه هذا من صفاته الضالين المغرورين الذين نسوا أنفسهم، فلم يكن بسبب فعلهم ذلك رجوعًا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتذكر وانزجار، وإنما إسرار على المعاصي وانطباع للران على قلوبهم، فاستحقوا بذلك غضب الله ومقته، نسأل الله العافية والسلامة.

وأن من صفات المؤمنين رحمة الله ورجاءه وحبه وحسن الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعدم القنوط من الفرج والرحمة التي ينزلها الله عَزَّ وَجَلَّ على من شاء من عباده، ودل هذا على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، فهو يرجو رحمة ربه ويخشى عقابه وعذابه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9]، وهذا حال المؤمن.

(المتن)

وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ اَلْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ "اَلشِّرْكُ بِاَللَّهِ، وَالْيَاسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللَّهِ"».

وَعَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ اَلْكَبَائِرِ اَلْإِشْرَاكُ بِاَللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اَللَّهِ، وَالْيَاسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ» رَوَاهُ عَبْدُ اَلرَّزَّاقِ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذين الأثرين وهما الحديث الذي رواه ابن عباس عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضًا أثر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليبين أن اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله هو قرين الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقوله: **(اَلْكَبَائِرِ)** الكبيرة هي كلّ ذنبٍ توعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صاحبه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب أو حد في الدنيا أو وصف فاعلها أو فعلها بما يتضمن نفي الإيمان أو الشرك أو الكفر، كلّ هذا مما هو يعلم به حد الكبيرة.

قوله: **(اَلشِّرْكُ بِاَللَّهِ)** الشرك في اللغة هو التسوية، ومنه قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ 97 إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 97، 98]، وفي الشرع هو جعل للمخلوق ما هو خاص بالخالق في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

وقوله: **(وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ)** اليأس هو قطع الأمل والرجاء، هو القنوط، وقوله: **(رَوْحِ اَللَّهِ)** يعني من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفرجه، قوله: **(وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللَّهُ)** يعني الأمن من استدراج الله للعبد بما يكون سببًا لإصراره على المعاصي ما يستوجب به عقاب الله جَلَّ وَعَلَا وعذابه، نسأل الله العافية والسلامة، فهذا تبين منه، ومثله حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن اليأس من رحمة الله والأمن من مكر الله وهو الغرور أن هذا من أعظم الذنوب، وأنه يحمل على الشرك بالله والكفر به، ولهذا قرنه بالشرك الله وهو الذي يخرج من الملة، نسأل الله العافية والسلامة، فدل على أن هذا مما ينافي التوحيد، وأن الواجب على العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمة الله ويخشى عذابه، نسأل الله العافية والسلامة، نسأل الله أن يدركنا بحرمته وعفوه مغفرته وستره.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (35)

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11].

قَالَ عَلْقَمَةُ "هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ".

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن من حقيقة التوحيد الصبر على أقدار الله المؤلمة، ومما ينافي التوحيد الجزع من قدر الله جَلَّ وَعَلَا، ومما ينافي التوحيد في أصله الجزع الذي يحمله على الخروج من الإسلام والإيمان، قوله: **(مِنَ الْإِيمَانِ)** الإيمان هو الإقرار بالقلب المستلزم للعمل والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وقوله: **(الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ)** الصبر في اللغة: هو حبس النفس، وشرعًا: هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والتسخط، والجوارح عن اللطم والشق، لطم الخدود وشق الجيوب.

وقوله: **(عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ)** يعني ما يقضيه الله جَلَّ وَعَلَا على عبده مما فيه كراهية له؛ فإن الله قد يقضى على عبده ما يكره، وقد يعلم الحكمة من ذلك العبد وقد تخفى عليه الحكمة؛ فإنه في قضاء الله وقدره مما يكرهه عليه أن يسلم لله عَزَّ وَجَلَّ لأنه لا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما المؤمن فإنه يسلم لله بقدره، ويبادر إلى قدر الله بقدر الله، فيدفع المكروه بما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به، من أسباب دفع المكروهات، ولكن إذا وقع عليه المكروه لا يسخط ولا يجزع، ولا يلطم، ولا يشق جيبه، ولا يعترض على قضاء الله وقدره، وإنما يحمد الله ويقول: قدر الله وما شاء فعل، فيحمد الله على ذلك، وكما ورد في الحديث: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**».

قوله رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11]..)يعني من يعتقد أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المدبر وهو الحكيم في تدبيره وهو القاهر لعبيده، وأنه سبحانه العليم بما يصلح لعباده فإنه يطمئن ويسكن قلبه، ويعلم أن أمره لله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا يسترجع، ويمتثل لما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به في كتابه ورسوله في سنته، حيث قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ 155 الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ 156 أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155 - 157].

كذلك ورد الأمر في السنة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذكر ذلك، والأحاديث في هذا كثيرة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعنى قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11]، يعني يهد قلبه للصبر، يهد قلبه للطمأنينة، يهد قلبه للسكينة، فلا يحمله ذلك على الخروج عن حده حد الشرع.

ثم إن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى ذكر تفسير هذه الآية من أثر علقمة رَحِمَهُ اللهُ تعالى، قال:**(قَالَ عَلْقَمَةُ "هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ")** وهذا معنى قوله: ﴿يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [التغابن: 11]، يعني الرضا بالله، والتسليم على قدره، مما يدل على هذا قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي الله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا**». فالرضا بالله ربًا أي ربًا مدبرًا لعباده، يجري عليهم حكمه مما يحبون ومما يكرهون، ومن الرضا بالله ربًا أن تعلم أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الحكيم في قضائه وقدره، ومن الرضا بالله ربًا الرضا به آمرًا، فيأمر عباده وينهاهم فترضى بالله، تمتثل الأمر وتنتهي عن النهي، فهو جَلَّ وَعَلَا له الخلق وله الأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدل هذا على فضيلة الصبر على قضاء الله وقدره.

ودل هذا على أنه من تحقيق التوحيد، ودل أيضًا على أن الصبر من الإيمان، وعلى أن العمل داخل في مسمى الإيمان، ودل أيضًا على أن الصبر يثاب عليه صاحبه بالجزاء العاجل في الدنيا وأيضًا في الآخرة، ودل على أن مما ينافي التوحيد كمالاً أو أصلاً السخط من قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره وعدم الصبر؛ فإن هذا قد يحمله إلى ما ينتفي به أصل التوحيد وهو الشرك والكفر، نسأل الله العافية والسلامة.

(المتن)

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

(الشرح)

ذكر هذا الحديث ليبين أن الصبر على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره من تحقيق التوحيد، وأن الجزع من قضاء الله وقدره ومنه النياحة على الميت وهي رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله وفضائله ومآثره ورفع الصوت بالبكاء عند ذلك تسخطًا على ما قضاه الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره عليه من موته؛ فإن النياحة على الميت هي من التسخط، والتسخط مما ينافي الإيمان، ولهذا وصفه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: **(كُفْرٌ)** والكفر هنا مطلق الكفر، فدل هذا على أن التسخط من قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره من الكبائر، وقد يحمل على الخروج من الإسلام والإيمان نسأل الله العافي والسلامة.

وقوله: **(الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ)** يعني الوقوع فيها بالعيب والتنقص، فدل هذا الحديث على تحريم النياحة على الميت، وأنها من خصال الكفر وهي من الكبائر، دل على أيضًا على تحريم الطعن في الأنساب، وأن هذا من الكبائر، ودل أيضًا على أن الكفر نوعان: كفرٌ أكبر يخرج من الإسلام، وهو نقيض الإيمان، وكفرٌ أصغر وهو فعل ما هو من الكبائر التي تنافي كمال الإيمان مما وصفه الله عَزَّ وَجَلَّ بالكفر أو الشرك.

(المتن)

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ».

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى أيضًا ليبين أن التسخط في قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره، وعدم الصبر على ما يقضي الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره مما ينافي التوحيد، ولهذا قال: **(لَيْسَ مِنَّا)** يعني ليس أمره على أمرنا، وهذا من الوعيد، ومثل قوله في الحديث المتقدم: **(اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ)** فما كان عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أمر به هو الصبر، ومما ينافي أمره ضرب الخدود وشق الجيوب، ومما ينافي ذلك دعوى الجاهلية، وأراد بقوله: **(بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ)** النياحة، وذلك بالندب على الميت، والدعاء بالويل والثبور لفقده، والحسرة على وفاته، ورفع الصوت بذلك، فهذا بين فيه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصلة من خصال التوحيد، وهي الصبر على قضاء الله وقدره، وبيّن فيه أن ما ينافي ذلك السخط على قضاء الله وقدره مما تقدم بيانه، وأن هذا من فعل أهل الجاهلية.

(المتن)

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذين الحديثين ليبين أن الصبر من الإيمان، وليبين أيضًا على أن الله جَلَّ وَعَلَا إذا أحب عبده وفقه للصبر والإيمان به، وأن السخط من قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره مما ينافي الإيمان والتوحيد.

قوله: (**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ**) هذه فيها بيان أن المؤمن يبتلى ويمتحن ويختبر في قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره مما قد يكرهه، ولكن ثمرة ذلك للمؤمن أنه يعظم له بذلك الجزاء في الدنيا وفي الآخرة، فأما في الدنيا فإنه يزداد بذلك إيمانًا وتسليمًا، فيزداد بذلك يقينًا ورسخوًا وقربًا من الله، وأما في الآخرة فالثواب والأجر العظيم، ودخول الجنة برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (**وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ**) يعني ابتلاهم بما يقع عليهم من الأقدار التي يكرهونها، وسبب ذلك تمحيصهم، وتكفير سيئاتهم، ورفع درجاتهم كما ورد في الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: (**، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى**) يعني من رضي بقضاء الله وقدره له الرضا في نفسه فيطمئن، كما في الآية المتقدمة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11]، وله الرضا أيضًا في الآخرة، بأن يرضى الله جَلَّ وَعَلَا عنه فينال الثواب والأجر الجزيل.

قال: (**وَمَنْ سَخِطَ**) يعني عن قضاء الله وقدره (**فَلَهُ السُّخْطُ**) يعني في نفسه، فيجزع ويحزن وتضيق نفسه ويشتد الكرب عليه، وله السخط من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا كان ابتلاء، ابتلاءً واختبارًا، فمن الناس من يصبر فينال الرضا، ومنهم من يتمحص فينكشف مخبوءه مما في قلبه من ضعف الإيمان واليقين، فيتسخط فيستحق بذلك السخط نسأل الله العافية والسلامة.

وأما حديث: (**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا**) هذا فيه بيان الحكمة مما يوقعه الله عَزَّ وَجَلَّ على عبده من البلاء، أن من ذلك ما يكون عقوبة في الدنيا، ليكفر بذلك الله عَزَّ وَجَلَّ سيئته، ويمحو ذلك خطيئته، فيدفع بذلك عنه العقوبة في الآخرة، نسأل الله السلامة و العافية، ولاشك أن عقوبة الدنيا أخف من عقوبة الآخرة.

وأما المنافق والكافر ومن لم يرد الله به خيرًا فإنه يتركه في معصيته وذنبه وسيئته حتى يوافى له يوم القيامة بالعقوبة والفضيحة، نسأل الله العافية والسلامة، ففي هذا بيان الحكمة من وقوع المصائب وأقدار الله عَزَّ وَجَلَّ على عباده المؤمنين، وأن هذا تمحيص وتكفير وتطهير لهم ورفعة لدرجاتهم، وفيه أيضًا بيان لفضلهم في الدنيا، فيتميز المؤمن الذي يصبر على قضاء الله وقدره من المنافق وضعيف الإيمان الذي يتسخط، هذا كله من الحكم العظيمة.

وأيضًا دل على أن من حقق التوحيد والإيمان صبر فنال الجزاء العظيم والأجر الكبير ونال مغفرة السيئات، وأما من ضعف توحيده وإيمانه وتسخط فنال السخط نسأل الله العافية والسلامة في الدنيا وفي الآخرة.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (36)

باب ما جاء في الرياء

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

(الشرح)

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب في (كتاب التوحيد) لأن الرياء مما ينافي التوحيد، فقد يخرج به صاحبه من الملة لنقضه للتوحيد بالكلية، فقد يحبط العمل الذي دخل فيه الشرك كيسير الرياء، والرياء مصدر راءى مرآة ورياءً وهو أن يقصد بعمله أن يراه الناس على عمل صالح، فينال بذلك منهم أمر دنيا من حمدٍ، ومدحٍ، وثناءٍ، أو غير ذلك.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110] ..)** هذه الآية دلت على أن التوحيد هو الصلاح، والشرك هو الفساد، ودلت على أن الله جَلَّ وَعَلَا لا يقبل من العمل إلا ما كان صالحًا، ودلت على أن العمل الصالح هو ما كان لوجه الله وخلا من الشرك، ودلت على أن الشرك إذا دخل في العمل فسد وحبط العمل، وكان صاحبه من الخاسرين، فدل على حقيقة التوحيد، ودل على حقيقة الشرك، ودل على فضل التوحيد، وعظيم أجره، ودل على خطر الشرك وعظيم وزره، فهذه آية عظيمة دلت على أن الرياء إذا دخل في العمل فهو شرك، وهو يفسد العمل، ويحبطه.

(المتن)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(الشرح)

هذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى في بيان أن الرياء من الشرك، وأنه يحبط العمل وأنه ينافي التوحيد، وقوله: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ) يعني إذا كان في العمل شريكًا مع الله فالله غني عن هذا العمل؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا، قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً) وهذا دل على كلّ عمل من دعاء وصلاة ونذر وخوف ورجاء ومحبة، وغير ذلك من الأعمال التي تقع في الجوارح والتي تقع في القلوب، كلّ ما كان من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله جَلَّ وَعَلَا فلابد أن تكون لله خالصة، فإذا كانت لله ولغير الله فهي شرك، ولهذا قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي) وهذا فيه بيان حقيقة الشرك، وأن الشرك هو أن يكون العمل لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) هذا فيه بيان عاقبة المشرك، وعاقبة العمل، فعاقبة العمل أنه لا يؤجر عليه صاحبه ولا يثاب، وعاقبة المشرك أنه من الخاسرين، وهذا كما في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، وكما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65]، وكما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: 117].

فدل على عظيم شؤم الشرك على صاحبه، وأن العمل الذي دخل فيه الشرك ومنه الرياء أنه حابط مردود على صاحبه.

وهذا الحديث فيه إثبات صفة الكلام لله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال: (قَالَ تَعَالَى) والقول هو اللفظ المسموع، والكلام هو اللفظ المركب المفيد، والله جَلَّ وَعَلَا يتكلم بصوت ونداء مسموع كما يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، وكما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: 15]، وغير ذلك من النصوص.

أيضًا فيه من المعالم أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الغني، من أسمائه الغني، ومن صفاته أنه الغني عن خلقه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ 15 إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ 16 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 15 - 17].

(المتن)

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالُوا بَلَى قَالَ الشِّرْكُ الْخَفِيُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الحديث ليبين أن الرياء مما ينافي التوحيد ويحبط العمل، ثم إن هذا الحديث فيه بيان خطر المسيح الدجال وعظيم فتنته، وأن فتنته قد يذهب بها دين المسلم، ولهذا وردت الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابتة أن من سمع بالدجال فليأنى عنه، لعظيم الفتنة، وفي هذا الحديث أيضًا بيان أن هذه الفتنة وهي فتنة المسيح الدجال مع عظيم التشديد فيها وعظيم الأخبار عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خطرها، وعظيم الفتنة بها، وأن ما من نبي إلا وقد حذر أمته الأعور الدجال، ولهذا خاف الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم من هذه الفتنة؛ حتى ظنوا أنه بين ظهرانيهم، وهكذا كلّ مسلم مؤمن مصدق للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يخاف هذه الفتنة العظيمة، فإن الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا أعظم من فتنة المسيح الدجال؛ فإن القلوب تفتن بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويزين لهم الشيطان الشرك حتى يخرجهم من دين الإسلام، ولأن هذه الفتنة و هي فتنة الشرك مع أعظم الفتن التي تستوجب عقاب الله عَزَّ وَجَلَّ وعذابه في الدنيا والآخرة.

ولذلك استعاذ منها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الدعاء الثابت عنه، «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ومن عذاب القبر، ومن فتنة المسيح الدجال**»، هذا من الدعاء الثابت وهو الدعاء بالسلامة من الكفر، والكفر من أجله وأعظمه وأشده خطرًا الشرك بالله، دعاء غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا كان أخوف ما يخاف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته الشرك.

ومن أعظم الشرك؛ الشرك الخفي، والشرك الخفي سمي خفيًا؛ لأن صاحبه يظهر من عمله أنه لله، ولكنه في الباطن لغير الله جَلَّ وَعَلَا، نسأل الله العافية والسلامة، وهذا قد يكون يشعر به صاحبه بأن يتعمد أن يصرف العمل لغير الله في باطنه، فهو يزين العمل لينال الدنيا، أو قد يدخل عليه الشرك من حيث لا يشعر وهذا أعظم، كأن يعجب بصلاته، يعجب بعبادته، أن يكون له فيها ميلٌ إلى حظٍ من الدنيا، وإن كان أصلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا أيضًا من محبطات الأعمال، لهذا كان من أعظم الشرك؛ لأنه قد لا يسلم منه كثير من الصالحين، نسأل الله العافية والسلامة.

ولهذا قال: (**يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ**) يزينه أي يطيلها أو يحسن صوته بالتلاوة، كلّ هذا لأنه يراه الناس، فيدخل في قلبه ميلٌ من مدحهم وثنائهم أو أمر

الدنيا، فدل هذا الحديث على خطر الشرك، ودل على خطر الشرك الخفي وهو الرياء، ودل على رحمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمته وشفقته عليهم، ودل على عظيم نصحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودل على أيضًا أن الواجب التحذير الشديد من الشرك بالله ومن ذلك الرياء، وأن من سلم منه فقد نال حظًا عظيمًا من الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، نسأل الله الثبات على دينه.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (37)

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب بعد أن ذكر الباب الذي قبله وهو **(بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ)** فإن هذا الباب خاص بعد العموم؛ فإن الرياء يشمل عمل الإنسان، بالمراءاة لمدح أو ثناء، ويشمل أيضًا أن يعمل بعمله لطلب الدنيا؛ بأن يكون مقابل عمله الذي يجب أن يكون لله حظٌ من حظوظ الدنيا، وهذا هو العموم، وأما الباب الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ في هذه الترجمة وقد أراد بذلك أن ممن يعملون العمل الذي يراد به وجه الله جَلَّ وَعَلَا يريدون به نصيبًا من الدنيا، فهذا أشد ممن يعمل عمل لا يخرج به نصيبًا من الدنيا؛ وإنما ينال به نوع مدح أو ثناء أو قد لا يناله شيء من ذلك، فهو يرائي ولا يعلم هل يصيبه شيء من أمر الدنيا أو لا يصيبه؟

أما من عمل عملاً مما يراد به وجه الله جَلَّ وَعَلَا؛ أراد به إصابة الدنيا ليأخذ عوضًا عن ذلك أجر الدنيا، ولم يرد بذلك وجه الله جَلَّ وَعَلَا فهو الذي أراده في هذا الباب، وهذا من الشرك، نسأل الله العافية والسلامة، وقد ورد في هذا وعيد شديد في نصوص كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك ما ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى في قوله.

(المتن)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ 15 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15، 16].

(الشرح)

قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: 15]، يعني يريد بثواب عمله الدنيا، وحظها، وزخرفها، قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: 15]، نوف يعني نعطيهم فيها نصيبهم من الدنيا، كصحة، وعافية، وسرور، ومال، وولد، وغير ذلك مما طلبوه، كلّ هذا بقدره، بحسبه، بما يقضيه الله عَزَّ وَجَلَّ لهم منها.

قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: 15]، أي لا ينقصون، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: 16]، وذلك لكفرهم وشركهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنهم ما أرادوا وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو لأنهم أرادوا بعملهم ذلك أيضًا غير وجه الله، فكان سبب دخلوهم النار، قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 16]، حبط يعني بذلك أنه بطل؛ لأنه عملٌ على غير التوحيد كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65].

وقال: ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ [هود: 16]، يعني حبط في الآخرة ما صنعوا في الدنيا من عمل ظاهره الصلاح، ولكن أرادوا به غير وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدلت هذه الآية العظيمة التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ أن من كان همه الدنيا في عمله الذي أراده مما ظاهره أنه من عمل الآخر؛ فإنه بذلك يحبط عمله كما في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

فدل بهذا على حبوط الأعمال بالشرك، ودل على أن الكافر قد يكافأ في الدنيا بحسب نيته، يكافئ بذلك، إذا عمل عملاً من الصالحات التي يحبها الله جَلَّ وَعَلَا ولكنه طلب بها الدنيا، ولم يرد بها وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه قد يكافئ بهذا حتى ينقطع عذره عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنه إذا لقي الله لقيه خاسرًا، نسأل الله العافية والسلامة.

(المتن)

وفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**».

(الشرح)

هذا حديث عظيم فيه وجوب الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن العبد إذا عمل عملاً مما يتقرب به إلى الله فيجب عليه ألا يلتفت لحظ الدنيا، إن أعطي حمد الله، وإن لم يعط لم يسخط ولم يغضب ولم يترك عمله لأنه لم يأخذ مقابله شيئًا من الدنيا، هذا هو المخلص، أما من كان على خلاف ذلك ممن يميل إلى الدنيا وطلبها وحظها فإنه يرضى ويسخط بحسب عطاء الدنيا، ويقبل ويدبر بحسبه، ويفعل ويترك بحسبه، ويحب ويبغض بحسب دنياه التي أعطي، فإن أعطي جزيلاً كان في المقدمة وكان مقبلاً على عمله الذي أقبل عليه من مظاهر الصلاح، وإن مُنع شيئًا من الدنيا ترك وسخط ووالى وعادى لهذا الأمر.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَعِسَ) بكسر العين يعني هلك، (عَبْدُ الدِّينَارِ) سمي عبد الدينار لأن فيه عبودية بحسبه فهو قصده، ومال إليه، وانبعث عمله لأجله، فهذا نوع من العبودية، فكل من مال إلى شيء من أمر الدنيا وكان انبعاث قلبه وجوارحه من أجله ففيه عبودية بحسبه، قد يخرجه ذلك من الإسلام، وقد يكون دون ذلك.

قال: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ) والخميصة نوعٌ من الثوب، كانوا يلبسونه قديمًا، وقوله: (تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ) والخميلة هي القطيفة، قال: (إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ) يعني إن أعطي من الدرهم والدينار، واللباس، والطعام فإنه يرضى، وإن منع من ذلك سخط، (تَعِسَ وَانْتَكَسَ) يعني عاوده المرض، وقيل: انقلب حاله فهذا دعاء عليه بأن يظهر مكمون باطنه مما أراده من أمر الدنيا؛ فإن انكشاف حاله خير للمسلمين إن لم يهده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حتى يميز الناس بين الصالح والمنافق والمؤمن والكافر، ويميزوا بين المخلص لله الذي صدق في عمله، ومن كان يخادعهم ويشتري بعلمه الدنيا، نسال الله العافية والسلامة، ولهذا حذر الله جَلَّ وَعَلَا أهل الكتاب ممن هذه صفته، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة: 34].

حذر من حالهم فهم يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله بطلب الدنيا، نسأل الله العافية والسلامة، فهذا قد دعا عليه رسول الله بسوء الحال؛ قال: (تَعِسَ وَانْتَكَسَ) يعني انقلب على رأسه وظهر مكمونه نسأل الله العافية.

قال: (وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ) يعني إذا أصابته شوكة قال: (فَلَا انْتَقَشَ) يعني لا يستطيع أن يأخذ هذه الشوكة من جسده لضعف حاله بانقطاع معونة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، ولأنه قد وكلّ إلى نفسه، ومن وكلّ إلى نفسه فقد هلك نسأل الله العافية.

قال: (طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) طوبى هذا دعاء بالخير، والبركة، وقيل: هو الجنة، وقيل: شجرة في الجنة، قال: (بِعِنَانِ فَرَسِهِ) يعني آخذًا بلجامها فهو يجاهد في سبيل

الله، قال: (آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعني في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، قال: (أَشْعَثَ رَاسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ) يعني أراد بهذا أنه قد اجتهد في سبيل الله وفي طلب ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا فهو ثائر الرأس ورأسه قد علته الغبرة لشدة جهاده في سبيل الله، وبذله العمل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن ذلك قال: (مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ) لشدة سعيه وركضه في جهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع عظيم بذله وشدة جهاده وعظيم ضربه في سبيل الله فهو لا يبالي أخذ شيء من الدنيا أو منع، جعل قائدًا للناس في غزوهم أو جعل في الساقة، فهو لا يلتفت إلى هذا، لا يلتفت لمكانته بينهم مع عظيم جهاده، وعظيم بذله وعطائه، وعظيم تقديمه لنفسه في سبيل الله، ودمه أن يهدر لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومع ذلك هو لا يلتفت إلى حظ نفسه من الدنيا.

ولهذا قال: (إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ) بمعنى أن يكون في مقدمة الجيش وفي قيادته، أو يكون في آخر الجيش، فهو لا يلتفت إلى مصالح نفسه، وإنما يريد وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال: (إِنْ اِسْتَأذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ) يعني يستأذن بالدخول على الأمراء والسادة لم يؤذن له، وهذه عادة تكون حال من لا يأبه به، وليس ذو وجاهة ومكانة، فهو لم ينظر إلى ما بذله ليأخذ بذلك الوجاهة ويطالب بحقه مقابل عطائه وبذله في القتال.

قال: (وَإِنْ شَفَعَ) يعني ألجأته الحال إلى أن يتوسط في أمر من الأمور لأحد يشفع له، فيضم ذمة المشفوع له إلى ذمة الشافع لدى المشفوع عنه ليقضي حاجة المشفوع له، أي لن تقبل شفاعته، وهذه حال أيضًا من لا مكانة له في الجملة، فإنه لا تقبل شفاعتهم وإنما تقبل شفاعة من كان له مكانة ومنزلة، ومع ذلك ومع عظيم جهاده، وعظيم حاله في أمر الدنيا وأنه لم ينل نصيبًا منها فهو لم يبالي، ولهذا قال: (طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ) فهو عظيم الإخلاص لله لم يرد شيئًا من الدنيا؛ فدل هذا على أن العمل يجب أن يكون لله مما هو من القرب وألا يطلب بذلك العبد ثوابًا من الدنيا، وألا يقصده، فإن جاءه من غير طلبه فهذا من الأمر المباح، ولكن لا يجعل باعث أمله وغاية سعيه أن يكون في عمله طلب دنيا، أو طلب حظ سريع الزوال من مال أو منصب أو جاه أو حراسة أو غير ذلك مما تتشوف له النفوس، ودل أيضًا على أن من التوحيد الإخلاص، وأن من نواقض التوحيد ومن نواقصه طلب الدنيا، فقد يكون مما ينقض التوحيد في أصله أو ينقص ثواب صاحبه، وينقص كمال إيمانه.

كذلك دل على فضيلة التواضع، وأن من صفة المؤمن التواضع؛ لأنه في عمله لم يرد الدنيا، ولهذا هو متواضع، أينما كان في مقدمة أو في آخر القوم أو في مكانٍ عليٍ أو دون ذلك، سواء جعل وجيهًا، أو لم تقبل وجاهته وشفاعته ونحو ذلك، فهو متواضع لا ينزع إلى الكبر وإلى الأنفة لصلاحه

ولعظيم قربه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه لم يرد بذلك إلا وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نسأل الله أن يثبتنا على دينه وأن يرزقنا تحقيق التوحيد.

والله أعلم وصلى الله على بينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (38)

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه الله فقد اتخذهم أربابًا

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مَنْ أَطَاعَ اَلْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اَللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اِتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب في (كتاب التوحيد) لأن التحريم والتحليل هو من خصائص الله جَلَّ وَعَلَا، وتحليل الحرام وتحريم الحلال من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن هذا من أفعال التي هي خاصة به سبحانه، وطاعة المخلوقين في تحليل الحرام وتحريم الحلال اتخاذهم أربابًا بطاعتهم فيما هو خاص بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمحلل لما حرم الله، والمحرم لما أحل الله أشرك في الربوبية، والذي أطاع المخلوق في ذلك فأحل ما حرم وحرم ما أحل وإن كان مخالفًا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أشرك في العبادة.

(المتن)

وَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!".

(الشرح)

هذا الأثر العظيم ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين وجوب تعظيم أمر الله جَلَّ وَعَلَا وأمر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق كلّ أمر، وإن كان أمر جليل وعظيم في العلم والفضل والسنة والإيمان، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يرى المتعة في الحج، كان يأمر بها لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بها، فاحتج عليه بنهي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ذلك، فهو احتج بالسنة، وهم احتجوا بقول أبي بكر وعمر، القاعدة أن قول الصحابي حجة ما لم يخالف مثله،

إذا خولف من مثله فالتحاكم بذلك إلى ما دل عليه النص من كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن كان أوفق من قول الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم بظاهر النص.

وأبو بكر وعمر من أجلاء الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وهم أفضل صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقولهما معتبر، ولكن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شدد في تعظيم أمر المخالفة لما دلت عليه النصوص؛ ولهذا قال: **(يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!)** فهذا يدل على تحريم طاعة المخلوق وإن كان عظيمًا في العلم والفضل، وإن كان عالمًا أو كان أميرًا فيما خالف أمر الله جَلَّ وَعَلَا، وأعظم ذلك تحليل ما أحل، وتحريم ما حرم وإن كان مخالفًا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

وَقَالَ اَلْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا اَلْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأيِ سُفْيَانَ، وَاَللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]، أَتَدْرِي مَا اَلْفِتْنَةُ؟ اَلْفِتْنَةُ اَلشِّرْكُ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ اَلزَّيْغِ فَيَهْلَكَ.

(الشرح)

الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ تعالى إمام أهل السنة، وأحد الأئمة الأربعة الكبار، ومذهبه المذهب الحنبلي في الفقه، وهو علم على السنة وتعظيمها رَحِمَهُ اللهُ تعالى، توفي سنة 241، وسفيان الثوري إمامٌ جليل من أئمة المسلمين وعابد من العباد وفقيه من الفقهاء، وممن يقتدى بآثاره، توفي سنة 161 رَحِمَهُ اللهُ تعالى، مع جلالة قدر سفيان رَحِمَهُ اللهُ وغيره من الأئمة إلا أن كلّ أحدٍ إذا خالف كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان معذورًا في ذلك لاجتهاده وحسن طلبه للحق، وتحريه الأصوب في فهمه لنصوص الكتاب والسنة إلا أنه لا يجوز مخالفة كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقول أحد وإن كان عظيمًا.

ولهذا لما قيل للإمام أحمد: إن قومًا يتركون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان، أو غيره من الفقهاء، فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ يعتذر لهؤلاء الفقهاء، ولكن يقدم على قولهم وقول كلّ أحد ما ثبت لديه من النصوص؛ فإن كلّ أحد يعلم شيئًا ويخفى عليه شيء، أو يفهم شيئًا على وجه صواب أو يفهم شيئًا على وجه لم يوفق فيه للصواب، فلا تحاكم نصوص الكتاب والسنة إلى قول أحد، إذا ظهر الأمر وانجلى النص وظهر مدلوله؛ فإن المقدم في ذلك النصوص من كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع الاعتذار للفضلاء وأجلة العلماء ممن عرف بتحري الحق وطلبه.

قال: (عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا اَلْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ) يعني يفهمون الحديث، وبإمكانه معرفة الصحيح من السقيم، ومعرفة ما ثبت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سنته؛ فإن هذا واجب عليه أن يأخذ بالنصوص، وإذا علم قول عالم أو فقيه خالف ما ثبت لديه من النصوص؛ فإنه لا يقبل ذلك القول، كائنًا من كان ذلك العالم؛ لأن المقدم هو قول الله وقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في الآية التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: 63]، يعني عن أمر الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: 63]، والفتنة هي الاختبار، وهي أيضًا العذاب، ومن أعظم ما يمتحن به العبد هو الأمر والنهي، فيمتحن به ويُفتن، هل يقبل دين الله جَلَّ وَعَلَا وأمره ونهيه؛ أم يُقدم على ذلك قول معظم من أمير أو عالم أو شيخ أو قولًا مال إليه ورآه؟ ولهذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36]؟

قال الإمام أحمد: (أَتَدْرِي مَا اَلْفِتْنَةُ؟) في هذا بيان لمعنى هذه الآية. (تنَةُ اَلشِّرْكُ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ اَلزَّيْغِ فَيَهْلَكَ) أراد بهذا أن من عقوبة الله جَلَّ وَعَلَا لمن أعرض عن الحق أن الله جَلَّ وَعَلَا يزيغ قلبه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: 127]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: 23]، وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]، وهذا من عقوبات الإعراض عن السنة واتباع الهوى، والرأي، نسأل الله العافي والسلامة، فدل هذا على أن الاتباع للعلماء فيما لم يخالفوا فيه كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتبعهم العامي ويأخذ بأقوالهم.

ودل على أن العالم ليس بمعصوم؛ قد يقع في زلل وخطأ، ودل على أن العالم إذا زل أو أخطأ فإنه لا يتبع قوله، وليس في هذا هدر لحقه أو انتهاك لحرمته، ودل أيضًا على أن العالم المجتهد لا يجوز له تقليد عالم آخر، وإنما يجتهد بقدر ما أمكنه الوصول إلى الحق بدليله، ودل أيضًا على أن الطاعة المطلقة هي لله جَلَّ وَعَلَا ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليست لأحدٍ من المخلوقين.

(المتن)

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ اَلنَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هَذِهِ اَلْآيَةَ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اَللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اَللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ بَلَى. قَالَ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَاَلتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين أن من أطاع مخلوقًا في تحليل الحرام أو تحريم الحلال فقد اتخذه معبودًا، وهذا يبين خطر هذا الأمر وأنه مناقض للتوحيد، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ [التوبة: 31]، يعني أهل الكتاب، وأحبارهم هم علماء اليهود، ورهبانهم وهم علماء عباد النصارى، ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، أربابًا يعني معبودين؛ لأنهم أطاعوهم في التحليل والتحريم.

وقوله: **(فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ)** لأنه فهم أن العبادة هي الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والسجود، والدعاء، وهذا لاشك أنه من أعظم العبادة، ولكن من عبادة الله جَلَّ وَعَلَا أن تفرده فيما هو من خصائصه ومن ذلك التحليل والتحريم؛ فإن التشريع خاص بالله جَلَّ وَعَلَا، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21]، فسمى من شرعه في الدين ما لم يأذن به الله؛ فأحل ما حرم الله وحرم ما أحل شركاء الله، فدل على أن هذا نقيض التوحيد.

فبين له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال: **(أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اَللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اَللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟)** فهذا فيه بيان سبب وصفهم بالعبادة، قال: **(فَقُلْتُ بَلَى، قَالَ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم)** فهذا يدل على خطر طاعة المخلوقين في تبديل الشرع، فيحل المرء ما أحلوا، ويحرم ما حرموا، وإنما يؤخذ الشرع من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فدل هذا على وجوب تحكيم الكتاب والسنة، ودل على أن من شرع غير الكتاب والسنة فقد أشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، ودل على أن من أطاع المخلوقين في تشريع ما ناقض كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأحل الحرام، وحرم الحلال فقد عبدهم، ودل على أن التحليل والتحريم خاص بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ودل على أن الرجل قد يقع في شيء عدم الفهم الصحيح لبعض مسائل الاعتقاد والدين، فيعلم ويُبصر ويرشد، وأيضًا دل على مشروعية السؤال عما أشكل، ودل أيضًا على الرفق بالمتعلم، وإرشاده، ودل على حسن التعليم بضرب الأمثلة وإقامة البرهان، وغير ذلك من الأدلة، نسأل الله أن يثبتنا على دينه وأن يحيينا على ملته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (39)

باب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا 60 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا 61 فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: 60 - 62]، الْآيَاتِ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب في (كتاب التوحيد) لأن الحكم بما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا والرضا بحكم الله جَلَّ وَعَلَا من حقيقة التوحيد، وهذا من شهادة أن لا إله إلا الله، والحكم بغير ما أنزل الله بالرضا بغير شرع الله جَلَّ وَعَلَا أو رده أو جحده أو تفضيل غيره عليه من نواقض التوحيد.

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: 60]، وهذا فيه استنكار، ومما يدل على الاستنكار قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: 60]، فهم يدعون الإيمان في الظاهر، ولكن هم في حقيقة حالهم ليسوا على الإيمان، وهم المنافقون ومن زعم إيمانًا مع إتيانه بما هو ناقض له.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: 60]، وهذا الإيمان بما أنزل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتضي قبوله، ويقتضي محبته، ويقتضي العمل به، ويقتضي الحكم به، قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 60]،

وهذه علة تبين أن إيمانهم الظاهر إيمان مكذوب؛ لأنهم في حقيقة حالهم أتوا بما يناقض هذا الإيمان، وهو الرغبة بغير ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا على رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن المؤمن حقًا لا يرغب عن الله، ورسوله، وآياته، ودينه، وشرعه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].

فقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 60]، يعني يتخاصمون إليه بفصل ما يقع بينهم من النازعات، وقوله: ﴿الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 60]، يعني كثير الطغيان، والطاغوت كلّ ما خالف شرع الله جَلَّ وَعَلَا مما يناقضه؛ فإن الرضا به إيمانٌ بالطاغوت، والكفر بما يناقض شرع الله جَلَّ وَعَلَا من تحقيق التوحيد، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: 256].

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 60]، يعني يريدون أن يفصلوا بين ما وقع بينهم من نزاع بغير شرع الله جَلَّ وَعَلَا، سماه طاغوتًا، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: 60]، يعني أن يكفروا بما ناقض شرع الله جَلَّ وَعَلَا، ويكفروا بالطاغوت، وهذا كما تقدم في قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 256].

قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60]، يريد الشيطان بإغوائه وتزيينه الكفر والشرك، وتزيينه التحاكم إلى غير ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ [النساء: 60]، يعني يصدهم عن الإسلام والإيمان، قال: ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60]، بالخروج عن الإسلام.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [النساء: 61]، يعني ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القرآن والسنة، وما فيهما من الأمر والنهي، والتشريع، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61]، قوله: ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ [النساء: 61]، يعني ليحكم بينهم، بعد وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني سنته، فإن التحاكم إلى القرآن والسنة هو الرد إلى الله جَلَّ وَعَلَا وإلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 10]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

هذا يدل على وجوب التحاكم فيما وقع فيه نزاع إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآيات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61]، فتبين من هذا أن من أبى الانقياد لشرع الله، أو آثر غيره عليه برًا به، أو اختار غيره بزعم أنه يستحصل فيه من العدل والإنصاف، أو استحصال

الحق ما لا يقع في القرآن والسنة، فهذا هو الكفر بالله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا وصفهم بالمنافقين؛ فقال: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61].

هم يزعمون الإسلام في الظاهر مع كفرهم في الباطن، وذلك لرغبتهم في غير ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَصُدُّونَ﴾ [النساء: 61]، أي يعرضون، قوله: ﴿صُدُودًا﴾ [النساء: 61]، هذا فيه بيان شدة إعراضهم عن كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: 62].

يعني كيف حالهم إذا نزلت بهم عقوبة وحكم عليهم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك؟ فإنهم يعتذرون، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ [النساء: 62]، يعني للاعتذار، قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: 62]، يعني ما أردنا في حكمنا بغير ما أنزل الله إلا الخير والعدل والإصلاح بين المتخاصمين، ولم نرد مخالفتك، دلت هذه الآية على الإنكار، على من ادعى الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإيمان بما أنزله الله جَلَّ وَعَلَا على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم رضي بالتحاكم إلى غير ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من .. والعادات والقوانين، وجعل مرد أمره للفصل فيما يقع من المنازعات غير كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإن زعم الإصلاح، وإن زعم التأليف بين الناس، وإن زعم أن بذلك تقع العدالة، له كله من فعل المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون، ولكن في حقيقة حالهم هم منافقون، قد ناقضوا إيمانهم وإسلامهم بالرضا بحكم الطاغوت.

دلت هذه الآية العظيمة على وجوب التحاكم إلى كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرضا به والتسلم، ودلت على أن مما ينافي الإيمان التحاكم إلى غير ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا، وأن دعوى الإصلاح لا تكفي مع مخالفة حقيقة حال الدعي لظاهر ما ادعاه من إصلاح وتأليف بين الناس؛ فإن الإصلاح إنما يكون بالحكم بما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا بين العباد، كما دلت هذه الآية على وجوب الكفر بالطاغوت، ودلت على أن من لم يكفر بالطاغوت لم يحقق التوحيد، ودلت على أن الشيطان يسعى في إخراج الناس من الإيمان والإسلام، ودلت أيضًا على أن من دعي للتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أبى فإن هذا من فعل المنافقين الذين ناقضوا الإيمان، وخالفوا حقيقة الإسلام بإعراضهم عن التحاكم إلى ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا، وما بعث الله عَزَّ وَجَلَّ به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11].

(الشرح)

هذه أيضًا من صفات المنافقين، أنهم يفسدون في الأرض، بآرائهم، وأحكامهم، وسلومهم، وقوانينهم، ويزعمون أن هذا إنما هو إصلاح، وإنما الإصلاح بما حكم الله جَلَّ وَعَلَا، وبما أنزله على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12].

فهذه الآية تبين منها أن من دعا إلى الحكم بغير ما أنزل الله بزعم الإصلاح؛ فإنه على فساد عظيم، وعلى إفساد لدينه ودين المسلمين، ولهذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 13]، يعني تحاكموا إلى ما أنزل الله، اقبلوا ما شرع الله، ارضوا بما أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبما آمن به أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، فإنهم يأبون ويصرون على ما هم عليه من مخالفة الشرع، كما قال سبحانه: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13]، فهذا فيه تحذير من دعاوى الإصلاح التي حقيقة حالها مخالفة لما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيها أن من ترك العمل بشرع الله والتحاكم إليه فهو فاسد مفسد، وفيه بيان حقيقة الفساد في الأرض؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 77]، يعني بالظلم والبغي والعدوان والكفر والشرك، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، يعني إصلاحها بالتوحيد، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41]، يعني بالشرك والكفر، كلّ هذا من أسباب الفساد وليس من أسباب الصلاح.

(المتن)

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56].

(الشرح)

يعني أراد بها النهي عن الحكم بغير ما أنزل الله، والتحاكم إليه، وإقراره، والدعوة للشرك والكفر، فإن هذا من أعظم الفساد والإفساد في الأرض الذي يحدث به الشرور، ولا تفصل فيه النزاعات وإنما تحدث فيه العداوات، والبغضاء بين المتخاصمين؛ لأنه لا عدالة ولا إنصاف ولا نصر للمظلوم على الظالم، ولا أخذ على يد السفيه إلا بحكم الله جَلَّ وَعَلَا، فدل على أن من يرد التحاكم إلى غير ما أنزل الله فإنه قد أتى بفساد عظيم، وشر كبير.

(المتن)

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

(الشرح)

هذه الآية دلت على انتفاء الإيمان فيمن أراد التحاكم إلى غير ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا ولذلك قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]، ولكن من كان على غير الإيمان وهو اليقين؛ فإنه يستحسن حكم غير كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حكم الجاهلية، فيطلبه، ويسعى إليه، ويعارض شرع الله عَزَّ وَجَلَّ بذلك، وهذا دليل على أن الحكم بما أنزل الله، والتحاكم إليه من حقيقة التوحيد، فيتدل على وجوب التحاكم إلى ما أنزل الله.

(المتن)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» قَالَ النَّوَوِيُّ "حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ "الْحُجَّة" بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ".

(الشرح)

هذا الحديث وإن كان في كلامه مقال عند جمع من أهل التحقيق، وصحح إسناده النووي رَحِمَهُ اللهُ تعالى، دل على ذم الهوى، ودل على أن من اتبع هواه في الرضا بالكفر والشرك، والرضا بالتحاكم إلى غير ما أنزل الله وإيثاره على كتابه الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تفضيله عليه؛ فإن هذا ينتفي به الإيمان في أصله، ولهذا قال: **(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ)** وقد يكون الهوى مما ينقص باتباعه الإيمان فيكون بذلك نفي لكمال الإيمان كمن يؤثر المعاصي والذنوب والسيئات، وهو لا يستحلها؛ لأن ينقص إيمانه كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»، فهذا فيه بيان خطر الكبائر والذنوب واتباع الهوى في نقص الإيمان، وما يفضي إليه من زوال الإيمان إذا استحها واستحلها أو رضي بالشرك والكفر أو دعا إليه، ومن ذلك الحكم بغير ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا، فدلت هذه الآية على وجوب محبة ما أنزل الله، وأن هذا من حقيقة التوحيد، ووجوب الرضا به والتسليم له، وإيثاره، والعمل به، ودلت على أن من أبغض ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا أو أبى الانقياد إليه واتبع هواه، أو فضل غير كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وما نزل على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن هذا ينتفي به الإيمان ويخرج به من الإسلام.

(المتن)

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَاخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لَعِلمَهُ أَنَّهُمْ يَاخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَاتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 60]، الآية.

(الشرح)

هذه الآية تقدم ذكر معناها، وقول الشعبي رَحِمَهُ اللهُ فيه بيان سبب نزول هذه الآية، وهي آية نزلت في المنافقين الذين يزعمون الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا وبما أنزل على رسوله، ولكن يفضلون غير ما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفصل فيما يقع بينهم من الخصومات اتباعًا للأهواء، وإيثارًا لغير حكم الله، وحكم رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فدل على أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا مما يناقض الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا والإيمان برسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودل على أن المنافقين يسعون في إزالة حكم الله جَلَّ وَعَلَا وتغييره وتبديله، وأنهم في حقيقة حالهم أنهم يكفرون بالله ويؤمنون بالطاغوت؛ لأن إيمانهم إيمانًا مزعومًا.

(المتن)

وَقِيلَ "نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اِخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ الْآخَرُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَذَلِكَ؟ قَالَ نَعَمْ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ".

(الشرح)

هذا فيه بيان أن الرجل يخرج من الإسلام بما دون الشرك، وهي خصال الكفر والردة، كمن أبى الانقياد للشريعة أو ردها، أو قدح بها، أو أنكرها، أو فضل غير عليها، ومثل ذلك من أتى بغيره من النواقض التي تنقض الإسلام والإيمان، فدل على أن قول الرجل: لا إله إلا الله، وشهادته أن محمد رسول الله لا تنفي عنه الكفر إذا وقع بما ينقضها، ودل على أن الكفر يكون بالقول كما يكون بالعمل، كما يكون بالاعتقاد، وليس ذلك مرده إلى الاعتقاد دون القول والعمل، ودل أيضًا على حد الردة، وأن المرتد يُقتل من قبل إمام المسلمين.

ودل على أن التحاكم بما أنزل الله بالرضا بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتسليم لهم أن هذا من حقيقة التوحيد، من حقيقة الإيمان، وأن الرضا بغير ما أنزل الله،

وإيثاره على ما أنزل الله، وتفضيله عليه أن هذا من الردة عن دين الإسلام، ولهذا قتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الرجل الذي لم يرض برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه أيضًا مشروعية الغضب لله جَلَّ وَعَلَا، وإنكار المنكر باليد والله أعلم، نسأل الله أن يثبتنا على دينه ويحيينا على ملته ويقبضنا على الإيمان به.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (40)

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

(الشرح)

لما بين رَحِمَهُ اللهُ تعالى ما يتعلق بتوحيد العبادة، وما يتضمنه من مسائل لابد لكل مسلم معرفتها؛ فإنه ذكر رَحِمَهُ اللهُ نوعًا من أنواع التوحيد الذي لا يصح إسلام ولا إيمان إلا بالإقرار به، وهو توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الأسماء والصفات أن يوحد المسلم ربه بأسمائه الحسنى وصفات العلا، وذلك أن يثبت لله جَلَّ وَعَلَا ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات على وجه الكمال اللائق به سبحانه، إثباتًا من غير تشبيه، وينفي عن الله جَلَّ وَعَلَا ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويكون ذلك أيضًا على وجه الكمال، نفيًا وتنزيهًا بلا تعطيل، هذه قاعدة أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، فأثبت ونفى.

قوله: **(مَنْ جَحَدَ)** يعني أنكر أو رد **(شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ)** يعني من أنكر الصفة، وأنكر الاسم الثابت لله جَلَّ وَعَلَا فإنه يكفر بذلك، كحال المعطلة النفاة، والجهمية، والمعتزلة.

(المتن)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: 30]، الْآيَةَ.

(الشرح)

هذه الآية وهي قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30]، قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ [الرعد: 30]، هذا فيه إثبات لاسم الله جَلَّ وَعَلَا وهو الرب، وإثبات لصفاته

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأسمائه، ومن ذلك اسم الإله وما تضمنه من الصفة العظيمة وهي الإلهية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيضًا اسم الله جَلَّ وَعَلَا الرب وما تضمنه من صفة الربوبية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك متضمن لأنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وكذلك توحيد الأسماء والصفات، هذا مما دلت عليه هذه الآية، وكان المشركون يجحدون اسم الله جَلَّ وَعَلَا الرحمن، أو يجحدون استحقاق الله جَلَّ وَعَلَا بإفراده بالعبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالله جَلَّ وَعَلَا أمر نبيه أن يعلن التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنه لا معبود بحق إلا الله جَلَّ وَعَلَا في علاه، ومع إعلانه للتوحيد وإظهاره للعقيد فإنه يجب عليه ألا يخاف فإنه عبدٌ لله، لا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله؛ بل يتوكل على الله ويتوب إليه ويرجع إليه، ويكون أمره باستسلامه لله جَلَّ وَعَلَا في الشرع وفي القدر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا لغيره، وهذا هو ما يجب على العبد من الأوبة إلى الله والتوبة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فدلت هذه الآية العظيمة على أن جحد شيء من صفات الله جَلَّ وَعَلَا أو أسمائه وردها وإنكارها أن هذا كفر بالله، ثم قال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: 30]، فدل هذا أيضًا على وجوب الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا وأسمائه وصفاته، والتوكل عليه والإخلاص له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!".

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ "أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً اِنْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ اِسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟! " اِنْتَهَى.

(الشرح)

هذان الأثران ذكرهما رَحِمَهُ اللهُ تعالى عن علي وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ليبين أن الحديث في الصفات، صفات الله جَلَّ وَعَلَا، وبيان الأدلة على أن الله جَلَّ وَعَلَا له الأسماء المتضمنة صفاتًا لائقة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبيان ذلك للعامة والخاصة، أن هذا مما يجب بيانه؛ لأن هذا من التوحيد، وليس هذا مما لا يعلم الناس إياه وأخذ بأثر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:**(حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ)** فإن مما يجب أن يعرفوه هو ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه وصفاته وأفعاله، وما هو من خصائصه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من العبادة اللائقة به وحده لا شريك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا يدل على وجوب بيان أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته، ولهذا قال ابن عباس: **(مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟)** يعني ما الذي حمل هذا الرجل على أن يستنكر أو أن ينتفض أو أنه لا يطمئن قلبه إلى ما أرشد إليه من صفات الله جَلَّ وَعَلَا؟! ولهذا أنكر عليهم؛ قال: **(يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ)** بعض الناس إذا حُدث بالوعد والوعيد والجنة والنار والموت ونحو ذلك؛ فإنه يطمئن بالقرآن ويطمئن بالإيمان، وإذا حُدث بغير من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعوت جلاله جَلَّ وَعَلَا أو غير ذلك من مسائل الاعتقاد التي يجب عليه أن يتعلمها؛ فإن قلبه يضطرب وهذا من وسوسة الشيطان التي يجب على المسلم أن يتعوذ بالله منها، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200].

ويجب على طالب العلم والمعلم إذا علم العام صفات الله جَلَّ وَعَلَا أيضًا يجب عليه أن يكون في ذلك حكيمًا عليمًا، فهو يرشدهم بالعلم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك أن يكون حكيمًا في عرض دعوته كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

فإنه يعلم العوام ما يحتاجون إليه من هذا العلم، فإذا كان منهم من قد اختلطت عليه عقيدته ممن يخالط أهل البدع من المعطلة، أو النفاة، أو أهل التأويل؛ فإنه لا بأس مع تعليمه إياهم صفات الله جَلَّ وَعَلَا وأسمائه ونعوت جلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن يبين لهم بطلان ما عليه أهل الشبه من الآراء الفاسدة والعقائد الكاسدة الضالة مما خالف الكتاب والسنة، لأن كشف هذه الشبه من تحقيق العلم عند هؤلاءالعامة، أما إذا كان العامة قد سلموا من هذه الفتن وهذه الآراء الضالة؛ فإنه يثبتهم على أصول الدين ومحكماته التي يحتاجون إليها، ولا يثير عندهم الأقوال المبتدعة التي لم تصل إلى أسماعهم، لماذا؟ لأن في إثارة ذلك ما قد يكون سببًا للحرج في قلوبهم، لعدم استيعابهم تلك الشبهة والجواب عليها، فيكون لبعضهم فتنة، وإنما الخير لمثل هذه الطبقة من الناس هو أن يقرءوا كتاب الله، وأن يعلموا معانيه، ويثبتوا على محكماته وأصوله، وينفروا من البدع وأهل البدع، ويحذروا مما خالفوا المعاني الصحيحة لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسماء الله وصفاته وغير ذلك؛ حتى يثبتوا على ما فطرهم الله عليه من صحيح الاعتقاد والعمل.

(المتن)

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: 30].

(الشرح)

هذا الأثر ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى لبيان ما كان عليه المشركون لما كتب كاتب رسول اله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمره في صلح الحديبية بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فأنكروا اسم الرحمن؛ فقالوا: أما الرحمن فلا ندري، فأنكروا اسم الرحمن لله جَلَّ وَعَلَا، فنزلت هذه الآية، فكل من أنكر الأسماء والصفات وجحدها وردها فهو على هذه الملة المنحرفة الحائدة عن أمر الله جَلَّ وَعَلَا وأمر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مما يجب على كلّ مؤمن ومسلم الإقرار به، والإيمان به، والإذعان له من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا وصفاته، وتبين من هذا وجوب الإيمان بأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته، وتبين أن الله جَلَّ وَعَلَا له الأسماء الحسنى، وأنه موصوف بصفات الكمال جَلَّ وَعَلَا، وأن هذه الأسماء بتعبدها فكل اسم دال على الذات، أو دال على الله جَلَّ وَعَلَا، وكلّ اسم أيضًا دال على معنًى يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي أسماء متضمنة لصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينه وأن يحيينا على ملته، وأن يقبضنا على الإيمان به.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (41)

باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: 83].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: 83]، الْآيَةِ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب، وذلك أن تدبير الأمور، تصريف الكون إنما هو من أفعال الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن توحيد الربوبية أن يوحد العبد ربه بفعل الرب، ومن ذلك أن يُقر أن الأمر كله لله، فينسب الفضل والنعم والتدبير والتصريف لله جَلَّ وَعَلَا وليس لخلقه، وإن كان بعض المخلوقين يكونوا سببًا في فعلٍ من خيرٍ أو شر، ولكن على المؤمن تأدبًا مع الله جَلَّ وَعَلَا أن ينسب الأمر إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا أصابته نعمة حمد الله وأضافها إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ولم يضفها إلى المخلوق وإن كان المخلوق سببًا حقيقيًا في ذلك، فهذا من تحقيق التوحيد.

والآية التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وهي قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: 83]، هذه الآية دلت على أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المنعم على عباده، كم قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، ودلت أيضًا على أن المشركين يؤمنون بالربوبية، ويعرفون الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه هو المنعم على عباده، المصرف لأحوالهم، ومع ذلك لما كانوا مشركين في العبادة لم ينفعهم إيمانهم بذلك، وهذا يبين معنى التوحيد، ومعنى الشرك، وأن العبد وإن كان يقر لله جَلَّ وَعَلَا بربوبيته فإن هذا لا يكفي إلا أن يقر لله جَلَّ وَعَلَا بإلهيته، فيفرد العبادة لله وحده لا شريك له، ويكفر بما يعبد من دون الله، وقد تقدم ذلك.

قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: 83]، أراد بذلك جهة أنهم جحدوا نعمة الله جَلَّ وَعَلَا، وأضافوها إلى معبوداتهم، وهذا من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، فدل على أن نسبة النعم لله من تحقيق التوحيد، ونسبتها لغير الله من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الواجب على العبد أن

يوحد الله في ربوبيته كما يوحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في إلوهيته، وأن مما ينقض ذلك أن تنسب شيءٌ من النعم لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ**» الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى وقد تقدم، وفيه نسبة المطر إلى الأنواء والنجوم؛ فإن هذا من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي ينزل الغيث وهو المنعم على عباده بذلك، وأما من نسب المطر والغيث إلى النجوم، فاعتقد أنها هي الفاعلة وهي التي ببركها ينزل المطر والغيث؛ فإن هو الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا والكفر به المخرج إلى الملة.

(المتن)

"وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ".

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ هُوَ كَقَوْلِهِمْ كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا. وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

(الشرح)

فتبين من هذا أن من قصد أنه نجا من الغرق بفعل الملاح، فعل الملاح وفعل الريح، وأنها فاعلة بذاتها، وأنها لولاها لغرق وهلك؛ فإن هذا من الشرك الأكبر نسأل الله العافية والسلامة، وأما إن لم يقصد ذلك وإنما قصد أنها سبب من الأسباب، فأضاف النعمة إليها، فهذا شرك أصغر، ولهذا قال العلماء: بذل الأسباب مشروع، والاعتماد عليها شرك، وتركها نقص في العقل، لذلك نسبة الفضل إلى الأسباب هذا من الشرك الأصغر، أسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينه وأن يحيينا على ملته ويقبضنا على الإيمان به.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (42)

باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لبيان جملة من الألفاظ الشركية التي تنافي التوحيد، وذلك أن من تحقيق التوحيد أن يحقق المسلم توحيد الله جَلَّ وَعَلَا في قوله، كما يحقق المسلم توحيد الله جَلَّ وَعَلَا في فعله، كما يحقق المسلم توحيد الله جَلَّ وَعَلَا في اعتقاده، يخلص نفسه اعتقادًا وقولًا وعملاً من الشرك الأكبر، والشرك الأصغر.

قوله: **(بَابٌ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا)** أي نظراء وأشباه تصرف لهم العبادة من دون الله، أو يجعل لهم ما هو لله جَلَّ وَعَلَا، ما هو من خصائصه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: **(وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)** يعني تعلمون أن الله هو الواحد الذي لا ند له ولا نظير له ولا شبيه له، ولا كفء له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأول هذه الآية هي قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 21 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21، 22].

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، يبينها قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، فهم يعلمون أن الله هو المدبر، وهو القاهر لمن سواه، وهو الخالق لكل شيء، ولا يعزب عن أمره شيء في الأرض ولا في السماء، ومقتضى هذا العلم أن يستجيب المسلم لله جَلَّ وَعَلَا، فيوحده ويؤمن به، ويخلص نفسه ويسلمها ويبرئ نفسه من كلّ ما يكون نقيض ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به من توحيده وهو الشرك اعتقادًا وقولًا وعملاً.

(المتن)

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ "الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا: لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ، لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلِ الرَّجُلِ لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ" رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(الشرح)

هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبين أن الشرك وإن كان مما لا يخرج من الإسلام، مما هو من الشرك الأصغر هو من جعل غير الله ندًا لله، وهذا يبين عظيم أمر الشرك وخطره، وأن الآيات الواردة في بيان الشرك الأكبر تنزل على الشكر الأصغر تعظيمًا وتشديدًا لهذا الفعل الخطير والجرم الكبير وهو الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ)** أراد بذلك أن المرء قد يقع في الشرك وهو لا يشعر، وهو لا يدري، وهو لم ينتبه لقوله أو فعله، أو اعتقاده فيقع فيما حرمه الله عَزَّ وَجَلَّ عليه من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، وهذا يدل على خطر الشرك، وأنه قد يكون خفي حتى لا ينتبه له صاحبه، وهذا يوجب شد التحرز من الشرك بالله، وشدة التحذير منه، وشدة الحرص على الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى لا يحبط العمل.

ثم إن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بيّن أنواعًا من هذا الشرك الخفي الخطير، قال: **(وَهُوَ أَنْ تَقُولَ وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي)** أراد بهذا الحلف بغير الله؛ لأن من حلف بغير الله فقد أشرك؛ لأنه أشرك بالله جَلَّ وَعَلَا المخلوق بالتعظيم، فرفعه بمنزلة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليكون ذلك معقد الفعل أو الترك، وهذا الحلف إن كان أراد به الحالف أن المخلوق له من المنزلة والمكانة ما لله؛ فهو شرك أكبر، وإن كان أراد بذلك الحظ والمنع ولم يكن قد رفع المخلوق في منزلة الله جَلَّ وَعَلَا الذي بيده تدبير الأمور؛ فهذا من الشرك الأصغر، نسأل الله العافية والسلامة.

ومثل ذلك قول الرجل: **(لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا: لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ، لَأَتَى اللُّصُوصُ)** فيجعل ما كان قد قدره الله عَزَّ وَجَلَّ عليه من النعم، أو ما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ له من دفع النقم يجعل ذلك من نعمة المخلوق، وفضله عليه؛ فإن هذا من الشرك الأصغر، أما إن اعتقد أن هذا من المخلوق بتدبيره وتصريفه، وأنه في ذلك له ما لله جَلَّ وَعَلَا؛ فإن هذا من الشرك الأكبر وقد تقدم.

تبين من هذا أن الواجب على المسلم أن يحذر من شرك الألفاظ، ويعلم أن الشرك في الألفاظ مما قد يؤول إلى الخروج من الدين، والمروق من الإسلام، نسأل الله العافية والسلامة، فإنه لا يكفي أن تعتقد أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المدبر المصرف، ثم جعل للمخلوق ما لله جَلَّ وَعَلَا في ألفاظك، أو أنك تنسب النعمة إلى المخلوق، أو تجعل له مشيئة مع مشيئة الله جَلَّ وَعَلَا فتقولك لولا الله وفلان، أو ما شاء الله وشئت، فإن هذا كله من التشريك الذي وردت النصوص بالتحذير منه، وبيان أنه من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، مما قد يؤول إلى الكفر بالله والشرك به.

(المتن)

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

(الشرح)

أراد بهذا الحديث أن من أقسم بغير الله جَلَّ وَعَلَا وعقد يمينه للمخلوق؛ فإنه قد جعل هذا المخلوق شريكًا لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، ويقتضي إجلاله، ويقتضي أن يدفع المكروه به أو تجب المنفعة به، وهذا لله جَلَّ وَعَلَا وحده، ومن حلف بغير الله فجعله في منزلة الله جَلَّ وَعَلَا وعظمه كما يفعل المشركون بتعظيم معبوداتهم، فيحلفون باللات والعزى، أو غيرهم ممن يشركونه مع الله جَلَّ وَعَلَا من الأولياء والصالحين؛ فإن هذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة، أما ما دون ذلك فهو من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا الأصغر الذي يقدح في كمال التوحيد، وقد يؤول إلى الخروج من الإسلام، نسأل الله العافية والسلامة، وهذا يبين خطر الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا وإن كان صغيرًا مما لا يخرج من الملة.

فيبين هذا وجوب تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا، وأن لا يحلف المسلم بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتبين أن الحلف هو من التعظيم الذي هو حقٌّ لله خالصٌ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقدس.

(المتن)

وَقَالَ اِبْنُ مَسْعُودٍ "لِأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا".

(الشرح)

هذا الأثر العظيم يبين فيه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطر الحلف بغير الله جَلَّ وَعَلَا وإن كان بصدق، وذلك لأن الحلف بغير الله شرك بالله، وأما الحلف بالله جَلَّ وَعَلَا مع الكذب فيما عقد يمينه عليه؛ فإن هذا ذنبٌ عظيم، معصية من المعاصي التي توجب التعزير والتأديب،

وتوجب الإثم الكبير نسأل الله العافية، ولكن ذلك دون الشرك؛ فإن الشرك ولو كان من الشرك الأصغر الذي يخرج من الملة؛ فهو من أكبر الكبائر، فهذا يبين خطر الحلف بغير الله، وأن الحلف بغير الله شرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

ويبين أيضًا أن الشرك الأصغر وإن كان لا يخرج من الملة إلا أنه أعظم من كبائر الذنوب كالكذب وغيره، وفي ذلك أيضًا فقه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك لمعرفته خير الخيرين وشر الشرين، والفقيه من عرف ذلك.

(المتن)

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ "أَنَّهُ يَكْرَهُ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ" قَالَ "وَيَقُولُ لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ".

(الشرح)

هذا الحديث حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والأثر عن إبراهيم النخعي فيه بيان أن الله جَلَّ وَعَلَا يجب تعظيمه، ولا تعطف مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق جَلَّ وَعَلَا، ولا يُعطف الامتناع امتناع المخلوق ومنعه للمخلوق بما هو من فعل الرب؛ بقولك: لولا الله وأنت، وإنما يقال: لولا الله ثم فلان، أو ما شاء الله ثم شاء فلان، أو أعوذ بالله ثم بك، فإن هذا كله لا بأس به على هذا والوجه؛ فإن للمخلوق مشيئة، ولكن مشيئته تابعة لمشيئة الله جَلَّ وَعَلَا، وهي مشيئة لائقة بنقصه، وكذلك المخلوق، وفيما يقدر عليه يعيذه المخلوق كما ورد في الحديث: «**من وجد معاذًا فليعذ به**».

وأما ما لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا فإنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، كمن يستعيذ بالأموات، ويستعيذ بالغائبين؛ فإن هذا كله من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، فهذا يبين عظيم أمر التوحيد، وخطر الشرك، وأن الرجل قد يقع في الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا في أمر دقيق لم ينتبه له، يظن أنه قال قولًا مباحًا، أو جائزة وهو قد وقع في أكبر الكبائر وأعظم الذنوب، كقوله: ما شاء الله وشئت، أو لولا الله وأنت، أو قوله: أعوذ بالله وبك، كلّ هذا من التشريك في الألفاظ.

وقد تقدم أن من اعتقد أن المخلوق في مثل هذه الحالة بمنزلة الله جَلَّ وَعَلَا في تدبيره وتصريفه أن هذا مما يخرج إلى الملة، وهذا كله يبين وجوب الحرص على التوحيد، وتعلمه،

ومعرفته، والدعوة إليه، والتحرز له قولًا وعملاً واعتقادًا، والحذر من الشرك، والتحذير من معرفة الشرك، ومعرفة أنواعه وما يكون من أثره من الخروج من الإسلام والإيمان ونقصه أو نقضه، فهذا الواجب على المسلم أن يتعلمه حتى لا يكون ممن نقض دينه وهو يحسب أنه يحسن صنعًا.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (43)

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللَّهِ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لبيان أن عدم الرضا بالحلف بالله مما ينافي كمال التوحيد، ومن تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا أن من حلف له بالله فإنه يرضى بذلك، وذلك إذا كان الحلف بالله جَلَّ وَعَلَا كان من أهل التقوى المعظمين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كذلك عقد هذا الباب ليبين مما يحمل على الحلف بغير الله عدم تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك من جهة الحالف، أو من جهة المحلوف له، فإن عدم تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا ممن حُلف له بالله قد يحمل الحالف على أن يحلف بغير الله جَلَّ وَعَلَا.

(المتن)

عَنْ اِبْنِ عُمَرَ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ، فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ» رَوَاهُ اِبْنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

(الشرح)

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ)** في هذا نهي عن القسم بالآباء، وهذا كان من عمل أهل الجاهلية، وقوله: **(مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ)** يعني يجب عليه أن يكون صادقًا فيما عقد اليمين عليه؛ لأن الصدق واجب، وإذا كان حلفًا بالله جَلَّ وَعَلَا فإنه يتأكد، ولأن الحلف بالله جَلَّ وَعَلَا والصدق في ذلك هو من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأن الكذب بالحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحمل المحلوف له على أن يهجر حق من حلف بالله جَلَّ وَعَلَا وإن كان صادقًا، لعلمه أن

من الناس من يستهين بالله عَزَّ وَجَلَّ، فيحمله استهانته بالله جَلَّ وَعَلَا وضعف تعظيمه على أن يحلف به كاذبًا، فيكون ذلك سبب رد قوله وإن حلف بالله، وإن كان قوله صدقًا، وهذا من ضعف الإيمان.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ، فَلْيَرْضَ)**، وقوله: **(وَمَنْ حُلِفَ لَهُ)** أي عقد اليمين له، **(بِاللَّهِ)** أي تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بألفاظ الحلف **(فَلْيَرْضَ)** يعني فليقبل تعظيمًا لله؛ لأن هذا من تحقيق التوحيد، وذلك إذا عُلم أن من حلف بالله جَلَّ وَعَلَا ليس من عادته الكذب في حلفه.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ)** وهذا فيه وعيد أن الله جَلَّ وَعَلَا تبرأ منه، نسأل الله العافية والسلامة.

كما ورد مثل ذلك في آيات كثيرة، وأيضًا في السنة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: 28]، وهذا نظير هذا المعنى، وهو دال على الوعيد الشديد، وأن الله جَلَّ وَعَلَا بريء منه ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه، ومثل ذلك ما ورد في السنة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من غشنا فليس منا**»، وغير ذلك من النصوص، فهذا يدل على وجوب تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا ووجوب الصدق في الحلف بالله جَلَّ وَعَلَا، وأن هذا من تعظيم الله، ويدل على التشديد فيمن حلف بالله عَزَّ وَجَلَّ كذبًا، وأن هذا من الاستهانة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأيضًا دل على أن الصدق في الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ يحمل على تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ عند الحلف به، وقبول القول، وأما الكذب في ذلك؛ فيحمل الناس على رد اليمين وإن كانت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيكون الحالف بالله كذبًا متسببًا في عدم قبول الناس لليمين بالله جَلَّ وَعَلَا وإن كان عاقدها صادقًا، وهذا حملٌ على الاستهانة بهذه اليمين المعظمة.

وأيضًا يدل على أن من تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا قبول يمين الرجل بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا عُلم صدقه، وعُلم حاله، وأن من عادته الصدق، وليس ممن عُهد عنه الكذب، أسأل الله أن يثبتنا على دينه.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (44)

باب قول ما شاء الله وشئت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ قَوْلُ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليحذر من جملة من الألفاظ الشركية التي تنافي التوحيد.

(المتن)

عَنْ قُتَيْلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَأَنْ يَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

(الشرح)

هذا الحديث فهي النهي عن عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق على وجه التشريك، وأن هذا من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيه أيضًا أن من رتب مشيئة المخلوق بعد مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنها داخلة ضمن مشيئة الله، وأن المخلوق وإن كان الله جَلَّ وَعَلَا جعل له مشيئة، إلا أن مشيئته بعد مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن هذا هو الصواب كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ 28 وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 28، 29].

لذلك فيه بيان أن الحلف بغير الله من الشرك، وأن الواجب على المسلم أن يعظم الله، وأن من تعظيم الله، ومن توحيد الله، ومن تحقيق ذلك أن لا تحلف إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما تقدم في الحديث: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، أن الشرك الأصغر مما ينافي التوحيد، وأن الرجل قد يدخل في الشرك وهو قد فعل ما هو من عظيم الجرائم والكبائر بلفظه، كما أنه قد

يدخل في الشرك وقد يكون قد فعل ذلك في اعتقاده، وكذلك في قوله وعمله، فهذا يبين دقة التوحيد، وخطر الشرك، ووجوب التحرز منه، كما يبين أن اليهود يعرفون التوحيد، ويعرفون الشرك، ومن معرفتهم بذلك، معرفتهم بالشرك الأصغر.

كذلك مما يدل عليه هذا الحديث أن الواجب على المسلم أن يتق الله جَلَّ وَعَلَا إذا عُرض له الحق فيقبله، وإن قال به من قال فهو في دينه، أنه يقبل الحق، ولهذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل هذا من رجلٍ يهودي، ولهذا قال في هذا الحديث: **(إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَأَنْ يَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ)** هذا فيه وجوب التواضع للحق، وقبوله ممن جاء به.

(المتن)

وَلَهُ أَيْضًا عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ "أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ! مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ"».

(الشرح)

هذا أيضًا فيه بيان أن من شرك بين مشيئة المخلوق، ومشيئة الله جَلَّ وَعَلَا قد جعل المخلوق ندًا لله، والند هو النظير والشبيه، وهذا من الشرك الأصغر، فإن مشيئة المخلوق داخلة تحت مشيئة الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا يبين معنى قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: **(بَلْ! مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)** فإن مشيئة المخلوق داخلة في مشيئة الله جَلَّ وَعَلَا، تبين أن كلّ أمرٍ فهو بيد الله، وكلّ قضاء فهو قضاء الله، وكلّ خلق فهو من مشيئة الله، هذا هو الواجب على كلّ مسلم أن يعتقده، فينتهي عن هذه الألفاظ التي تقدح في التوحيد، في كماله، أو قد تخرج من الإسلام، نسأل الله العافية والسلامة، بقدر ما قام في قلب العبد.

أيضًا هذا الحديث وقوله: **(أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟)** فيه القول على من غلا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورفعه إلى منزلة، وهي منزلة الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح عيسى بن مريم، إنا أنا عبد الله ورسوله**»، فهذا فيه سد الذرائع المفضية إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى حمى التوحيد.

وأيضًا مما يدل عليه هذا الحديث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن قدر، لهذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر هذا القول إنكارًا شديدًا، أنكر هذا القول وحذر منه.

(المتن)

وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا; قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ; قُلْتُ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ قَالُوا وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنْ النَّصَارَى فَقُلْتُ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ قَالُوا وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ "هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟" قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ "أَمَّا بَعْدُ; فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ وَأَنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا; فَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ"».

(الشرح)

فهذا الحديث العظيم فيها بيان أن الألفاظ يكون منها ما يخرج من الإسلام، أو ما ينقص به الإيمان، وينقص به التوحيد، مثل قول الرجل: (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ)، فإن قوله: (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ) فيه تشريك المشيئة، مشيئة المخلوق بمشيئة الخالق، وهذا من الشرك؛ لأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الخالق كما تقدم.

مما دل عليه هذا الحديث وجوب الاعتناء بالتوحيد وتحقيقه، والتحذير من الأسباب التي تنقضه أو تنقص كماله، فإن هذا من أعظم ما يعتني به المسلم.

أيضًا مما يدل عليه هذا الحديث أن الرؤى مما يستأنس بها في معرفة دلائل الحق، ومعرفة دلائل الباطل، وإن كانت ليست دليل، وإنما الدليل في معرفة الحق والباطل هو كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان على ذلك من عمل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وسلف هذه الأمة، ولكن الرؤى تبشر المؤمن إذا كان عاملاً بالحق داعيًا إليه، تحذره إذا كان عاملاً بالباطل وداعيًا إليه، فيرى في ذلك ما يحمله على الثبات على الحق أو ترك الباطل، وهذا يتضمن وجوب الاعتناء بالرؤية، وتفسيرها عند من يوثق بحسن تأوليه وأمانته وديانته.

أيضًا مما دل عليه هذا الحديث أنه يشرع في الأمر المحمود شرعًا من الدعوة إلى الله، ونشر الخير، والتحذير من الشرك، أن يبدأ ذلك بالحمد لله رب العالمين، الحمد لله والثناء عليه كما ورد في ذلك الأخبار والآثار، ومن ذلك أن كتاب الله مبدوء بالحمدلة، أول سورة من كتاب الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

كذلك ما ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ بسم الله الرحمن الرحيم، أو الحمد لله رب العالمين فهو أبتر أو أقطع»**.

أيضًا مما دل عليه هذا الحديث: أن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله جَلَّ وَعَلَا، وأن من تحقيق التوحيد والأدب مع الله جَلَّ وَعَلَا أن تجعل المشيئة لله جَلَّ وَعَلَا، فتقول: ما شاء الله، تقول: بمشيئة الله، وهكذا، هذا من تحقيق التوحيد، أسأل الله أن يثبتنا على دينه.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (45)

باب من سب الدهر فقد آذى الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لأن سب الدهر سب الليل والنهار، وسب ما يقضيه الله عَزَّ وَجَلَّ على عبده من مصائب أن هذا مما ينافي التوحيد؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو الفاعل؛ الذي يدبر الأمر، ويقلب الليل والنهار، وهو الخالق للأشياء المقدر لها خيرها وشرها، ولهذا من تحقيق التوحيد أن العبد إذا أصابه ما يكره أن يحمد الله جَلَّ وَعَلَا أنه لم يصبه ما هو أعظم من ذلك، وعليه أن يسترجع كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]، وهذا هو الواجب على المؤمن.

وكذلك يصبر؛ كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن أن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**».

(المتن)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24]، الْآيَةَ.

(الشرح)

هذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى لبيان ما عليه أهل الجاهلية من سب الدهر، وأن الدهر هو الذي يفني الناس، وهو الذي يهلكهم، وأنه هو الذي يفعل بهم ما يجري عليهم من الشرور، والنقص في الأموال والأولاد.

وقوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الجاثية: 24]، يعني إنكار للبعث بعد الموت، وأنه لا يوجد إلا حياة واحدة هي الحياة الدنيا، فهذا من حال أهل الجاهلية وهو ذمهم لهذه الحياة وما يكون من قضاء الهل عَزَّ وَجَلَّ عليهم، مما يكون في الزمن والليل والنهار من القضاء؛ فإنهم يجعلون ذلك من فعل الدهر الذي يفني الناس، ويكون سببًا في نقص أموالهم وأولادهم، فهذا كله مما هو يناقض التوحيد، وذلك أن الذي يحيي ويميت ويدبر الأمر والذي هو خلق الليل والنهار، وخلق ما فيهما هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يجب تعظيمه.

(المتن)

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فِإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ».

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى لبيان أن سب الدهر، وسب الليل والنهار وما فيهما من أقدار الله جَلَّ وَعَلَا إما هو من عموم المصائب والمكائره التي يكرهها ابن آدم أن هذا يقتضي القدح في حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المؤمن يعلم أن الله هو الذي يقلب الليل والنهار، وهو الذي يدبر الأمر، وهو سبحانه في كلّ ذلك حكيم في خلقه، عليم فيما دبر عباده عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا يتبين فيه أن المؤمن عليه أن يحذر من هذه الصفة الجاهلية.

قوله: **(يُؤْذِينِي)** أي يتنقصني، وقوله: **(يَسُبُّ الدَّهْرَ)** تقدم وهو أنه يذم ما يقع في الليل والنهار من الأقدار، وقوله: **(وَأَنَا الدَّهْرُ)** يعني أنا أخلق الليل، أنا الذي يدبر الأمر، أنا صاحب هذا الكون المدبر له الملك، الذي لا يخرج عن ملكي ولا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا ليس فيه من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا الدهر، وإنما فيه بيان أن الدهر خلق من مخلوقات الله وأن الله جَلَّ وَعَلَا هو المدبر له، الخالق له، القاضي ما يجري على العباد فيه من خير أو شر.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (46)

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب، لبيان أن المسلم عليه أن ينزه لفظه عما ينقص به توحيده، وأن مما يقدح في التوحيد ما يكون في الألفاظ، كما يقدح في التوحيد ما يكون في الاعتقاد والعمل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ)** وهذا لفظ فيه تعظيم للقضاة، وفيه تعظيم للقاضي الأول الذي يرجع إليه القضاة، ويكون رئيسًا عليهم وأميرًا عليهم، فيسمى قاضي القضاة، وهذا ورد فيه النهي في هذا الباب مما عقده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى أن الذي يقضي على القضاة والذي يملك الأملاك ويدبر الأفلاك هو الله جَلَّ وَعَلَا، مثلما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

ومن التأدب مع الله جَلَّ وَعَلَا ومن تعظيمه ومن تحقيق التوحيد التنزه عن مثل هذه الألفاظ، وهذا من الأدب الواجب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«إِنَّ أَخْنَعَ اِسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلَكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهَ».**

قَالَ سُفْيَانُ مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ.

وَفِي رِوَايَةٍ: **«أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ».**

قَوْلُهُ: "أَخْنَعُ " يَعْنِي أَوْضَعَ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى وهو رواه البخاري ومسلم، يبين فيه عظم ذنب وقبح الفعل الذي يرتكبه من تسمى بهذا الاسم وهو ملك الأملاك، أو نحو ذلك من الأسماء التي يعظم فيها البشر؛ فيوصفون بما هو نظير أوصاف الله جَلَّ وَعَلَا، مما لا يليق بالمخلوقين، ولهذا مثل هذا اللفظ وهو قولك: ملك الأملاك أو قاضي القضاة أو ملك الملوك ونحو ذلك هذا مما لا ينبغي أن يُطلق على المخلوقين؛ لأن هذا مما ينافي التوحيد وينقصه، وقد يفضي إلى الخروج من الإسلام، إن اعتقد أن هذا المخلوق الذي أُطلق عليه مثل هذه الألفاظ له ما لله من الملك والتدبير التصريف، فإن هذا من الشرك في الربوبية المخرج من الإسلام.

وتبين من هذا أن الشرك قبيح، وأن المشرك يوصف بأوصاف الذنب، ويوصف بأوصاف التقبيح، والتحذير والتنفير؛ حتى ينفر الناس ويبتعدوا عن مثل هذه الأفعال التي تجلب غضب الله جَلَّ وَعَلَا في علاه سبحانه وتقدس.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ اِحْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن من تحقيق التوحيد تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا بتعظيم أسمائه، وألا يسمى المخلوق بها، وأن تسمية المخلوق بأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذا مما ينافي التوحيد.

(المتن)

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «"إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ" فَقَالَ إِنَّ قَوْمِي إِذَا اِخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ فَقَالَ "مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟" قُلْتُ شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللهِ قَالَ فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ شُرَيْحٌ قَالَ "فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ"» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى لبيان حادثة وقعت لأبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من حكماء الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، كني بأبي الحكم، يعني الذي يحكم بين الناس، ولهذا نهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الكنية، ونهى عن هذا الاسم؛ لأن الحكم الذي يحكم بين العباد على وجه الإطلاق، وعلى وجه الكمال هو الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 10].

والله جَلَّ وَعَلَا من أسمائه الحكم، ومن أسمائه الحكيم، ومن صفاته الحكم بين العباد، ومن صفاته الحكمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الحاكم الذي إذا حكم لا يرد حكمه، دل على أن الاسم

إذا تضمن ما يقدح في التوحيد أصلاً أو كمالًا فإنه ينبغي تغييره، كذلك تلك الأسماء التي تتضمن معاني قبيحة قد تحمل على ما هو مخالفة الشرع؛ فإنه يشرع تغييرها، كما غير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسماء جملة من أصحابه، كما غير اسم حزن إلى سهل، وغير ذلك.

كذلك فيه مشروعة التكني، وأيضًا فيه مشروعة التكني باسم الولد الأكبر، وأيضًا فيه وجوب تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا وأن لا يتكنى المسلم بأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيضًا مما يدل عليه هذا الحديث مشروعية الصلح والتحكيم بين المتخاصمين، فإذا لم يكن ذلك الصلح أو ذلك الحكم مما ينافي حكم الله جَلَّ وَعَلَا أو ينقضه.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب في بيان حكم الاستهزاء، والهزؤ، والهزل بالقرآن وبالسنة أو بشيء مما عظمه الله عَزَّ وَجَلَّ من أمره أو نهيه أو خبره، مما ورد في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صح في ذلك، وأن هذا مما ينافي التوحيد.

(المتن)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: 65]، الْآيَةِ.

(الشرح)

قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ [التوبة: 65]، يعني طائفة ممن أظهر الإيمان؛ الذين استهزؤوا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: 65]، هما أرادوا الكفر وما قصدوا الخروج من الإسلام، وإنما أرادوا بذلك الهزؤ واللعب.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ﴾ [التوبة: 65]، يعني قل يا محمد، ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: 65]، هؤلاء لا عذر لهم في الاستهزاء بالله جَلَّ وَعَلَا ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآياته، وتبين من هذا أن الاستهزاء بالله، أو رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو القرآن، أو السنة، أو تضليل عموم الصحابة وتكفيرهم، والقدح في عدالتهم، والطعن في دينهم أن هذا كفر مخرج من الإسلام، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 66].

يعني ما أظهرتموه من الإيمان؛ لأنهم كانوا يظهرون الإيمان، لأن المنافقين يظهرون الإيمان والإسلام، ويبطنون الكفر، وهم بذلك في ظاهر أحوالهم لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ولهم حكمه، فإذا أظهروا ما في قلوبهم من الكفر ورد الإسلام والطعن فيه؛ عوملوا بظاهر حالهم أن الاستهزاء بالله جَلَّ وَعَلَا وبالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناقض الإسلام والإيمان، ويخرج بصاحبه من التوحيد إلى الكفر.

ودل أيضًا على أن الكفر يكون في القول كما يكون في الاعتقاد، كما يكون في العمل، كما أن مما دلت عليه هذه الآية أن من أظهر الكفر عومل به وحكم به، كما دلت على أن من اختار عملاً كفريًا، أو قولًا كفريًا دون إكراه؛ فإنه يكفر بذلك، وإن لم يقصد الخروج من الإسلام والإيمان، وإن زعم بقاء الإيمان في قلبه، وأنه إنما فعل ذلك لأمر دنيوي، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: 107].

ودلت هذه الآية العظيمة أيضًا على أن الواجب على المسلم أن يعظم الله جَلَّ وَعَلَا، ويعظم رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعظم آياته، وأن هذا من تحقيق التوحيد، كما دلت على فضل الصحابة، وعظيم مكانتهم، وأن من استهزأ بهم، وقدح في عدالتهم، وطعن في دينهم وأمانتهم أن هذا من الخروج من الإسلام نسأل الله العافية والسلامة.

ومما دلت عليه هذه الآية أن من قدح في مسلم لإسلامه، طعن فيه في إيمانه واستقامته والسير على أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعداه ليس لأمر شخصي أو أمر دنيوي وإنما لدينه ولاستقامته؛ فإن هذا من نواقض الإسلام نسأل الله العافية والسلامة.

(المتن)

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ: دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ أَنَّهُ: **«قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ: أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ «يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ»** فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ اِرْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ".

قَالَ اِبْنُ عُمَرَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ 65 لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 65، 66]، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ».

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين الآية التي تقدم ذكرها، وما كان من خبر عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع هؤلاء الذين استهزؤوا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وهذا الحديث حديث عظيم يدل على خطر الاستهزاء برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وأن من فعل ذلك فإن هذا من نواقض الإسلام، وأن عذره لا يُقبل باختياره الكفر من غير إكراه؛ فإن من نقص إيمانه وإسلامه بما يوجب انتفاء الإيمان ظاهرًا وباطنًا، وقولًا وعملاً واعتقادًا؛ فإنه لا يقبل منه عذرٌ إلا عن إكراه متحقق، وما عدا ذلك فإن الواجب عليه أن يتوب إلى الله جَلَّ وَعَلَا ويستغفر مما ارتكبه مما ينقض الإسلام، ويخرج من الإيمان؛ فإن هذا من أشد الذنوب وأعظمها وهو الاستهزاء بالله جَلَّ وَعَلَا، والاستهزاء برسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان ما زاحًا، وإن كان طالبًا للدنيا، وإن كان قاصدًا بذلك أمرًا يتقرب فيه لأحدٍ من أهل الدنيا، يتأول بذلك جلب منفعة أو دفع مضرة ما لم يكن مكرًا؛ فإنه لا يقبل له في ذلك عذر.

كذلك مما دل عليه هذا الحديث الغلظة على أهل العناد، وأهل الكبر المستهزئين بشرع الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض عنه، ولا يقف لسماع حجته أو قبول عذره، وإنما كان يعرض عنه ويقول: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ 65 لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 65، 66].

أيضًا مما في هذا الحديث خطر المنافقين، وأنهم يبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام والإيمان، وفيه أيضًا أن المنافقين إذا خلا بعضهم إلى بعض أظهروا ما عندهم من مخالفة أمر الله، ومناقضة شرعه، أيضًا مما دل عليه هذا الحديث الحكم بالظاهر، ولهذا كان عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سمع هؤلاء يقولون هذه المقولة؛ قال: **(كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ)** حكم عليه بالظاهر.

وأيضًا فيه أن من ارتكب موجب الحكم عليه بالكفر والشرك والردة؛ فإن من عرف هذا الحكم ويعرف يميز بين الإسلام والشرك والكفر والتوحيد؛ فإنه يحكم عليه بموجب ذلك، وأن هذا مما هو معلوم ظاهر ولا يحتاج فيه إلى التوقف لرفعه إلى أهل العلم أو غيرهم، ليبين هذا الأمر، ولكن هذا إنما يكون لمن عرف الدلائل وعرف الأقوال، وميز الصواب منها من الباطل.

كذلك مما دل عليه هذا الحديث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك مما دل عليه أن من عظم شره وكثر فساده وكبر جرمه مثل هؤلاء المنافقين ورؤوس أهل البدع الذين

يحاربون الله ورسوله، ويرصدون أهل الإيمان، ويصدون عن الإسلام أنه يرفع أمرهم إلى ولاة الأمر، ليقيموا فيهم حكم الله جَلَّ وَعَلَا، ويردعوهم، ويؤدبوهم، ويزجروهم، وحتى يرتدع بذلك غيرهم.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (49)

باب قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: 50].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: 50]، الْآيَةِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: "هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ".

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي".

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78]؟

قَالَ قَتَادَةُ "عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ".

وَقَالَ آخَرُونَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ "أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ".

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب، والآية التي ذكرها وهي قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ [فصلت: 50]، وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78]، وذلك أن إضافة النعم إلى سببه، وكسبه، وقوته، مما ينافي التوحيد، وإنما الواجب على المسلم أن يضيف النعم إلى مسببها وهو الله جَلَّ وَعَلَا، وأما ذكر العبد لقدرته وقوته وعلمه واجتهاده عند حصول المنافع أو دفع المكاره دون الله جَلَّ وَعَلَا هذا من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ [فصلت: 50]، أضاف الله جَلَّ وَعَلَا النعمة إليه؛ فقال: ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ [فصلت: 50]، وقال: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ [فصلت: 50]، يبين أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المنعم على عبده، والعبد مقهور مربوب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن كان له فعل، وله مشيئة، وله سبب يؤثر في الأشياء، ولكن أمره لله، وتدبيره تحت تدبير الله، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53].

قال: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ [فصلت: 50]، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ [فصلت: 50]، هذا فيه بيان عظيم نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن العبد إذا أصابته ضراء ومصيبة وشدة فإنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، فإنه يضيق الأمر به ويشتد، وربما يقنط ويشتد يئسه ولا كاشف لكربته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه الكريم: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 62].

وهذه الحال وهي وجود الضراء ثم كشفها ورفعها هذه حال توجب المؤمن زيادة إيمانه بالله، وأن الله له الفضل عليه، فيحمله ذلك على شكر الله، والاعتراف له بجزيل النعم وعظيم العطايا والفضل والكرم، مما يستلزم استقامته على طاعة الله وتوحيده والإيمان به، والاعتراض ظاهرًا وباطنًا قولًا وعملاً بأنه هو الله الذي ما أصاب العبد من خير وما دفع عنه من مكروه وشر إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ونقيض هذه الحال أن الإنسان يطغى إذا كشفت بليته، ورفع عنه ضره، فإنه يطغى ويستغني، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: 50]، وكما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تعالى عن مجاهد: يعني أنا استحق ذلك، أو أنا أهلٌ له، فهذا كله من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المنافي للتوحيد، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ 189 فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ 190 أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ 191 وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 189 - 192].

فالواجب في النعم أن تُشكر، أن يعترف لله عَزَّ وَجَلَّ بها، أنه لولا كرم الله، ولولا فضل الله، ولولا نعمة الله، لكان من الهالكين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ 71 وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ 72 وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ 73 وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ 74 لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 71 - 75].

والآيات في هذا المعنى والنصوص في السنة كثيرة، فتبين من هذا وجوب شكر الله على نعمه، والاعتراف بذلك باطنًا، والثناء على الله عَزَّ وَجَلَّ وتكرار المحامد على ذلك باللسان، وأيضًا وجوب العمل بشرع الله جَلَّ وَعَلَا، والاستقامة على طاعته؛ فهذا من شكر الله، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

وأن مما ينافي شكر الله جَلَّ وَعَلَا ويقدح في التوحيد إعجاب المرء بنفسه، وقدرته وقوته، وأن ما به من نعمة إلا لما بذله من جهد، وبذله من عمل؛ فإن هذا من محبطات الأعمال الموجبات غضب الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن هذا من الكفر بالله والشرك به، الذي قد يحمل على الخروج من الإسلام والإيمان نسأل الله السلامة والعافية.

وما يدل على هذا ما ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

(المتن)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «"إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ "لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ" قَالَ "فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ «شَكَّ إِسْحَاقُ» فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا" قَالَ "فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْبَقَرُ أَوْ الْإِبِلُ فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، قَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْغَنَمُ فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ".

قَالَ "ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي; فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ; بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ - عز وجل - الْمَالَ؟ فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ" قَالَ "ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا; فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ قَالَ "وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي; فَلَا بَلَاغَ لِي

الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ; شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ; فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ; فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ"» أَخْرَجَاهُ.

(الشرح)

هذا حديث عظيم فيه وجوب الاعتراف لله جَلَّ وَعَلَا بالنعم، وأن الله جَلَّ وَعَلَا هو المنعم على عباده الذي يقلب أحوالهم فيبتليهم بالسراء والضراء، يبتليهم بالضراء ليصبروا فينالون بذلك الأجر والثواب، ويبتليهم بالسراء ليظهر الشاكر المعترف لله عَزَّ وَجَلَّ بنعمه، فالله جَلَّ وَعَلَا يبتلي العباد بهذه الفتن، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35].

وكثير من الناس قد يثبت إذا أصابته فتنة الضراء، لأن ذلك يحمله على القرب من الله جَلَّ وَعَلَا، والعودة إليه، وكثرة دعائه، ولكن إذا أصابته فتنة السراء والنعماء كفر وطغى كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى 6 أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق: 6، 7]، وكما في الآيات التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى في أول هذا الباب.

والطغيان بعد النعمة من كفرة النعم، وإنما موجب النعم هو شكرها، والثناء على الله بها، والاعتراف لله بذلك، والعمل بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن قال: إنما هذه النعمة كابر عن كابر بمعنى ورثتها عن أبي، وهي بكدي وكسبي ونفى أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي أعطاه، إما أنه جحد الرب بالكلية وأنه ينكر الله جَلَّ وَعَلَا، هذا يخرج بذلك من الإسلام; لأنه جعل نفسه مقام الرب في تدبير أمره وتصريفه وجلب الخير له ودفع الشر عنه، وإن كان زعم أن هذا لأنه مستحق له، وأنه بكسبه، وجعل هذا بسبب فعله، وعظم إعجابه بنفسه مع إيمانه بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويقينه بأن الله جَلَّ وَعَلَا هو المنعم، ولكن ضعف شكره لربه، فهذا من هذا الوجه مما ينفي كمال التوحيد، وينقص الإيمان، ويوقع بالشرك الأصغر، نسأل الله العافية والسلامة، فهذا حديث عظيم جليل القدر، فالواجب على المؤمن أن يتذكر دائمًا مثل هذه الأحاديث، مع موالاة الله عَزَّ وَجَلَّ له النعم ودفع عنه النقم، وتنبه دائمًا أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المنعم، كما في هذا الحديث، وكما في الآيات التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وما فيه من المعاني العظيمة الجليل التي تبين فقر العبد لربه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ 15 إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ 16 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 15 - 17].

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (50)

باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: 190].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد .

(المتن)

بَابٌ

قَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: 190]، اَلْآيَةَ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن تعبيد الأولاد وغيرهم بتسميتهم بالأسماء الشركية؛ هذا مما ينافي التوحيد، كمن يسمي اسمه عبد اللات أو عبد العزى أو عبد الحسين أو غير ذلك، وإنما التعبيد لله جَلَّ وَعَلَا، وهذا من تحقيق التوحيد.

(المتن)

قَالَ اِبْنُ حَزْمٍ: "اِتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اَللَّهِ: كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ اَلْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ".

(الشرح)

قوله رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(حَاشَا عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ)** يعني لم يتفقوا على تحريم التسمية به إذا سمي عبد اللات أو عبد العزى أو عبد الحسين أو عبد المسيح وغير ذلك، فهذا من هذا القبيل، وهذا هو الشرك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما إذا كان من باب الأخبار، فيكون رجلٌ له رق؛ فيقال: هذا عبد محمد أي المملوك لمحمد، فإن هذا من باب الأخبار، وهذا فيه تفصيل عند العلماء، وسيأتي.

(المتن)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ; حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ إِنِّي صَاحِبُكُمَا اَلَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ اَلْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِنِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ إِيَّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ; يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ اَلْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيْعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ اَلْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ اَلْحَارِثِ; فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ رَوَاهُ اِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ قَتَادَة قَالَ شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ قَالَ أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنْ اَلْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الخبر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحاصل من هذا الباب أن تسمية المخلوق بتعبيد لغير الله جَلَّ وَعَلَا من الشرك، وأن الشرك منه الأكبر، ومنه الأصغر، وأن العبد قد يقع في الشرك وهو لم ينتبه، وهذا يوجب التحرز من الشرك، ومعرفته وتعلمه، كذلك تسمية المخلوق بتعبيده لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا مما ينافي شكر الله جَلَّ وَعَلَا، لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي أنعم على عبده بهذه النعم العظيمة، ومنها نعمة الولد.

ومن حقيقة شكر الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه النعمة أن يوحد الله، وألا يشرك به، نسأل الله أن يثبتنا على دينه.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (51)

باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: 180].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ

قَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180].

(الشرح)

عقد المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب بعد أن ذكر تحريم كلّ اسم معبد لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، ذكر أيضًا تحريم تسمية المخلوق بأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبين أن هذا من الشرك.

(المتن)

ذَكَرَ اِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يُشْرِكُونَ وَعَنْهُ سَمُّوا اَللَّاتَ مِنَ اَلْإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ اَلْعَزِيزِ".

وَعَنِ اَلْأَعْمَشِ "يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا".

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذه الآية وأثر ابن أبي حاتم ليبين معنى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: 180]،وهذا هو الشاهد، وقوله: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ [الأعراف: 180]، أي يميلون، فهم يميلون بها عن الصواب، من ذلك الشرك، فيسمون المخلوق بأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما ذكر رَحِمَهُ اللهُ تسميتهم اللات وعزى من الإله ومن العزيز تعظيمًا لها.

وهذه الآية دلت على أن الله جَلَّ وَعَلَا له الأسماء، ودلت عل أن أسماء الله جَلَّ وَعَلَا حسنى، فهي على وجه الكمال اللائق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ودلت أيضًا على أن الله موصوف بصفات الكمال؛ فإن كلّ اسم من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا يتضمن صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ودلت أيضًا على أن الله جَلَّ وَعَلَا أخبرنا بما أخبرنا به من أسمائه لنتعبد له بذلك، ونعرف معانيها، ونعتقد ما تضمنته من تلك المعاني، ونستقيم لله جَلَّ وَعَلَا بها بعبادته سبحانه وحده لا شريك له، ومن ذلك أن ندعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها، وورد الفضل في السنة لمن عرف أسماء الله جَلَّ وَعَلَا، فحفظها ووعاها ودعا الله عَزَّ وَجَلَّ بها.

ولذلك فإن من أعظم ما يزيد الإيمان هو معرفة الله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه وصفاته، فيتعرف بذلك العبد على ربه، وعلى جليل نوعته سبحانه وصفاته، وعظيم أفعاله وحكمه في أمره ونهيه وتقديره سبحانه، فيزيد إيمانه بذلك ويستقيم على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: 180]، هذا فيه أمر بالإعراض عمن ترك الحق ومال إلى الباطل؛ وهذا هو الواجب، وهذا متضمن لمعنى البراء من المشركين، والمخالفين، والمعاندين، والمعرضين عن الحق، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، وكما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ [المجادلة: 22].

وهذا هو الواجب على المؤمن أن يعرف الحق ويعمل به ويستقيم عليه، ويتجنب الباطل وأهله، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا، قال: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى: 15]، آيات كثيرة في كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبين أن على المسلم أن يعرف الحق ويعمل به، ويعرض عمن انصرف عن أمر الله، وعاند الحق وأعرض عنه.

قال: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: 180]، فهم ينفون أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ أو يعطلونها، أو يسمون بها المخلوقين، أو يحرفونها عن معانيها اللائقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا كله من الإلحاد في أسماء الله، فهذه آية عظيمة بينت أن الله جَلَّ وَعَلَا له الأسماء والحسنى، وله الصفات اللائقة به، وأن الواجب على المسلم أن يتعبد لله بذلك، ولا يكون هذا إلا بالعلم بأسماء الله وصفاته، ومعرفته على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ودلت على تحريم تسمية غير الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأن هذا من الإلحاد، ودلت على مذهب أهل السنة والجماعة بهجر المخالفين للحق والإعراض عنهم، وتجنب بدعهم، ومخالفتهم للحق، والبراءة من كلّ ما خالف أمر الله عَزَّ وَجَلَّ وأمر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ودلت أيضًا على أن الله جَلَّ وَعَلَا خاطب المكلفين بمعرفة صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن هذا مما كلف الله عَزَّ وَجَلَّ به العباد، ولا يكون هذا إلا أن هذه الصفات معلومة المعنى، كما قال مالك رَحِمَهُ اللهُ (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة) هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلاف ما عليه أهل الطوائف المخالفة، من المعطلة، والمأولة، والمفوضة، وغيرهم ممن خالف الحق في هذا الباب، نسأل الله أن يثبتنا على دينه.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد.

كتاب التوحيد

رقم الباب (52)

باب لا يقال: السلام على الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ لَا يُقَالُ اَلسَّلَامُ عَلَى اَللَّهِ

فِي "اَلصَّحِيحِ" عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اَلصَّلَاةِ; قُلْنَا اَلسَّلَامُ عَلَى اَللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، اَلسَّلَام عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لَا تَقُولُوا اَلسَّلَام عَلَى اَللَّهِ فَإِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلسَّلَامُ"».

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لبيان ما يجب على المسلم من الأدب مع الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك بتنزيهه عما لا يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في اللفظ، وكذلك في الاعتقاد والعمل، فإن الله جَلَّ وَعَلَا هو الموصوف بصفات الكمال، وهو المنزه عن كلّ عيب ونقص، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 180]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ 180 وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ 181 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 180 - 182].

فسلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نفسه؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو السلام، سبحانه لكماله وغناه عن كلّ عيب ونقص، فهو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد، وسلم على المرسلين لسلامة ما جاؤوا به من العيب والنقص، وهذا الحديث الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى وهو في البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم كانوا يقولون: السلام على الله، فنهاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وبيّن علة النهي، وذلك أن الله تعالى هو السلام.

وقول الرجل: السلام على فلان، هذا دعاء له بالسلامة من العيب، ومن النقص، ومن الآفات، والله جَلَّ وَعَلَا هو السلام الذي يسلم من شاء من عباده، فدل هذا على ما ينبغي للمؤمن من الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما ينبغي له من معرفة أسمائه وصفاته، كما دل هذا الحديث

على ما ينبغي من نشر العلم، وتعليم الجاهل، وحسن التعليم ببيان علة النهي والأمر، وبيان الحكم من ذلك، فيكون ذلك أدعى لقبول الحق.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (53)

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ قَوْلُ اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ اَللَّهُمَّ اِغْفِرْلِي إِنْ شِئْتَ اَللَّهُمَّ اِرْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمِ اَلْمَسْأَلَةَ; فَإِنَّ اَللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ**».

وَلِمُسْلِمٍ: «**وَلْيُعَظِّمِ اَلرَّغْبَةَ; فَإِنَّ اَللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**».

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب، لبيان ماينبغي للمسلم من مقتضى التوحيد من تنزيه الله جَلَّ وَعَلَا عمالا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما ينبغي للمسلم من تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا، وما يكون من مقتضى إيمانه بكمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعظيم صفاته، من التقدم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما يحب، ومن ذلك فقر العبد لربه، واستشعاره عظيم رحمته، مع كمال غناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا علم العبد ذلك اشتد فقره لله بدعائه والتضرع له، واشتد طمعه برحمته، واشتد سعيه في طلب فضله؛ لأن الله هو الغني ذو الرحمة سبحانه.

قوله: **(لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ اَللَّهُمَّ اِغْفِرْلِي إِنْ شِئْتَ)**، وذلك أن قوله: **(اَللَّهُمَّ اِغْفِرْلِي إِنْ شِئْتَ)** فيه تعليق الطلب على المشيئة، وهذا يشعر بغنى العبد عن الرب، أو أنه يشعر باستبعاد إجابة الدعوة، أو يشعر بعدم اضطرار العبد لربه، أو يشعر بعدم حسن الظن بالله، بالمغفرة والرحمة، وضعف الطمع بفضل الله الغني عن عبده، وإنما العبد المسلم بقدر حسن ظنه بالله واستشعاره غناه، واستشعاره عظيم فقره لله تعظم مسألته، وتعظم رغبته لأنه يؤمن بأن الله سبحانه لا يتعاظمه شيء أعطاه، كما في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألوني فأعطيت**

كلّ واحد مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر»، فهذا يدل على عظيم غنى الرب، وعظيم فقر العبد.

دل هذا الحديث، وهذا الباب الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ على أمرٍ عظيم من خصال أهل التوحيد، وشعبة عظيمة من شعب التوحيد، وهي أن يعظم العبد ربه، ويحسن به ظنه، مما ينبغي للمسلم تنزيه الله في حال دعائه، وأن يستشعر فقره لله، كما هو هدي الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي لله؛ حتى تتفطر قدماه، وكان كثير الإلحاح لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالدعاء والمسألة، ويرفع يديه إلى السماء حتى يسقط إزاره، وكذلك سائر الأنبياء، وكما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن عبده وخليله ورسوله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إذ قال الله جَلَّ وَعَلَا مخبرًا عن قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: 48].

وأخبر عن عبده ورسوله نبيه نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: 76]، وأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن عبده أيوب بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 83 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: 83، 84].

وكذلك ما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن عبده يونس بقوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ 87 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87، 88].

كذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ 89 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: 89، 90]، وفي قوله سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: 4]، الآيات.

هذا كله يبين حال الأنبياء وفقرهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال دعائهم، وتعظيمهم لله، وحسن ظنهم به، واستشعارهم غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكريم فضله وجوده، وهذا مما وردت السنة به، كما في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»، الذي ينبغي للمسلم في حال دعائه لله أن يكون عظيم الفقر لله، عظيم التضرع له، عظيم حسن الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا من تحقيق التوحيد.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (54)

باب لا يقول: عبدي وأمتي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ لَا يَقُولُ عَبْدِي وَأَمَتِي

فِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**».

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الحديث لبين أن من تحقيق التوحيد تنزيه الله جَلَّ وَعَلَا بالألفاظ كما ينزه العبد ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في اعتقاده وعمله، ومن تحقيق التوحيد مجانبة كلّ ما يكون سببًا في نقصه أو القدح به، ولو كان لفظًا، ولو كان لم يقصد به صاحبه ما يكون محل القدح في التوحيد، أو محل معارضة له، أو محل النقض له.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ)** أراد بذلك المالك، فيقال للملوك: وضئ ربك، أو أطعم ربك، أي قدم له الطعام، وذلك لأن لفظ الرب ينبغي أن يتأدب فيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله جَلَّ وَعَلَا هو الرب، فهو رب العالمين، وإن كان المالك للعبد أو المالك للشيء هو ربٌ له أي صاحب له.

قوله: **(لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ)** أي أمر بالإطعام والتوضئة للسيد المالك، لأن في هذا مضاهاة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا لا ينبغي، وهو خلاف الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو قال: أطعم سيدك؛ فهذا حسن، أما أن يقول: أطعم ربك، أو اخدم ربك، فهذا لا ينبغي أن يقال للمخلوق تنزيهًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحرصًا على كمال التوحيد في اللفظ.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ)** لأن السيادة هي الرئاسة، ووصف المخلوق بالسيد إذا كان على وجه القيد فيقال: سيدي فلان يعني رئيسي فلان، فلا بأس بذلك، أما وصفه على وجه الإطلاق فيقال: السيد فلان، فإن هذا أيضًا مما ينبغي تجنبه لما ورد من النهي عن ذلك، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«السيد هو الله»**، وسيأتي.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي)** لأن هذه ألفاظ بعيدة عن وصف العبودية، وإنما المخلوق عبدٌ لله، مملوك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك ينبغي عند الإطلاق أن تكون العبودية لله، والربوبية له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا ورد النهي في هذا الحديث تنزيهًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ودرءًا لذرائع الشرك، وسدًا للطرق المفضية لنقض التوحيد أو نقصه، وتجنبًا لما هو من إساءة الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كإطلاق ربوبية الإنسان للإنسان، أو عبوديته له، وهذا من عظيم ما ورد في النصوص من بيان التوحيد وسد الطرق المفضية له.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (55)

باب لا يرد من سأل بالله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاَللَّهِ

عَنِ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَأَلَ بِاَللَّهِ؛ فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاَللَّهِ؛ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ؛ وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب وذكر الحديث الذي تضمنه؛ لأن من تحقيق التوحيد تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا، ومن ضعف التوحيد ونقصه ألا يعظم اسم الله جَلَّ وَعَلَا في محل الندب لذلك، كمثل من استعاذ بالله جَلَّ وَعَلَا من عبدٍ من عباده، وكان طلبه العوذ فيما لا يخالف أمر الله، ومثل من سأل بالله عطاءً، وكان سؤاله فيما لا يخالف أمر الله، فإن من تعظيم اسم الله جَلَّ وَعَلَا، ومن تحقيق التوحيد، ومن إجلال الله جَلَّ وَعَلَا إعاذة هذا المستعيذ، وإجابة هذا السائل، ونظير قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من حلف له بالله فليرض**»، فهذا هو الشاهد من هذا الباب.

وأما من استعيذ بالله منه، وكان طلب العوذ في محله فيما لا يخالف أمر الله، فلم يقم لله عَزَّ وَجَلَّ قدرًا في ذكر اسمه في طلب العوذ، وكذلك من طُلب الله وكان فيما لا يخالف أمر الله، وكان يستطيع إجابة من دعاه؛ فإنه بهذا قد نقص عن الكمال في تحقيق توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: **(وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ)** هذا كمن دعي إلى وليمة، كما ورد في الحديث: «**من دعي إلى وليمة فليطعم**»، وذلك من حق المسلم على أخيه المسلم، أيضًا هذا من تحقيق التوحيد، فإن

المسلم بقدر تحقيقه للتوحيد يعظم حق إخوانه، فيرد سلامه، ويصل من قطع من ودهم، ويجيب دعاءهم، ويخلي ما بين قلبه وإياهم، فلا يحسد ولا يحقد، ولا يفعل موجب الكراهية والبغض لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما ورد الأمر بذلك في النصوص.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ)** هذا فيه بيان أدب من الآداب العظيمة وهي رد المعروف إلى أهل المعروف، فإن حق من صنع معروفًا أن يرد إليه معروفه بمعروفٍ مثله، أو أفضل منه، وأصل ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: 86]، وهذا مما ينبغي للمسلم أن يتأدب به، وأن يلتزمه من الآداب العظيمة، والأخلاق الجليلة.

فإن لم يجد ما يكافئه بأحسن منه أو مثله؛ فإنه لا يعجز عن الدعاء لأخيه المسلم الذي له معروف عليه، ولهذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)** وهذا فيه بيان أنه لا يكتفي بالدعاء له مرة؛ بل إنه يدعو له كثيرًا حتى يكون في دعائه له قد قابل معروفه، وأعظم المعروف وأجله وأكرمه معروف الهدى للحق، والعلم النافع، فمن علم إنسانًا وأرشده وكان سبب هدايته فإن له عليهم معروف، لا يكافئ، ذلك أنه أنقذهم من الضلالة، ومن الجهالة، فهدى الله عَزَّ وَجَلَّ به إلى الصراط المستقيم ما يكون سبب في نجاته وسلامته في الدنيا وفي الآخرة.

فهذا له معروف عظيم، ولذلك كان من أدب أهل العلم إجلال أشياخهم والثناء عليهم، والدعاء لهم؛ لأن هذا أقل ما يكافئون فيه علمائهم ومشايخهم، تأدبًا معهم، وثناءً عليهم، ومكافئة لهم على معروفهم عليهم بتعليمهم، وإرشادهم ونصحهم، فهذا الحديث حديث عظيم جليل القدر، فيه أن من سأل بالله على وجه لا يتضمن باطل شرعًا، أو باطل من جهة الحقوق التي بين العباد مما يجب أداؤه؛ فإنه بذلك يجاب دعاؤه.

كذلك من استعاذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مما لا يتضمن باطل من جهة الشرع، أو من جهة الحق لحقوق العباد؛ فإنه يعاذ بذلك، أما إذا تضمن أمرًا محرم من جهة الشرع، أو أن إجابة طلبه وإعاذته تتضمن إهدار حق عبد من عباد الله، وحق من له حق عليه فإنه لا يعان على ذلك، كما ورد في الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعن الله من آوى محدثًا**»، ويبين هذا ما ورد في الحديث عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المدينة حرمٌ ما بين عير إلى ثور، من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرفٌ ولا عدل**».

تبين من هذا أن من استعاذ بالله، وسال بالله فإنه يجاب إلى ما طلب، ما لم يكن ذلك فيه مخالفة للشرع أو هدر لحق يجب أداؤه، نسأل الله أن يثبتنا على دينه، ويحيينا على ملته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (56)

باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اَللَّهِ إِلَّا اَلْجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اَللَّهِ إِلَّا اَلْجَنَّةُ»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الحديث ليبين أن من تحقيق التوحيد تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا، وذلك بألا يُسأل بوجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيءٌ من مطالب الدنيا، وإنما يُسأل بذلك أعظم المطالب وهي الجنة، وهذا الحديث قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اَللَّهِ إِلَّا اَلْجَنَّةُ)** فيه فضل سؤال الله جَلَّ وَعَلَا، أنه ينبغي للمؤمن المحقق لتوحيده أن يكون كثير السؤال لله جَلَّ وَعَلَا، كثير الإلحاح له فيما يجب أن يجلب الله له ذلك، وفيما يكره أن يدفع عنه سبحانه.

وكذلك فيه فضيلة التوسل لله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه وصفاته، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

فأنت تتوسل إلى الله بأسمائه وكذلك بصفاته، فتسأل الله برحمته، تسأل الله بمغفرته، تسأل الله بعفوه أن يغفر لك، وأن يرحمك، وأن يعفو عنك، ونحو ذلك.

كذلك فيه مشروعية التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بسؤاله بوجهه الكريم، وهذا مقيد أن يكون السؤال بالجنة؛ لأنها أعظم المقاصد؛ ولأن وجه الله جَلَّ وَعَلَا منزه عما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن تنزيه الله عَزَّ وَجَلَّ بذلك أن ينزه أن يُسأل بوجهه الكريم شيءٌ من الأمور التي لا اعتبار لها في النجاة والفوز وهو النجاة من العذاب والفوز بالجنة كسائر حوائج الدنيا.

كذلك مما دل هذا الحديث عليه أن الله جَلَّ وَعَلَا موصوف بصفات الكمال، وهذا فيه رد على المعطلة، كذلك مما دل عليه أن الله جَلَّ وَعَلَا موصوفٌ بصفة الوجه على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إثباتًا من غير تشبيه، وتنزيهًا من غير تعطيل، فهذا حديث عظيم جليل القدر، فيه وجوب تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا، وأن هذا من تحقيق التوحيد.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (57)

باب ما جاء في اللو

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مَا جَاءَ فِي الـ "لَوْ"

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 168].

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن مما ينافي كمال التوحيد الاعتراض على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره بقول الرجل: لو فعلت كذا لما كان كذا وكذا، مما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، يقول ذلك من عدم رضاه بما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، وتأسفًا على ما وقع عليه وعلى ما فاته من بذل أسباب السلامة من الشرور الدنيوية، فيقال في هذا: إن هذا مما ينافي كمال التوحيد؛ لأن المسلم عليه في قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره أن يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ على ما قدره عليه، وأنه إذا وقع في مصيبة من المصائب أن يسترجع كما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه؛ بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 156]، يعني مُلكٌ لله تحت تدبير الله، ﴿إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]، فهو يثيب المحتسب لله، الصابر على ما قضاه وهو يعاقب من سخط على قضائه وقدره، كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط**».

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى الآيات فقال: **(وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى ﴿يَقُولُونَ لَوْكَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِشَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾** [آل عمران: 154] **..)** هذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى في بيان أن من صفات المنافقين الاعتراض على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره، فإنهم يعترضون على ذلك، كما في هذه الآية، حيث أن المنافقين يوم أحد اعترضوا على ما قضاه الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره مما وقع على المسلمين؛ فقالوا: لو كان لنا اختيار ولنا رأي لما حدث ما حدث، ويقولون هذا من باب تثبيط المسلمين، وفت عضدهم وإشاعة الهزيمة في قلوبهم وأرواحهم، وهذا كله من صفات المنافقين.

ولذلك ذكر الآية التي تليها: **(وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [آل عمران: 168] **..)** وهذه أفادت أن قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ لابد أنه ينفذ، وأن الاعتراض على ذلك لا يرد قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ، كما أن الأسباب التي تبذل لدفع المكاره لا تجدي شيئًا إذا أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بوقوعها، وإنما المؤمن عليه أن يبذل سبب ما ينفعه، ويبذل سبب دفع ما يضره، ثم إذا حصل له خيرٌ حمد الله جَلَّ وَعَلَا، وإذا وقع غير ذلك صبر واحتسب كما في الحديث من قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابت سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**».

فتبين من ذلك النهي عن قول (لو) في القضاء والقدر؛ لأنه تدل على الاعتراض على قدر الله، وفيه وجوب الاستسلام لقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره، والإيمان بذلك، وأن هذا من تحقيق التوحيد.

(المتن)

وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجَزَنْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اَللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ; فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ اَلشَّيْطَانِ».

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين أن لو مما ينهى عن ذكرها عند المصائب، وما يقضيه الله عَزَّ وَجَلَّ على عبده مما يكره العبد، وأن هذا مما يفتح عمل الشيطان، وعمل الشيطان هو الحزن كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: 10]، وكذلك من عمل الشيطان التسخط على قدر الله، فإن (لو) تحمل على ضعف الإيمان وعدم الاستسلام لله عَزَّ وَجَلَّ بما قضاه وقدره، وهذا كله من عمل الشيطان.

ثم إن هذا الحديث فيه أن على المؤمن أن يبذل سبب المحاب ليحصلها، ويبذل سبب دفع المكاره لتندفع عنه، ولهذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ)** فهو يحرص على ما ينفعه في أمر دينه وأمر دنياه، ثم مع حرصه وبذل سببه فإنه لا يعتمد على السبب، وإنما يعتمد على الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال: **(وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)**يعني استعن بالله في جلب المنافع ودفع المكاره، ثم أيضًا هو في سعيه في جلب منفعته ودفع ما يضره فإنه لا يكون عاجزًا كسولًا؛ لأن هذا من أسباب حصول الشرور وفوات المحاب، وإنما المؤمن مع محبته وتمنيه لحصول الخيرات له، ودفع المكاره عنه فهو يبذل سبب ذلك، ولهذا يتخلى عن العجز، كما في دعاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والغم والحزن والعجزوالكسل والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال**».

ثم إنه إذا بذل ما ينفع من السباب التي تجلب له الخيرات استعان بالله عَزَّ وَجَلَّ على ذلك، وتخلى عن العجز والكسل؛ فإنه يستسلم لما يقضيه الله جَلَّ وَعَلَا عليه، من خير ينعم الله عَزَّ وَجَلَّ به، أو مكروه يبتليه الله عَزَّ وَجَلَّ به، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **(وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)** قوله: **(قَدَّرَ اللَّهُ)** يعني هذا قدر الله **(وَمَا شَاءَ فَعَلَ)** يعني ما حدث هو بمشيئة الله، وهو بقضاء الله، وهو بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله هو الحكيم المدبر؛ الذي بيده تدبير الأمور وتصريفها، وهذا يتضمن أن العبد يؤمن بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وبقدره ويستسلم لله عَزَّ وَجَلَّ في حكمه؛ لأن الله له الخلق وله الأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا الحديث حديث عظيم فيه الحث على أن يجتهد المسلم في طلب المنافع ودفع المكاره، وأن يستعين بالله على ذلك، وأن يحذر من صفة العجز والكسل؛ فإن هذه صفة العاطلين، المتواكلين، الذين يتمنون على الله الأماني، ولكنهم يتركون العمل، ثم في كلّ أحواله يستسلم لقضاء الله وقدره، ويحمد الله على ما أصابه من المحاب، وما أكرمه الله عَزَّ وَجَلَّ مما فيه خيرٌ له في دينه ودنياه، وأما ما أصابه من المكاره فإنه يصبر على ذلك، ويستعين بالله عَزَّ وَجَلَّ على دفعها، ويحذر من وساوس الشيطان في الاعتراض على قضاء الله وقدره؛ بقوله: (لو) فإن هذا من عمل الشيطان، من الحزن واليأس والقنوت وسوء الظن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

النهي عن استخدام (لو) إنما هو من هذا الباب، إذا كانت على وجه الاعتراض على قضاء الله وقدره، أما إذا كانت على وجه تمني فعل الخير؛ فهذا مما لا ينهى عنه، كما في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرجل الذي يتمنى أن يكون له من المال مثلما لرجل كان عنده مال كثير فعمل به خيرًا كثيرًا؛ فقال: لو أن عندي مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هما في الأجرسواء**».

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (58)

باب النهي عن سب الريح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ اَلنَّهْيُ عَنْ سَبِّ اَلرِّيحِ

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَسُبُّوا اَلرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ؛ فَقُولُوا اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ اَلرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اَلرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**» صَحَّحَهُ اَلتِّرْمِذِيُّ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن سب الريح من الاعتراض على قدر الله، وهذا مما ينافي كمال التوحيد، وإنما على المرء أن يحمد الله على ما قضاه الله وقدره، ويستعين بالله في جلب ما ينفع، ودفع ما يكره، وما لا طاقة له به في دفعه عنه مما يكرهه إنما واجبه مع الإيمان بقضاء الله وقدره أن يدعو الله جَلَّ وَعَلَا بذلك، فإن الله هو القادر القاهر الذي بيده كلّ شيء بجلب المنافع ودفع المكاره.

قوله: **(لَا تَسُبُّوا اَلرِّيحَ)** هذا نهي عن سبها من شتم و لعن، قال: **(فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ)** يعني من هذه الريح، **(ولُوا اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ اَلرِّيحِ)** هذا من الأدب مع الله جَلَّ وَعَلَا فيما يقضيه مما يكرهه العبد، أنه يرجع في ذلك إلى من قدر هذا المكروه، فيستغفر ربه ويتوب إلى الله، ويسأل الله جَلَّ وَعَلَا المدبر الخير فيما يقضيه عليه، لأن الله هو الذي بيده جلب المحاب ودفع المكاره.

قوله: **(مِنْ خَيْرِ هَذِهِ اَلرِّيحِ)** ما يكون مما فيها من خير، إما من جهة ما يقضيه الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الريح من دفع صائل يصول على المسلمين، من كافر ومنافق، وهذا خير عظيم، كما عاقب الله عَزَّ وَجَلَّ بهذه الريح أممًا طغت وبغت، وما يكون من خيرها أيضًا مما يكون من سوق

السحاب، وما يكون من قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره بهذه الريح من إنزال المطر بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كلّ هذا من خير هذه الريح.

المسلم ينظر فيما يقضيه الله عَزَّ وَجَلَّ عليه من قدره مما يكره في أمر الدنيا من هذين الوجهين، فهو يسأل الله الخير الذي فيه، فهذا يجعله يطمئن لقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره؛ لأنه يعلم أن ما من أمر يقضيه الله عَزَّ وَجَلَّ عليه مما يكرهه في أمر الدنيا، إلا ولله فيه حكمة، فهو يسأل الله من خيره، كذلك يستعيذ بالله مما فيه من الشر، ولهذا قال: **(وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ)** وهذا هو تمام الإيمان، والاستسلام لله بقضاء وقدره، أن يلجأ العبد إلى ربه في دفع المكاره وجلب المنافع، وهذا من تحقيق التوحيد.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (59)

باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ

قَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لبيان أن حسن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا من تحقيق التوحيد، وأن سوء الظن بالله جَلَّ وَعَلَا ينافي التوحيد، قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: 154]، وذلك أن المنافقين لعدم إيمانهم ولتربصهم الدوائر بأهل الإيمان؛ فإنهم يظنون بالله أنه لا ينصر دينه، ولا ينصر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا كما في غزوة أحد، ولذلك قالوا: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 154]، فبين الله جَلَّ وَعَلَا أن الأمر لله، وأن ما يقع على المسلمين من بلاء وفتنة ومن امتحان؛ إنما هذا لتمحيص ما في صدورهم، وتمييز الطيب منهم والخبيث، والمؤمن والمنافق، والصادق والكاذب كما في الآيات الكثيرة في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

وهذا من حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ بما يقع على المسلمين من إدالة الكافرين والمنافقين وأهل البدع، وأهل الفجور والمعاصي عليهم، فإن هذا فيه تمييز لأهل الصلاح، وتثبيت لأهل اليقين، وظهور لفضل أهل الإيمان على من سواهم، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا مخبرًا عما وقع للمسلمين في غزوة الأحزاب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12]، وقال سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى فِي بيان حال أهل الإيمان: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

فهذه من حكمة الله جَلَّ وَعَلَا فيما يقضيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من ابتلاء لأهل الإيمان، وما يقضيه سبحانه من إدالة أهل الكفران على أهل الإسلام، فهذا أمرٌ لابد للمسلم أن يقع كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كتابه الكريم: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ 2 وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 2، 3].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبينًا هذا الأمر العظيم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ 139 إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ 140وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ 141 أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 139، 142].

فهذا كله من حكمة الله جَلَّ وَعَلَا لما يقع من ابتلاء على الإيمان، وأعظم من يكون من أثر ذلك تحقيق التوحيد، وتمحيص المؤمن بزيادة إيمانه وتثبيته؛ بأن يرى ما وعده الله عَزَّ وَجَلَّ به من نصره، وتأييده، وظهور الحجة على من خالف، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا فِي كتابه الكريم: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33].

(المتن)

وَقَوْلُهُ: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: 6].

(الشرح)

هذه الآية ذكرها رَحِمَهُ اللهُ تعالى فِي بيان أن سوء الظن بالله، وأن الله لا ينصر دينه، وأن الله يخذل رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله ينصر الكفر على الإسلام، والكافرين على المسلمين، أن هذا من سوء الظن، وأن سبب لعقوبة الله وخذلان الله لأهله، وسبب للغضب واللعنة والعذاب، كلّ هذا حال من أساء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: 6]، فهم أساءوا بالله الظن، ظن السوء هو أن الله لا ينصر رسوله ولا المؤمنين ولا دينه ولا كتابه، ولا يظهر الحجة على من خالفه، فهذا من سوء الظن، هذا من تكذيب الله،؛

الذي قال في كتابه الكريم: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ 172 وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 172، 173].

فلابد أن الله ناصر دينه ومظهر كلمته، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: 16]، فالمؤمن عليه دائمًا أن يحسن الظن بالله كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن عبدي بي ما شاء**».

(المتن)

قَالَ اِبْنُ اَلْقَيِّمِ فِي اَلْآيَةِ اَلْأُولَى:

فُسِّرَ هَذَا اَلظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اَللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ اَلْحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ اَلْقَدْرِ وَإِنْكَارٍ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ اَلسَّوْءِ اَلَّذِي ظَنَّهُ اَلْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ اَلْفَتْحِ.

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ اَلسُّوءَ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ اَلصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ اَلْبَاطِلَ عَلَى اَلْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا اَلْحَقُّ أَوْ أَنْكَرَ أَنَّ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا اَلْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ; فَذَلِكَ ظَنُّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَلنَّارِ.

وَأَكْثَرُ اَلنَّاسِ يَظُنُّونَ بِاَللَّهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اَللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اَللَّبِيبُ اَلنَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اَللَّهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى اَلْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا; فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا النقل عن ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى، في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [آل عمران: 154]، وفي هذا نقل من كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تعالى بيان ما ينبغي للمسلم من أسباب حسن ظنه بالله، قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ)** يعني من سوء الظن بالله، قال: **(إِلَّا مَنْ عَرَفَ اَللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ)** فهذا مما يدفع فيه سوء الظن وهو العلم بالله، وبآياته، والعلم بعظيم حكمته، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يترك شيئًا سدى كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ 115 فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: 115، 116]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ 16 لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ 17 بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ 18 وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ 19 يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ 20 أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ 21 لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 16 - 22].

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي ٱلْقَدَرِ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لما في تحقيق الإيمان بالقدر من تحقيق التوحيد، ولما في إنكار القدر من نقض التوحيد؛ فإن من الإيمان بالله الإيمان بأفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبتوحيده في ذلك، ومن أفعاله جَلَّ وَعَلَا القضاء والقدر، فهو جَلَّ وَعَلَا يقضي ما يشاء، ويقدر ما يشاء، وكلّ أمر عنده بقدر، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49].

وكما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خبر جبريل لما قدم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال جبريل سائلاً النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخبرني عن الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله والقدر خيره وشره واليوم الآخر**».

فأما القدر فهو فعل الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، القدر لا يتم الإيمان به إلا بالإيمان بمراتبه وهي العلم، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يعلم كلّ شيء؛ مما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، العلم السابق واللاحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: 59].

وكذلك المشيئة، فما من شيء إلا بمشيئة الله، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29].

الثالثة: الخلق، فما من شيء يقع إلا وقد خلقه الله، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96]، فالله خالق العباد وهو خالق أفعالهم.

كذلك المرتبة الرابعة: وهي الكتابة، وذلك أن ما من شيء يقع إلا وقد كتبه الله جَلَّ وَعَلَا؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالطُّورِ 1 وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور: 1، 2]، وكما سيأتي من الأحاديث التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

فهذا ما يجب على المسلم اعتقاده في باب القدر، وعليه أن يمسك عن القدر، يمسك عن الخوض فيه مما يفضي إلى الشك والريب، كما ورد في ذلك النصوص والآثار عن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وسلف هذه الآمة.

(المتن)

وَقَالَ اِبْنُ عُمَرَ وَالَّذِي نَفْسُ اِبْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اَللَّهِ مَا قَبِلَهُ اَللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ" ثُمَّ اِسْتَدَلَّ بِقَوْلِ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اَلْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(الشرح)

هذا الأثر في خبر أناسٍ ينكرون القدر، ويقولون: إن الأمر أنف، أي أن الله لم يقدر الأشياء، فبين ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه بريء من هؤلاء، وأن الله لا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا، إلا بالإيمان بالله وبكتابه، الإيمان بشرع الله كله ومنه القدر، ولهذا قال: **(وَالَّذِي نَفْسُ اِبْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اَللَّهِ مَا قَبِلَهُ اَللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ)**.

وذلك أن من آمن بشيء وكفر بشيء فإنه بذلك يرتد عن دين الإسلام، ولا ينفعه إيمانه أو قربته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما تقرب به لنقضه إيمانه؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23].

فتبين من هذا أن من أنكر القدر ورده فإنه بذلك يرتد عن دين الإسلام، وهذا يبين أن إنكار القدر مما ينافي التوحيد وينقضه.

(المتن)

وَعَنْ عُبَادَةَ بِنِ اَلصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ اَلْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اَللَّهُ اَلْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اُكْتُبْ فَقَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ**

شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ اَلسَّاعَةُ" يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اَللَّهُ تَعَالَى اَلْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ اُكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ اَلسَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اَللَّهُ بِالنَّارِ».

وَفِي "اَلْمُسْنَدِ" وَ"اَلسُّنَنِ" عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنِ كَعْبٍ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ اَلْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اَللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي فَقَالَ لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اَللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ اَلنَّارِ قَالَ فَأَتَيْتُ عَبْدَ اَللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ اَلْيَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ اَلْحَاكِمُ فِي "صَحِيحِهِ".

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذين الحديثين في وجوب الإيمان بالقدر، وأن العبد لا يصح له إسلام ولا إيمان، ولا يصح منه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حج إلا وقد آمن بالقدر خيره وشره، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدر الأشياء كلها من الإيمان، والكفر، والهدى، والضلال، والسعادة، والشقاوة، وقدر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغنى والفقر والحياة والموت في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، كتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد**».

فهذا يبين أن كلّ شيء بقضاء الله وقدره، وما على العبد إلا أن يسعى إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يسعى إلى الله فيما يكون سببًا لنجاته، ومن سعى إلى الله بسبب النجاة هدي؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى 5 وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى 6 فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى 7 وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى 8 وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى 9 فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: 5 - 10].

ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له، فأما أهل الهداية فييسرون إلى عمل أهل الهداية، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاوة**».

فتبين من هذا معنى قول عباده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ اَلْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ)** فهذا يبين أن كلّ شيء قد قضي، وما على العبد إلا أن يسعى إلى الله جَلَّ وَعَلَا بما يجلب إليه المحبوبات، ويدفع عنه المكروهات.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِهَذَا فَلَيْسَ مِنِّي) هذا يبين أن من أنكر القدر فإنه بهذا يخرج من الإسلام؛ لأن الإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان التي لا يصح الإيمان إلا بها.

وقوله: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اَللَّهُ تَعَالَى اَلْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ اُكْتُبْ. فَجَرَى فِي تِلْكَ اَلسَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ) هذا يبين أن الله جَلَّ وَعَلَا لما خلق القلم أمره بكتابة مقادير الخلق، وهذا يبين نوعً من أنواع الكتابة، وذلك أن الله جَلَّ وَعَلَا كتب مقادير الخلائق، وقدرها في اللوح المحفوظ؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالطُّورِ 1 وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور: 1، 2].

وهذا هو النوع الأول: وهو الكتاب الأولى كما في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إن الله كتب مقادير الخلائق من قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**».

وكتابة عمرية؛ وذلك حين النفخ في الروح كما في حديث ابن مسعود المتقدم، وكتابة حولية وهي التي يكتبها الله عَزَّ وَجَلَّ في ليلة القدر على العباد، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ 3 فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: 3، 4]، وكما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، وذلك لأن الله يقدر فيها مقادير الخلائق.

ومن ذلك وهو النوع الرابع كتابة يومية، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29]، والله جَلَّ وَعَلَا يمحو ما يشاء مما قضاه وقدره على عباده ويثب، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]، وهذا كله بمشيئته، وبعلمه، وبحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقوله: (فَجَرَى فِي تِلْكَ اَلسَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ) هذا يبين فقر العبد لربه، وأنه لما كان يجهل ما قضاه الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره عليه في غيبه من سعادة وشقاوة، وهداية وضلالة، وغنى وفقر، وصحة ومرض؛ فإنه بذلك فقير إلى الله، أي يجلب الله له ما يحب من خير الدنيا والآخرة، ويصرف عنه ما يكره في الدنيا والآخرة، فهو يحمله إيمانه بقضاء الله وقدره على الإقبال على الله؛ بالإيمان والتقوى والخوف منه، ورجائه، كلّ هذا من ثمرات الإيمان بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره.

ثم أيضًا في قول عباده:(يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ اَلْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ) هذا يبين أثر الإيمان بالقضاء والقدر، وذلك أن العبد إذا وثق بربه، ورضي به في شرعه كما أنه يرضى عنه في قدره؛ لأن الله له الخلق وله الأمر، فإنه بهذا يطمئن في إيمانه بربه بحسن ظنه به، ولعظيم توكله عليه، ولعظيم ثقته بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومحبته له؛ فإنه بهذا يثبت على الإيمان، وإذا قضى الله عَزَّ

وَجَلَّ عليه ما يكره مما ظاهره شر؛ فإنه لا يجزع ولا يخرج بما أصابه الله من هذه المكروهات عن الحد الشرعي، وذلك بالصبر كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ 155 الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 155، 156].

وفي الحديث يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا ورسولًا**»، وهذا يبين معنى هذا الحديث عن عبادة؛ فإن من رضي الله ربًا له الشرع؛ فهو يأمر وينهى، فتؤمن بأمر الله، ونهيه، وتعتقد ما أمرك الله عَزَّ وَجَلَّ به فتنقاد، وما نهاك عنه فتنته، فهذا من أعظم ما يحقق طعم الإيمان؛ لأنك قد رضيت عن الله مشرعًا، وكذلك ترضى عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه له القدر وله الحكم النافذ والقهر على عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الذي لا يعزب عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء، فإذا رضيت عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العليم الحكيم العلي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن هذا يورثك الاطمئنان، وهذا معنى قوله: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا ورسولًا**»، ومعنى قوله: **(يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ اَلْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ)**.. الحديث.

كذلك ما ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى بهذا المعنى، وهو حديث أبي بن كعب، وهذا الحديث فيه من الفوائد العظيمة أن ما يقع في القلب من وسوسة؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا يعلم به، فلا يرفعه إلى إلا الله جَلَّ وَعَلَا، ولذلك على العبد إذا وقع في قلبه وسوسة أو خاطر من الشيطان أن يعرض عنه، ويتجاهله، ولا يعبأ به، ولا يلتفت إليه، ولا يخاف منه، وإنما يعتمد على الله، ويخاف من الله، ويثق بالله، ويؤمن بالله، فيحمله ذلك على عظيم حسن الظن بالله، وعظيم رجائه، والتوكل عليه والخوف منه، ما يقتضي عظيم الاستعاذة بالله قولًا واعتقادًا وعملاً من كلّ ما يخاف، وفي هذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: 1].

أعوذ يعني ألتجئ وأعتصم برب الناس؛ لأنه هو المالك لهم، القاهر، أمر عليهم، النافذ حكمه فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي يعلم ما توسوس به النفس، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقرب إلى عبده من حبل الوريد؛ الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ 1 مَلِكِ النَّاسِ 2 إِلَهِ النَّاسِ 3 مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: 1 - 4]، ولهذا لما وجد في نفسه شيء من القدر يعني وجد فيه نوع خاطر.

قال: **(فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اَللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي)** وهذا يبين حسن الظن بالله، وأن العبد إذا خطر له خاطر أو وسوسة فعليه أن يتوكل على الله، وألا يطيع الشيطان؛ بل إنه لا يورثه ذلك إلا

إقبالًا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن أعظم ما يذهب الشيطان وسوسته العلم النافع، ولهذا قال: **(فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ)** أي من كتاب الله أو من سنة رسوله أو من فقههما؛ ما يكون سببًا لزوال ما يقع في القلب من الخواطر الشيطانية الإبليسية، فالعلم هو نور يجل الله عَزَّ وَجَلَّ به الشبهات؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، هذا هو العلم؛ وكما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22]، فالعلم جلاء للشبهة، وذهاب للوسوسة، العلم النافع كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33]، وكما قال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81].

وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]، وهذا إنما يكون بالعلم النافع الذي يطلبه صاحبه ليهتدي، وليعرف الحق فيعمل به.

قال: **(فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اَللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي فَقَالَ لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا. مَا قَبِلَهُ اَللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ)** فهذا حديث عظيم يبين فضل العلم، والتفقه في الدين، وفيه ذهاب الشبهة، ويبين فضل العلماء في تثبيت الناس على العقيدة الصحيحة، وأن هذا هو الواجب على العلماء كشف الشبهات، وإزالة الريب الذي قد يقع بقلب من ضعف إيمانه، أو من جهل ما يجب عليه معرفته، أو من ضعف قلبه وعزيمته وإرادته، فتسلط الشيطان عليه بالوسوسة، هذا دور أهل العلم؛ أنهم يبصرونهم، ويعلمونهم، ويرشدونهم، حتى يسلموا من أسباب الضلال، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يثبتنا على دينه، وأن يحيينا على ملته، ويقبضنا على الإيمان به.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (61)

باب ما جاء في المصورين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

باب ما جاء في المصورين

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب؛ لأن التصوير من وسائل الشرك المنافي للتوحيد، وذلك أن أول شرك وقع في بني آدم كان بسبب التصوير؛ حيث أن قوم نوح لما غلوا في الصالحين ودًا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا، زين لهم الشيطان أن يصوروا لهم صورًا، وذلك بصنع التماثيل ؛ حتى إذا رأوا تلك الصور نشطوا إلى عبادة الله، فيعبدون الله كما عبده أولئك الله.

ثم لما مات أولك ودرس العلم وكثر الجهل زين لهم الشيطان عبادتهم، فعبودهم من دون الله؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا 23 وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: 23، 24].

فهذا يدل على خطر التصوير وأنه وسيلة من وسائل الشرك.

(المتن)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْلِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْلِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً**» أَخْرَجَاهُ.

(الشرح)

قوله: **(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي)** لأن الذي يصور يصنع التماثيل ويصنع ما يشبه خلق الله جَلَّ وَعَلَا من ذوات الأرواح، ويضاهي الله جَلَّ وَعَلَا في مخلوقاته، فهذا من أعظم الذنوب والكبائر العظيمة، ولهذا قال: **(روَمَنْ أَظْلَمُ)** يعني لا أشد ظلمًا، وهذا يبين أن التصوير وسيلة من سوائل الشرك، قال: **(فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً)** وهذا من باب التعجيز؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا هو

الخالق، وأما المخلوق فإنه لا يستطيع أن يخلق خلقًا كخلق الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال: **(فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً)** وهي النملة الصغيرة، قال: **(أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً)** والحبة هي حبة الحنطة، والشعيرة نوع آخر من الحبوب.

فهذا الحديث دل على تحريم التصوير وأن المصور قد عرض نفسه إلى الوعيد الشديد يوم القيامة نسأل الله العافية والسلامة.

(المتن)

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ».

(الشرح)

ذكر هذا الحديث ليبين عقوبة المصورين وأن التصوير مما ينافي التوحيد، وأنه من وسائل الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقوله: **(يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ)** هذه من نظير قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فهو يصور ذوات الأرواح ويصنعها تماثيلاً، ويصنع ما يشبه المخلوق مما له روح، فهذا من الذنوب العظيمة، فدل هذا الحديث على تحريم التصوير، وأن هذا مضاهاة لخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن من صور قد عرض لنفسه للعقوبة والعذاب العظيم، نسأل الله العافية والسلامة.**

(المتن)

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى ليبين مآل المصورين في الآخرة، وأن من صور ذوات الأرواح جعلها تماثيل وجعلها على ما يضاهي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنه يعذب بذلك يوم القيامة، فتجعل هذه الصورة على حال نفس يعذب بها في النار نسأل الله العافية والسلامة، أو يجعل له في كلّ صورة صورها روح تعذبه في النار جزاءً وفاقًا؛ لأنه ضاهي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا يبين خطر التصوير، وأنه من الكبائر الموجبة للعذاب، ولأن التصوير من وسائل الشرك، ولذلك كان العقوبة فيه شديدة، والنهي عنه مؤكد في هذه الأحاديث الظاهرة الدلالة والمعنى.

(المتن)

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

(الشرح)

هذا الحديث دل على وجوب طمس الصور، وهدم التماثيل، وأن هذا وصية علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبي الهياج، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذ عمن؟ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه أمر بهدم الصور والتماثيل، فهدم العزى ومناة واللات، وأيضًا هو سنة الأنبياء كما في خبر نبي الله وخليله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث هدم الأصنام وكسرها ؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: 93].

وهكذا كلّ موحد فإنه يهدم كلّ ما كان وسيلة من وسائل الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حسًا أو معنى، فيدعو إلى التوحيد، ويحذر من الشرك، ويعمل بالتوحيد، ويحب التوحيد، ويوالي في الله ويعادي في الله، وكذلك يسد الطرق المفضية للشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم إن هذا الحديث والأثر العظيم فيه قرن هدم التماثيل وطمس الصور بتسوية القبور، وذلك يبين العلاقة بين التصوير والشرك؛ فإنه كما أن الغلو في القبور يفضي إلى الشرك بالله؛ فكذلك الغلو في الصالحين وتصويرهم وجعل التماثيل على أشكالهم؛ فهذا كله من وسائل الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا يبين فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيضًا أن من قدر على تغيير المنكر بيده فإنه يفعل، وهذا لولاة الأمر، ولمن كان نائبًا عنه، كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من رأى منكم منكرًا فليغره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**.

كذلك فيه فضيلة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرته على التوحيد، وفيه ما يجب على ولاة الأمر من إقامة التوحيد والدعوة إليه وسد الطرق المفضية إلى نقضه ونقصه، نسأل الله أن يثبتنا على دينه ويقبضنا على ملته وأن يبعثنا على ذلك غير مغيرين ولا مبدلين.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (62)

باب ما جاء في كثرة الحلف

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ اَلْحَلِفِ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب ليبين أن كثرة الحلف مما ينافي كمال التوحيد، وذلك لاستهانة الحالف على هذا الوجه باسم الله العظيم؛ فإن من تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا ألا يحلف المسلم بالله إلا على أمر يوجب الحلف مما هو سائغ شرعًا، وأما كثرة الحلف خاصة على شيء من أمر الدنيا كالبيع والشراء؛ فإن هذا يدل على استهانة الحالف باسم الله العظيم، وهذا من ضعف تحقيقه للتوحيد.

كما أن كثرة الحلف قد تكون محل وقوع الحلف على أمرٍ يخالف الواقع، فيحلف الرجل بالله كاذبًا، أو كثرة الحلف خاصة في أمر مما يستهان به في أمر الدنيا، قد تحمل المحلوف له بالله على رد الحلف فيقع فيما هو مخالف لشرع الله جَلَّ وَعَلَا من وجوب الرضا بقول من حلف بالله كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من حُلف له بالله فليرض**»، وذلك لأن كثير الحلف يكون محل الإخبار وعقد اليمين على أمرٍ متوهم.

(المتن)

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89].

(الشرح)

هذه الآية فيها أمرٌ بحفظ اليمين، ومعنى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89]، أي لا تحلفوا بالله جَلَّ وَعَلَا إلا على أمرٍ له موجب، وأيضًا من معنى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89]، أي أوفوا بها،

ومن ذلك أنه إن حنث الحالف فإنه يكفر عن يمينه والله أعلم، فهذا كله من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن تحقيق التوحيد.

(المتن)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اَلْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» أَخْرَجَاهُ.

(الشرح)

قوله: **(مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ)** لأن المؤمن يقبل من أخيه المؤمن حلفه بالله؛ لأنه يعلم أن المؤمن لا يكذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا حلف به، فهو يكون بذلك سببٌ لكون سلعته تروج وتشترى لتصديقه بحلفه على ما عقد يمينه عليه من حسن أو من سلامة عيب ونحو ذلك، قال: **(مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ)** أي أنه سبب للنقص نقص البركة، وذلك لأن غالب من يحلف على هذا الوجه في بيعه وشرائه فإنه لا يخلو من عقد يمين على أمر متوهم أو أمرٍ غير صحيح لتنفق سلعته وتشترى، فيكون ذلك فيه معصية لله وكسبٌ على وجه غير مشروع، وهذا من ضعف التوحيد؛ فدل هذا على وجوب حفظ اليمين، والاحتراز من عقدها على أمرٍ من أمور الدنيا، أو أمرٍ لا يوجب الشرع عقد اليمين عليه.

ومما دل عليه أيضًا ما يكون من الكسب الحرام، وما يكون من أثره من محق البركة ونزع الخير.

(المتن)

وَعَنْ سَلْمَانَ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اَللَّهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُشَيمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اَللَّهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ» رَوَاهُ اَلطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث في هذا الباب، الشاهد منه قوله: **(وَرَجُلٌ جَعَلَ اَللَّهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ)** قوله: **(وَرَجُلٌ جَعَلَ اَللَّهَ بِضَاعَتَهُ)** أي جعل الحلف بالله بضاعة له، لتروج سلعته بيعًا وشراءً، وهذا يدل على قُبح فعله، وأن الفعل التساهل باليمين بعقدها في البيع والشراء على أمر حق أو غير حق أمرٍ متيقن أو أمرٍ متوهم أن هذا من معصية الله جَلَّ وَعَلَا ومن كبائر الذنوب، ولهذا قال: **(ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اَللَّهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**

فدل على أن استعمال الحلف في البيع والشراء على هذا الوجه من جهة كثرة اليمين وعقدها بحق وبغير حق أن هذا من أعظم الكذب على الله الموجب لسخطه وعذابه، نسأل الله العافية والسلامة.

مما دل عليه هذا الحديث صفة من صفات الله جَلَّ وَعَلَا وهي الكلام؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا موصوفٌ بذلك، فهو يتكلم، فهو صفة ذات كما أنها صفة فعل؛ فهو يتكلم بما شاء متى شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقدس، والكلام معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب، هذا هو الواجب على المؤمن أن يثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجه الكمال، وينفي عن الله عَزَّ وَجَلَّ ما نفاه عن نفسه أو ما نفاه عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا على وجه الكمال.

وقوله: **(ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اَللَّهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** دل على أن الله يكلم كلام إكرام عباده المؤمنين، قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(أُشَيمِطٌ زَانٍ)** هذا فيه بيان أن الزنا عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب الموجبة للعذاب؛ فإذا كان الرجل يزني مع ضعف الداعي وهو الأشيمط وهو الرجل كبير السن الذي ضعف داعي الفاحشة في نفسه لوهن قوته، ولكبر سنه، وقرب موته، وموجب الانزجار عن المعاصي؛ فإنه يزني، فهذا يبين أن المعصية قد تعظم بزمنٍ أو بشخص كعظيم المعصية في الأشهر الحرم، الأزمان الفاضلة أو في الأماكن الفاضلة كالحرم، أو من الرجل الذي الحجة قائمة عليه أبلغ مما قامت على غيره كالعالم أو كبير السن الذي أجرى الله له من دواعي الانزجار عن المعاصي والذنوب ما يوجب له أن ينزجر؛ ومع ذلك هو مصر على غفلته، وغيه، وضلاله، مثل هذا تكون معصيته أعظم من معصية غيره، وهذا يوجب على المرء أن يحذر من هذه الحال القبيحة العظيمة التي تعظم فيها السيئات.

قوله: **(وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ)** أيضًا هذا نظير ما ذكره في قوله: **(أُشَيمِطٌ زَانٍ)** وذلك أن العائل وهو الرجل كثير العيال قليل المال، وهذه حال توجب الانكسار والتواضع، ومع هذا الموجب إلا أنه مستكبر، وهذا يقتضي عظيم ذنبه، وكبير إثمه، وأن هذا الكبر لم يكن إلا من فسادٍ كبير عريض في نفسه، نسأل الله العافية والسلامة.

(المتن)

وَفِي "اَلصَّحِيحِ" عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ** «**قَالَ عِمْرَانُ فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟**» ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ اَلسِّمَنُ».

وَفِيهِ عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ: «أَنَّ اَلنَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ خَيْرُ اَلنَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى اَلشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذين الحديثين، وهذا فيه تعظيم الحلف واليمين، والشهادة، وأن الشهادة نوعٌ من أنواع اليمين، وأن التساهل في هذا حال من لا خير فيه، ولهذا ذكر خير القرون وهم الصحابة، وهم القرن الذي فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يليهم التابعون، ثم يليهم تابعوهم، فهؤلاء خير القرون.

ثم ذكر بعد الخيرية صفات من ضعف إيمانه وقل خيره، ومن صفات أولئك تساهلهم باليمين، ولهذا قال: (تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ) وهذا يعني أنهم يتساهلون بأداء الشهادة، ويتساهلون بعقد اليمين، وهذه صفة من لم يعظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن الشهادة حقه التعظيم وكذلك اليمين، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 19].

كذلك اليمين الله أمر بحفظها كما تقدم مما ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ من قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89]، فتبين من هذا خطر التساهل باليمين، وأن الواجب تربية النفس والذرية على تعظيم الله، ومن تعظيم الله الحذر من التساهل بالحلف والأيمان، والشهادات، وأن هذا منهج السلف في تربية أبنائهم على ما فيه سلامتهم في إيمانهم، وسلامتهم في عقيدتهم وتوحيدهم.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (63)

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اَللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب ليبين أن الوفاء بالعهد من تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ وتحقيق التوحيد، وأن نقض العهد مما ينافي كمال التوحيد.

(المتن)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: 91]، اَلْآيَةَ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذه الآية ليبين أن الوفاء بالعهود والمواثيق والأيمان من تحقيق التوحيد، ولهذا أضاف العهد إليه؛ فقال: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [النحل: 91]، وذلك تعظيمًا للعهد، وأن العهد مما يسأل عنه العبد يوم القيامة؛ فإنه إذا عقده فإنه مسئول عنه، وكذلك اليمين إذا عقدها فإنه مسئول عنها يوم القيامة، كذلك الشهادة إذا عقدها فإنه مسئول عنها يوم القيامة كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34]، وقال سبحانه: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 19].

ويدل على هذا عموم الأدلة التي في كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى أن المرء يُسأل عن قوله كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

فتبين من هذا وجوب الوفاء بالعهد والميثاق واليمين، وأن نقض ذلك من الاستهانة بالله وأمره وشرعه، ومما ينافي كمال التوحيد، ومما ينقص إيمان العبد، وينقص توحيده، وأنه بذلك معرض نفسه للوعيد والإثم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اَللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

فَقَالَ: "أُغْزُوَا بِسْمِ اَللَّهِ، فِي سَبِيلِ اَللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاَللَّهِ أُغْزُوَا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ «أَوْ خِلَالٍ»، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ اُدْعُهُمْ إِلَى اَلْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ " فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ اُدْعُهُمْ إِلَى اَلتَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ اَلْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى اَلْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ اَلْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اَللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي اَلْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ اَلْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْأَلْهُمُ اَلْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكَفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اَللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اَللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اِجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنَّ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اَللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اَللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اَللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اَللَّهِ أَمْ لَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(الشرح)

ذكر تعالى هذا الحديث في باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ليبين النهي عن إعطاء ذمة الله وذمة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للكفار، تعظيمًا لله، وتعظيمًا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خشية أن يحمل فعل الكفار المسلم على عدم الوفاء بهذا العهد، وقد عاهدهم بعهد الله، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون بهذا قد ارتكب إثمًا عظيمًا، ووزرًا كبيرًا، وهذا هو مناسبة ذكر هذا الحديث في هذا الباب، والشاهد منه قوله: **(وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اَللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اَللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ)** الحديث.

قوله: (وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) أراد بهذا العهد، أن تعاهدهم بعد الله، وعهد نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يجعل العهد عهدك منسوبًا إليك، فإذا أخطأت فهو خطؤك، وإذا غفرت فهو ذنبك، وأما إذا نسبت عهدك لله ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن هذا من أعظم الصد عن الله الصد عن رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يبين أن الواجب على المؤمن أن يتورع في فيمينه وفي عهده، وأن يكون دائمًا عظيم الحرص على تحقيق التوحيد في كلّ حاله، في قوله وعمله واعتقاده.

وأيضًا مما يدل عليه هذا الحديث وجوب الاحتياط في الوقوع في الكبائر والذنوب، وفي بذل ما يكون سببًا للوقاية من ذلك، وهذا الحديث حديث طويل فيه فوائد كثيرة، وفيه معالم يطول الكلام فيها مما ليس محله هذا المقام الذي هو مقام الاختصار والإيجاز.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (64)

باب ما جاء في الإقسام على الله

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

باب ما جاء في الإقسام على الله

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب في بيان أن الإقسام على الله جَلَّ وَعَلَا مما فيه نوع جرأة على الله مما ينافي التوحيد.

(المتن)

عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ رَجُلٌ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: " أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: " تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ ".

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث ليبين خطر الجرأة على الله جَلَّ وَعَلَا، ويبين خطر الثقة بالنفس والإيمان، وأن العبد قد يدخله العجب بنفسه وعمله، فيظن أنه ناجٍ وغيره هالك، فيكون هذا سبب لحبوط عمله، ومن أسباب حبوط العمل التألي على الله ألا يغفر لعبد من عباده كحال أهل الكبائر؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا إذا شاء غفر للمذنب فأوجب له الرحمة وعفا عنه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48].

فإقسام الرجل على الله تأليه على الله أنه لا يغفر لفلان هذا فيه تكذيب لله الذي قال في كتابه: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [النساء: 48]، وفيه أيضًا عُجبٌ بالنفس، وفيه احتقار وكبر على الخلق، وفيه أيضًا رجم بالغيب مما لا يعلم إلا بوحي، ومما لا يعلم حال العبد من جهة نجاته وفوزه وفلاحه ونيله رحمة الله أو هلاكه وعذابه وحلول سخط الله عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا في علاه، هو الذي يعلم من الذي ينجو؟ ومن الذي يهلك؟ من الذي يدخل الجنة برحمته؟ ومن يوجب الله جَلَّ وَعَلَا له العذاب بعدله وحكمته؟

فتألي الرجل على الله أنه لا يغفر لفلان هو تجاوز على الله موجب لسخط الله، وهذا مما ينافي التوحيد، مما قد يخرج من الإسلام نسأل الله العافية والسلامة، وهذا يوجب التحرز من اللسان، وبيان خطره، وأن الرجل قد يهلك بكلمة لا يلقي لها بالًا، ولهذا قال أبو هريرة: **(تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ)** وهذا يبين أيضًا سعة رحمة الله، وأن الله جَلَّ وَعَلَا إذا أقبل عبده عليه بشهادة أن لا إله إلا الله ولم ينقص إسلامه بموجب الردة وحبوط الأعمال؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا يقبل من عبده، فإما أن يغفر للمذنب وإما أن يعذبه بقدر ذنبه ثم يطهره من ذنوبه، ثم يدخله في رحمته وجنته، وهذا من عظيم رحمة الله وفضله.

أيضًا فيه بيان فقر العبد لله، وأنه مهما كان فيه من الصلاح، مهما كان فيه من التقوى، مهما كان له من الفضل والعلم والعبادة؛ فإنه فقير إلى الله أن يقبل الله منه عمله، وأن يثبته على طاعته، وأنه إذا لقي الله تدركه رحمة الله؛ كما في الحديث: «**إنه لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»، نسأل الله الثابت على دينه.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (65)

باب لا يستشفع بالله على خلقه

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاَللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اَللَّهِ! نُهِكَتِ اَلْأَنْفُسُ وَجَاعَ اَلْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ اَلْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اَللَّهِ فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " سُبْحَانَ اَللَّهِ! سُبْحَانَ اَللَّهِ! " فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اَللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اَللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاَللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ» وَذَكَرَ اَلْحَدِيثَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الحديث ليبين أن الاستشفاء بالله على خلقه فيه نقص في التوحيد، وهضمٌ لجانب عظمة الله جَلَّ وَعَلَا الرب الذي هو رب العالمين، وهو مالكهم، وهو مدبرهم، وهو الغني عنهم، والذين هم في فقر ذاتي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغني عنهم من كلّ وجه.

والشافع يشفع عند من هو أعلى منه، وليس الأعلى يشفع عند الأدنى، فالله جَلَّ وَعَلَا منزه عن مماثلة المخلوقين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو لا يستشفع به عند خلقه، وإنما يستشفع عنده للمخلوق بإذنه إذا رضي عن المشفوع له، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِ﴾ [البقرة: 255].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26].

فهذا الحديث الشاهد منه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاَللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ) أنه لا يُطلب شفاعة الله للمخلوق عند المخلوق، وذلك لعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله

لا يجعل واسطة بين المخلوق والمخلوق، وإنما حق الله التعظيم، والله جَلَّ وَعَلَا هو الذي حُق أن تجأر إليه القلوب والألسنة بالدعاء والابتهال والاستغاثة؛ لأنه هو القاهر لعباده، القادر عليهم، النافذ فيهم أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العلي الحكيم.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(سُبْحَانَ اَللَّهِ! سُبْحَانَ اَللَّهِ!)** هذا فيه أن من رأى ما يُنكره ينزه الله جَلَّ وَعَلَا فيسبح، وهذا التسبيح إنكار، وتعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عما لا يليق مما يوصف به أو ينسب إليه أو إلى دينه وإلى شرعه، أن ينزه الله عما لا يليق به، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ 180 وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ 181 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 180 - 182].

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَيْحَكَ!)** هذه كلمة للزجر، وقوله: **(أَتَدْرِي مَا اَللَّهُ؟)** هذا سؤال استنكار وتعظيم وتوبيخ؛ وذلك لأن من قال هذه المقولة إنما قالها لقلة علمه، أو لاستهانته بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا مما ينافي التوحيد، نسأل الله العافية والسلامة.

قال: **(إِنَّ شَأنَ اَللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ)** يعني أن شأن الله أعظم من أن يجعل واسطة بين المخلوق والمخلوق؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الخالق الغني عن عباده من كلّ وجه، فدل هذا على تحريم الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه، لما في ذلك من التنقص بالله، لما في ذلك من منافاة كمال التوحيد، فدل على أن تنزيه الله جَلَّ وَعَلَا عما لا يليق بجلاله من تحقيق التوحيد، ودل أيضًا على إنكار المنكر، ودل أيضًا على تعليم الجاهل.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (66)

باب ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وصده طرق الشرك

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابٌ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى اَلتَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ اَلشِّرْكِ.

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذا الباب لبيان أن التوحيد لا يتم إلا بتجنب أسباب نقضه، وأسباب نقصه.

(المتن)

عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**اِنْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَا أَنْتَ سَيِّدُنَا فَقَالَ " اَلسَّيِّدُ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى " قُلْنَا وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَولاً. فَقَالَ " قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ اَلشَّيْطَانُ ".**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى لبيان أن من الطرق المفضية إلى نقص التوحيد أو نقضه الغلو في محبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو في مدحه، أو في الثناء عليه، وكذلك من دون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصالحين والعباد والعلماء، كلّ هذا مما يُنهى عنه لما يؤول إليه من الطرق التي تكون بابًا لنقض التوحيد أو نقصه بالشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا الحديث فيه خبر نفر من بني عامر، وفدوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقالوا له: **(أَنْتَ سَيِّدُنَا)** ولاشك أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد ولد آدم؛ كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«أنا سيد ولد آدم»**.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أدبهم ورباهم وذلك سدًا لطرق الشرك، وحماية لحماه، ودفعًا لوساوس الشيطان أن يستجري المسلم إلى ما فيه نقض توحيده، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(اَلسَّيِّدُ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)** والسيد اسم من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله هو السيد على وجه الإطلاق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي له السؤدد التام، وله الملك على عباده، وله الفضل عليهم، وله القهر، فهو العظيم الذي عظم سؤدده كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ 1 اللَّهُ الصَّمَدُ 2 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ 3 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1 - 4].

ومن معاني الصمد أي الذي كمل سؤدده لكمال غناه عن خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا فيه حماية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحمى التوحيد، وصونه عما قد يشوبه من الأعمال والأقوال التي تضاده أو تنقصه، وهذا من تربية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه، وتأديبه لهم، وإرشاده لهم إلى ما ينبغي من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحفظ ألسنتهم عما يكون سببًا للولوج في الشرك، أو إلى نقص التوحيد نسأل الله العافية والسلامة.

قال: **(قُلْنَا وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً)** يعني أفضل الناس وهذا حق، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد ولد آدم، فهو خيرهم وأفضلهم وهو أجلهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكما أن أمته خير الأمم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، فهو خير الأنبياء وأفضلهم، وأعظمهم مكانة ومنزلة عند الله، ولهذا جعل الله جَلَّ وَعَلَا له المقام المحمود بالشفاعة يوم القيامة، يوم أن يأتون إلى آدم ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، ويطلبون منهم الشفاعة عند الله جَلَّ وَعَلَا، كلّ منهم يقول: لست لها، ثم يستشفعون بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسجد تحت العرش، فيعظم الله ويفتح له بمحامد؛ فيقال له: «**يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعط**»، فيشفع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخلق، وهذا هو المقام المحمود، وهذه هي الشفاعة العظمى، فهو صل أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة؛ حين يُحشر الناس إلى ربهم، وهو أول من يدخل الجنة، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد ولد آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله: **(وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً)** يعني فضلاً وعطاءً، فهو المحمود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو عبد الله ورسوله، رسولٌ لا يُكذب وعبدٌ لا يعبد، فنهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن يستجرينهم الشيطان بهذا المدح والثناء، فقال: **(قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ)** قولوا بقولكم أي القول المعتاد بالنداء للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول رسول الله، ولا تتكلف الألفاظ والمدائح التي قد تفضي إلى نقص التوحيد أو نقضه.

قال: **(أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ)** يعني دعوا بعضه واتركوه سدًا لذريعة الولوج في الشرك أو نقص التوحيد، وهذا نظير قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح**

عيسى بن مريم، وإنما أنا عبد الله ورسوله»، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدٌ لا يُعبد وهو رسولٌ لا يكذب، فهذا يبين أن الغلو في مدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نقص التوحيد، وإن كان هذا الغلو مما يكون فيه إعطاء للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لله في إلهيته أو في ربوبيته؛ فإن هذا من نقض التوحيد المنافي للأصل الإيمان، أسأل الله العافية والسلامة.

فتبين من هذا فضل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتواضعه؛ فإنه هو المحمود وهو سيد ولد آدم، وأفضلهم، ومع ذلك نهاهم تواضعًا وتربية لأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وتبين من هذا أن الله جَلَّ وَعَلَا هذا السيد الذي له السؤدد حقيقة، والذي يليق به المدح على وجه الإطلاق وعلى وجه الكمال؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

دل أيضًا على أن التكلف في المدائح للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان في بعضها حق مما لا محذور فيه شرعًا فيحمله بذلك على أن يلج باب الغلو، والإيهام في الألفاظ مما قد يخرج بذلك عما يجب عليه من تعظيم التوحيد، فيرفع بذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن منزلته إلى منزلة الرب فينقص توحيده نسأل الله العافية والسلامة.

فالشيطان قد يحمل المسلم لعظيمة محبة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يرفعه إلى منزلة الله، فيخرج بذلك عن دينه وينقض بذلك توحيده، وهذا يبين وجوب سد الذرائع المفضية إلى نقض الدين، ونقصه، والولوج في الشرك، والخروج من الإسلام بالأقوال، وإن كان صاحبها إنما قصد تعظيم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان الباعث على ذلك عظيم محبته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن هذا لا يكون حجة لصاحبه أن يرفع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق منزلته، فهو عبد الله لا يُعبد، لا يُعطى ما لله من خصائص في إلهيته وربوبيته، أو أسمائه وصفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا يَا رَسُولَ اَللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ يَا أَيُّهَا اَلنَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ اَلشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اَللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي اَلَّتِي أَنْزَلَنِي اَللَّهُ - عزوجل -». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

(الشرح)

هذا الحديث ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالى في النهي أن يمدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغير ما وصفه الله عَزَّ وَجَلَّ به، أو أن يكون المدح وسيلة وذريعة إلى أن يمدح بما لا يليق به مما هو لائق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أوصاف الإلهية والربوبية، مما يفضي إلى نقض التوحيد والدخول في

الشرك، ولهذا قال: (وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ اَلشَّيْطَانُ) يعني لا يزين لكم فيلقي في قلوبكم الهوى، فيخرجكم بذلك عن الإسلام، فهذا فيه النهي عن الغلو في المدح للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن دونه من باب أولى.

فيه النهي عن التكلف في ألفاظ المدح والثناء، وأيضًا فيه تواضع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه غيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التوحيد، وحرصه عليه، وسده الطرق التي تفضي إلى الشرك، وحمايته حماه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه أيضًا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله، وإذا كان عبدٌ لله كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: 1].

وصفه بالعبودية في محل الرفعة وهو الإسراء والمعراج، فدل على أن أشرف مقامات العبد هو توحيد الله، وتعظيم الله، والفقر لله، ومن كانت هذه حاله فليس له شيء من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يدعى ولا يوصف بأوصاف الربوبية، ولا يجعل لله ندًا ونظيرًا في أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقدس.

أيضًا فيه أن الشيطان حريص على أهل التوحيد يستهوينهم، فيلقي في قلوبهم الهوى، ويستجرينهم خطوة خطوة لنقض التوحيد، أو نقصه، أو الاستهانة به، مما يكون في ذلك فتح لأبواب الشرك، ونقض للتوحيد وخروج من الإسلام من حيث قصد صاحبها أو لم يقصد، من حيث لم يقصد المرء فيخرج بذلك عن دينه وهو يظن أنه يحسن صنعًا، وهذا كله من اتباع خطوات الشيطان، وأن الواجب على المسلم أنه في محبته للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن دونه من الصالحين عليه أن يكون في ذلك متقربًا لله، وكونه متقربًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنه يجعل هذه المحبة سببًا لغضب الله وسخطه، وذلك إذا حملته هذه المحبة على أن يجعل للمخلوق ما هو لله، في إلهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

كتاب التوحيد

رقم الباب (67)

باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [الزمر: 67].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد ...

(المتن)

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67].

(الشرح)

عقد رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب في ختام هذا الكتاب العظيم كتاب التوحيد؛ ليبين أن من تحقيق التوحيد تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن تعظيم الله حق التعظيم يقتضي توحيد الله والإسلام له ظاهرًا وباطنًا، والبراءة من الشرك وأهله، ويبين أن المشرك ليس معظمًا لله، وأن بقدر ضعف تعظيم الله في قلب العبد يضعف توحيده، وليبين أن التفكر في عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقهره لعباده، وأن هذا الكون العظيم كله بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مما يفضي إلى تعظيم الله، والخوف من الله، وإجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيكون من أثر ذلك توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: 67])** يعني المشركين؛ فإنهم بشركهم ما قدروا الله، وما عظموه، وما عرفوا عظمته، وما يجب له من إخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: 67]، قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا﴾، يعني الأرض بجميع جهاتها وطبقتها، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67]، قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر: 67]، تنزيه، قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67]، يعني عما جعلوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أندادًا في العبادة من الأصنام وغيرها التي ليس لها شيء في هذا الملك، ملكًا ولا شركًا ولا إعانة لله على هذا الخلق وتدبيره، كما أنا مربوبة مخلوقة كانت عدمًا ثم تصير فناءً، فتبين من هذا عظيم ظلم المشرك،

وأنه ظالم لنفسه، مائلٌ عن العدل والحق، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

فتبين من هذا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو العظيم، القادر، القاهر، المالك لكل شيء، الذي كلّ شيء تحت قهره، وتحت تدبيره، فإذا علم أن هذه الأرض تكون في قبضته يوم القيامة، وهذه السموات العظيمة التي بهرت الأبصار والقلوب والعقول بعظمتها تكون مطويات بيمينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعلم العلم أنه ضعيف فقير إلى الله، وأن كلّ مشرك قد ظلم نفسه ظلمًا عظيمًا بعدم تعظيمه لله وتقديره حق قدره، وأن هذا هو الحامل على كفره وشركه، وذلك لجهله بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبعظمته، ولإعراضه عما ينفعه، ولإعراضه عن التفكر بموجب التعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

(المتن)

عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ اَلْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اَللَّهَ يَجْعَلُ اَلسَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ اَلْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا اَلْمَلِكُ، فَضَحِكَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ اَلْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: 67]» اَلْآيَةَ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ أَنَا اَلْمَلِكُ أَنَا اَللَّهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «وَيَجْعَلُ اَلسَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ اَلْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ اِبْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اَللَّهُ اَلسَّمَاوَاتِ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ ثُمَّ يَاخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اَلْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا اَلْمَلِكُ أَيْنَ اَلْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ اَلْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي اَلْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ، ثُمَّ يَاخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا اَلْمَلِكُ، أَيْنَ اَلْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ اَلْمُتَكَبِّرُونَ؟».

وَرُوِيَ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَا اَلسَّمَاوَاتُ اَلسَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ اَلسَّبْعُ فِي كَفِّ اَلرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

وَقَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا اِبْنُ وَهْبٍ، قَالَ قَالَ اِبْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا اَلسَّمَاوَاتُ اَلسَّبْعُ فِي اَلْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي

تُرْسٍ» قَالَ: «وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتَ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا اَلْكُرْسِيّ فِي اَلْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ اَلْأَرْضِ».

وَعَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «بَيْنَ اَلسَّمَاءِ اَلدُّنْيَا وَاَلَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ اَلسَّمَاءِ اَلسَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ اَلْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ اَلْمَاءِ، وَاَللَّهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ» أَخْرَجَهُ اِبْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ اَلْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ، قَالَهُ اَلْحَافِظُ اَلذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اَللَّهُ تَعَالَى قَالَ «وَلَهُ طُرُقٌ».

وَعَنْ اَلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْنَا اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ اَلسَّمَاءِ اَلسَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

(الشرح)

ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالى هذه الأحاديث ليبين عظمة الله جَلَّ وَعَلَا، وأن المشرك ليس معه حجة من كتاب الله وسنة رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أنه ليس معه حجة من عقل؛ لأنه لو كان يسمع كلام الله وكلام رسوله سماع انتفاع، أو يعقل عظمة الله جَلَّ وَعَلَا ويبصر هذا الخلق وما فيه من الآيات العظيم الدالة على الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الموجب لتوحيده لما أشرك، فتبين من هذا أن المشرك ما قدر الله حق قدره، وعدل عن ربه، ولهذا كان الشرك أظلم الظلم، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

وكما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، والظلم هو الشرك.

حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو العظيم جَلَّ وَعَلَا، ومن عظمته أنه يوم القيامة يضع السماوات على إصبع، والأراضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، وهذا يبين عظيم أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه موصوف بما يليق به من الصفات الذاتية، والصفات الفعلية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن صفاته اليدين لله جَلَّ وَعَلَا، ومن صفاته الأصابع له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن صفاته اليمين والشمال، والكف، كلّ هذا مما ثبتت فيه النصوص، ومن ذالك هذا الحديث عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكلام، فهو ينادي ويقول: أنا الملك، ويتكلم على الوجه اللائق به، وهذا كله من صفات الله التي يجب على المسلم أن يثبتها لله، كما أثبتها الله لنفسه، وينزه الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الصفات، وفي جميع صفاته، سبحانه أن تكون تشبه صفات المخلوقين، فهو يثبت من غير تشبيه، وهو ينزه من غير تعطيل.

ومما دل عليه حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن اليهود من أهل الكتاب الذين عندهم من العلم ما جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتأييده، ولهذا لما جاء الحبر وهو أحد علماء اليهود وأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الخبر ضحك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأييدا وتصديقًا لقوله، وهذا يدل على أن المسلم يجب عليه أن يقبل الحق ممن جاء به، ولا يحمله كون الذي جاء بالحق مخالف له أن يرد الحق، فإن الحق أحق أن يتبع.

وأما ما ذكره رَحِمَهُ اللهُ من قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(مَا اَلسَّمَاوَاتُ اَلسَّبْعُ فِي اَلْكُرْسِيّ)** الحديث، أيضًا هذا فيه بيان عظمة مخلوق من مخلوقات الله، وهو الكرسي والعرش، وأن هذه السماوات السبع على عظمتها وكثافتها وتباعد ما بينها؛ هي كسبع دراهم وضعت في قاعٍ واسع، فكأن هذه الدراهم قد ضاعت في سعة هذا القاع، فأصبحت لا شيء، ولهذا قال: **(مَا اَلْكُرْسِيّ فِي اَلْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ اَلْأَرْضِ)**.

فهي ليست بذات حجم عند الكرسي، هذا يدل على عظم هذا المخلوق العظيم، ومع ذلك فالله جَلَّ وَعَلَا على العرش، على العرش استوى، وهو فوق السماوات العلا، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهذا يدل على عظمة الله، وأن المخلوق بمعاصيه وكبائره وذنوبه وشركه قد ظلم نفسه أشد الظلم الموجب لأشد العذاب نسأل الله العافية والسلامة.

وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: **(بَيْنَ اَلسَّمَاءِ اَلدُّنْيَا وَاَلَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ)** الحديث، هذا يبين أيضًا عظم هذه السماوات، وأن هذا من الأخبار التي أخبر عنها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما في المخلوقات العلوية من العظمة والسعة، وأن هذا دال على عظمة الله الذي خلق هذا الخلق العظيم، ومع ذلك يطوي الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الخلق العظيم يوم القيامة، فجعل السماوات على إصبع والأراضين على إصبع، هذا يدل على ضعف الإنسان وفقره لله، وعظيم حاجته لربه أن يعفو عنه، وأن يغفر خطيئته يوم الدين، وأنه لا يهلك على الله إلا هالك، لظلمه، وكبيرته، وعظيم بعده، وتسببه على نفسه بالطرد من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

من تأمل هذا تبين له وجوب تعظيم الله، وتبين له أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق السموات، وأن له العلو والقهر، علو القدر وعلو الذات، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة خلافًا للفرق والطوائف التي تنفي صفة علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على خلقه.

ودل أيضًا على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محيط بخلقه، فهو يعلم حالهم ولا يخفى عليه شيء من أمرهم، وهو فوق عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، دل أيضًا على أن الواجب على المسلم في تحقيقه للتوحيد وتنقيته لقوله وعمله واعتقاده من أسباب نقضه أن يتعاهد قلبه بأسباب تعظيم ربه؛ حتى يثبت على التوحيد، و يعظم الرب في قلبه، فيكون ذلك من أعظم البواعث على الثبات، وعلى العمل الصالح، والتقوى لله، والتوبة إليه والإنابة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا كله من ثمرات تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبهذا تم التعليق على هذا الكتاب العظيم (كتاب التوحيد) ونستغفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونتوب إليه مما وقع في هذا التعليق من زلل أو نقص أو خلل، وأسأل الله أن يكون ذلك مما يرفع الله عَزَّ وَجَلَّ به الدرجات ويحط به الخطيئات، ويدفع به المصائب والملمات، وأن ينفع به قائله والمستمع له، وناشره، وأن يكون ذلك في ميزان حسناتنا ووالدينا، ومشايخنا، وتلاميذنا، ومن أحبنا فيه، ومن أحببناه فيه، ومن له حقٌ علينا.

وصيتي لنفس ولكم

تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والعناية بالتوحيد، العناية به كما الله جَلَّ وَعَلَا أخبر في كتابه ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته لأهميته، ووجوب العناية به، كما هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو العناية بذلك، وقد درسنا في هذا الكتاب ما يبين أهمية التوحيد، وفضله ووجوب العناية به، وتحقيقه، وما يوجب تعلم مسائل التوحيد على وجه التفصيل؛ حتى ينتفي بذلك الجهل انتفاءً باستبانة طريق الهداية من طريق الضلالة، وطريق الغواية من طريق الجهالة، طريق أهل السعادة من طريق أهل الشقاوة، لا يكون هذا إلا بالعلم، تعرف دين الله فتعمل به، وتعرف ما ينافيه فتجتنبه، لا يكون هذا إلا بالعلم، وأعظم ذلك التوحيد، فهذا الكتاب كتاب عظيم، أوصي بحفظه، وكثرة قراءته وإقرائه، يقرأه الزوج مع زوجته وأولاده، ويقرأه إمام المسجد مع جماعته، والأستاذ مع تلاميذه، ويقرأه الواحد في نفسه وبينه بين ربه، يجعله معه ويكثر النظر فيه وفي فهم معانيه، وقراءة ما كتبه العلماء في شرح الكتاب العظيم.

أيضًا استماع الشروح التي بيّن العلماء فيها معاني هذا الكتاب، وما فيه من العلم العظيم الجليل، فالعناية بهذا من أوجب الواجبات كما تقدم، خاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشرور والفتن، والصوارف عن التوحيد، وكثر فيه الدعاة إلى الشرك، والإلحاد والزندقة والبدع، والأهواء، وكثر فيها من ينتسب إلى العلم ويزهد في التوحيد ويصرف عنه.

فالواجب العناية بذلك حتى لا ينتشر الجهل؛ فإن عدم العناية بتعلم التوحيد أو عدم الدعوة إليه، أو ترك بيان مسائل التوحيد من شأنه انتشار الجهل، ومن شأنه انتشار الشرك،

ونقض التوحيد كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية".

نسأل الله أن يثبتنا على التوحيد، وأن يحيينا على التوحيد، وأن يقبضنا على التوحيد، وأن يبعثنا على التوحيد، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد

كتاب التوحيد

الخاتمة

وصية الشارح لمن يبلغه كلامه

وبهذا تم التعليق على هذا الكتاب العظيم (كتاب التوحيد) ونستغفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونتوب إليه مما وقع في هذا التعليق من زلل أو نقص أو خلل، وأسأل الله أن يكون ذلك مما يرفع الله عَزَّ وَجَلَّ به الدرجات ويحط به الخطيئات، ويدفع به المصائب والملمات، وأن ينفع به قائله والمستمع له، وناشره، وأن يكون ذلك في ميزان حسناتنا ووالدينا، ومشايخنا، وتلاميذنا، ومن أحبنا فيه، ومن أحببناه فيه، ومن له حقٌّ علينا.

وصيتي لنفس ولكم

تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والعناية بالتوحيد، العناية به كما الله جَلَّ وَعَلَا أخبر في كتابه ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته لأهميته، ووجوب العناية به، كما هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو العناية بذلك، وقد درسنا في هذا الكتاب ما يبين أهمية التوحيد، وفضله ووجوب العناية به، وتحقيقه، وما يوجب تعلم مسائل التوحيد على وجه التفصيل؛ حتى ينتفي بذلك الجهل انتفاءً باستبانة طريق الهداية من طريق الضلالة، طريق أهل السعادة من طريق أهل الشقاوة، لا يكون هذا إلا بالعلم، تعرف دين الله فتعمل به، وتعرف ما ينافيه فتجتنبه، لا يكون هذا إلا بالعلم، وأعظم ذلك التوحيد، فهذا الكتاب كتاب عظيم، أوصي بحفظه، وكثرة قراءته وإقرائه، يقرأه الزوج مع زوجته وأولاده، ويقرأه إمام المسجد مع جماعته، والأستاذ مع تلاميذه، ويقرأه الواحد في نفسه وبينه بين ربه، يجعله معه ويكثر النظر فيه وفي فهم معانيه، وقراءة ما كتبه العلماء في شرح الكتاب العظيم.

أيضًا استماع الشروح التي بيّن العلماء فيها معاني هذا الكتاب، وما فيه من العلم العظيم الجليل، فالعناية بهذا من أوجب الواجبات كما تقدم، خاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشرور والفتن، والصوارف عن التوحيد، وكثر فيه الدعاة إلى الشرك، والإلحاد والزندقة والبدع، والأهواء، وكثر فيها من ينتسب إلى العلم ويزهد في التوحيد ويصرف عنه.

فالواجب العناية بذلك حتى لا ينتشر الجهل؛ فإن عدم العناية بتعلم التوحيد أو عدم الدعوة إليه، أو ترك بيان مسائل التوحيد من شأنه انتشار الجهل، ومن شأنه انتشار الشرك،

ونقض التوحيد كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية".

نسأل الله أن يثبتنا على التوحيد، وأن يحيينا على التوحيد، وأن يقبضنا على التوحيد، وأن يبعثنا على التوحيد، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد